

سنوات في جنوب السودان

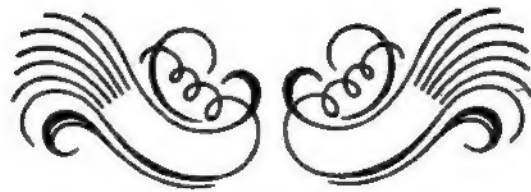


د. عبد الله السميع

سنوات في جنوب السودان

وجهدك في السَّعْيِ

سنوات في جنوب السودان





الطبعة الأولى

١٩٨٦



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

* إلى حضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير البلاد الذي لولا أنه طلب مني العودة إلى مقر عملي لما حصلت على شهادة الدكتوراه الفخرية ولما رأى هذا الكتاب النور، لأننى ما كنت فكرت فيه أصلاً، وعندما عدت إلى جوبا في أواخر عام ١٩٨٠ برزت في رأسى فكرة كتابة مشاهداتى بهدف أن يتعرف المواطن العربى على جزء من عالمه العربى الأفريقى من خلال حياة مواطن عاش فيه عشر سنوات .

* وإلى والدتى - رحمها الله - التى كانت تقول لشقيقتى، عندما يلحن عليها، بأن تطلب منى ترك العمل فى جنوب السودان والعودة للعيش معهم، طالما هو راغب فى الاستمرار فلن أكرهه ليعود .

* وإلى زوجتى التى تحملت تربية أو لادى فى أصعب مراحل نموهم وماشكت يوماً، حتى عندما خاطبها الطفل ذو الأربعة أعوام سنة ١٩٨٣ بقوله .. كل الأطفال عندهم آباء، «يفسّحُونهم»، ويشترون لهم الهدايا إلا هو.. دمعت عيناها وما أبلغتنى .

فإليكم يا صاحب السمو وإليك ياسيدتى الوالدة - رحمك الله - وإليك يارقيقة دربى وربيع عمرى، أهدي وبكل الامتنان والحب والعرفان بالجميل مشاهداتى فى جنوب السودان .

المؤلف





رحمك الله يا أم عبد الله.. فقد غبت عنا جسداً وروحك صعدت
إلى بارئها، أما إسمك فسيبقى يُرَدَّدُ دائماً (أم عبد الله) على البئر
التي حفرتها باسمك في جوبا، ليرتوي من مائها العشرات يومياً، ثوابه
وأجره لك إن شاء الله..

إبنك

10

11



اپنی لکب ..

زوجہ کی



اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَاذَا كُنْتُ اُفَكِرُ ..

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة أولى:

عادة إذا مانويت عملاً ، أكتبه أو أنجزه بسرعة ، إلا في هذا الكتاب ؛ فقد بدأت تسجيلاً في مارس ١٩٨١ وماظهر مكتوباً على الورق إلا في يونيو (حزيران) ١٩٨٥ ، وقد شد أزري في إنجازهِ السيد صلاح عبد اللطيف^(١) .

لقد ظننت أن ماسوف أكتبه عن جنوب السودان لايزيد في محتواه على عدد من الصفحات ، لاتصل إلى عدد أصابع اليدين ، ولكن عندما بدأت ، شعرت أن الكلمات تتسابق متدافعة من فمي كحبات المطر المنهمر ، حتى نُخِّل إلي أننى أغرق في وسطها .

وأخيراً انتهى العمل به كمسودة ، فذهبت به إلى الأستاذ البروفيسور محمد عمر بشير^(٢) وهو غني عن التعريف ، فله مؤلفاته وشهرته على مستوى العالم العربى والأجنبى ، كأحد المفكرين العرب .

كنت قد أعددت الكتاب من جزئين .. الأول عن فترة إقامتى التى دامت في جنوب السودان عشر سنوات ، والثانى عن عادات بعض قبائل الجنوب ، وقد

(١) صلاح عبد اللطيف مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط في الخرطوم حاصل على ماجستير من جامعة القاهرة عن الاعلام الأفريقي .

(٢) محمد عمر بشير: أستاذ الدراسات الأفريقية بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم تلقى دراساته في جامعة الخرطوم وفي جامعة اكسفورد ، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة هل ومن جامعة جوبا وعمل سكرتيراً أكاديمياً لجامعة الخرطوم ووكيلاً لها وسفيراً بوزارة الخارجية السودانية وله عدة مؤلفات عن السودان وأفريقيا والعالم العربى .

اخترت قبائل الإقليم الاستوائى، حيث يوجد مكتب دولة الكويت، واقترح الأستاذ بشير أن يكونا كتابين بدلاً من كتاب واحد، ذلك أن الجزء الأول، وصفه بأنه قصة حياة يمكن للمرء أن يقرأها في أى مكان وحتى قبل النوم، أما الجزء الثانى فهو علمى بحث، سوف يستفيد منه الباحثون، إلا أنى فضلت أن أجمعها في كتاب واحد.

إن أكثر ما شدنى خلال تلك الفترة بساطة الانسان السودانى.. فهم رسميون جداً في عملهم، دقيقون في مواعيدهم، أما بعد ساعات العمل، فلا تستطيع أن تميز بين كبيرهم وصغيرهم، ومن ذلك أنهم في غير أوقات العمل يسمون الناس بأسمائهم، حتى إنى ألقت مناداتى هناك، عندما يحينى بعضهم بقوله.. إزيك أبو عبده. (أى كيف حالك).

لقد طالت إقامتى حتى حُيِّل للبعض أننى لن أغادر جوبا فلقبوني بعمدة المودعين والمستقبلين.. فكلما يُثَقَّل شخص نذهب جميعاً، نحن الذين عرفناه، لتوديعه، وكذلك نستقبل بديله، وحصل كثيراً أن ودعت شخصاً واحداً واستقبلته ثانية أكثر من مرة، وطوال فترة إقامتى لم أحاول طلب بناء بيت لى، أو حتى تغيير الأثاث القديم، ذلك كى لأميّز نفسى عن باقى المسئولين، إلى أن سكن المسئولون الجنوبيون «الفلل» ذات الطابقين، فطلبت إنشاء بيت، فلم تتردد الهيئة واعتمدت المبلغ اللازم، ويشاء الله ألا أسكنه.

كما أسعدنى أن أسمع من كل مسئول ووزير يتسلم وظيفته وألتقى به بقوله: حبذا لو كل إخوانكم العرب، يفتحون لهم مكاتب كهذا المكتب. إنى أعتبر هذا ثناءً ودليلاً على نجاح أعمال مكتب الكويت وخاصة في حياده من السياسيين الجنوبيين الذين يتنافسون على السلطة.

إن أى انسان اذا ما عاش في بلد ما، وفي مدينة معينة منه، تصبح جزءاً من حياته، وهذا هو شعوري بالنسبة لمدينة جوبا، فلن أنساها أبداً، فلقد تعلمت منها الكثير.

المؤلف

مقدمة ثانية :

لا أعرف دبلوماسياً عربياً أو غير عربي ، تفاعل مع المواطنين في جنوب السودان ، شماليين أو جنوبيين ، مثلما تفاعل عبدالله السريع ممثل الكويت في جوبا لمدة لاتزيد على ثلاثة أعوام .

عرفه الصفوة في جوبا ، خاصة أولئك الذين يعملون في دواوين الحكومة الإقليمية ، وغير الصفوة خاصة من الذين ارتبطوا ، بحكم عملهم ، بالمشروعات التي كان ينفذها باسم دولة الكويت .

لم يكن أحدٌ يناديه بغير عبدالله جوبا ، ولم يكن مستحيلاً حين تذكر اسمه أو لقبه حتى يدلوك عليه . تميز عبدالله السريع أو عبدالله جوبا ، خلافاً لكثيرين غيره ، كانوا يقومون بأعمال مماثلة ، تميز عبدالله بأنه كان يعمل في الشمس متنقلاً من منطقة إلى أخرى في جنوب السودان ، ومن موقع إلى آخر في جوبا ، يبحث ويكتشف كل يوم أمراً جديداً . ولقد أثمرت الرحلة والتجربة هذه الذكريات الفريدة لدبلوماسي لم تشغله الوظيفة ، كما يحدث عادة للدبلوماسيين عرباً وغير عرب ، عن هذا التفاعل المستمر مع مجتمع ، لا يمكن أن يوصف بأي حال بأنه مجتمع يشبه المجتمع الذي عاش فيه من قبل .

التقيت بعبدالله جوبا لأول مرة في ديسمبر ١٩٨١ ، حيث منحته جامعة جوبا درجة الدكتوراه الفخرية ، تقديراً شخصياً له ، وتقديراً لحكومة الكويت لما قدمته من عون ومساعدة وتأييد لحكومة الإقليم الجنوبي ، في وقت أحجم الآخرون فيه عن تقديم عون مماثل للإقليم الجنوبي ، وفي وقت هو في أشد الحاجة الى مساعدة وعون .

وعندما وقف عبدالله السريع ليستلم درجة الدكتوراه الفخرية - وكان واحداً من خمسة آخرين - صفق الحاضرون طويلاً، وارتفعت الأصوات تنادي عبدالله جوباً.

ولم يفت على الحاضرين مغزى التكريم، إلا أن هذه كانت المناسبة الأولى من نوعها في جوبا، وفي تاريخ الجامعة، وليس هذا فحسب، بل إن الدرجات الفخرية الأخرى التي منحت كانت تشير إلى أكثر من معنى، نيلسون مانديلا المناضل في سجون جنوب أفريقيا منح درجة الدكتوراه الفخرية وقد تسلم الدرجة نيابة عنه من المؤتمر الأفريقي سفير دولة تنزانيا. أبيل أليز أول رئيس للحكومة الإقليمية في جنوب السودان منح الدكتوراه الفخرية. جوزيف لاقو الذي قاد حركة الأنيانا وأصبح فيما بعد رئيساً للحكومة الإقليمية في جنوب السودان، منح درجة الدكتوراه الفخرية. بيتر جات كوت الذي كان نائباً لرئيس الحكومة الإقليمية ووزيراً للمالية منح درجة الدكتوراه الفخرية. هيلاري بول لوقالي الوزير في الحكومة الإقليمية ورئيس مجلس الجامعة منح درجة الدكتوراه الفخرية. سر الحتم الخليفة رئيس الوزراء السابق والذي ارتبط اسمه بالإقليم الجنوبي منح درجة الدكتوراه الفخرية. البروفيسير محمد عمر بشير الأستاذ بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية الذي عمل مسكراً في مؤتمر المائدة المستديرة منح درجة الدكتوراه الفخرية.

لم يفت على الحاضرين أن عبدالله السريع، الدبلوماسي الكويتي، قد حظي بتكريم لم يسبقه إليه أحد، لا في السودان ولا في خارجه.

كان هذا التكريم بالنسبة لي أمراً أفخر به، وخاصة أنه جاء من جامعة جوبا التي أعز بها، وأنه مع نخبة جعلتني زميلاً لمناضلين ووطنيين ورجال دولة ورجال تعليم أعطوا الكثير ومنحوا الكثير، وسعدت كثيراً لأنني وعبدالله السريع قد أصبحنا زميلين ننتمي للجامعة الوطنية، الجامعة التي قامت، بعد أن أصبح السلام أمراً واقعاً، بعد سبع عشرة سنة من الحرب والافتتال بين أبناء الوطن الواحد.

وكان طبيعياً ولازماً عليّ أن أسأل الإخوان في جوبا فيما بعد عن هذا الدبلوماسي، الذي نجح فيما عجز الآخرون عن تحقيقه، ومنذ ذلك التاريخ وأنا

أقول للآخرين: لكي تكون المعلومات إيجابية وناجحة، فهي تحتاج إلى رجال ذوي قدرات في التعامل مع الآخرين. وبالطبع لم تكن التنمية أمراً ممكناً في غياب السلام الذي تحقق بعد اتفاقية أديس أبابا— الإنجاز الكبير— ليس بالنسبة للسودان فحسب، ولكن لأفريقيا والعلاقات العربية والأفريقية.

قلت أيضاً إنَّ ما تحقّق في الجنوب من مشاريع الكويت، كان بسبب عبدالله السريع، الذي أصبح كما ذكرت عبدالله جوبا، وأصبح بيته ملتقى القادة والسياسيين والأكاديميين والإداريين من الجنوب والشمال ومن خارج السودان. وكان هؤلاء جميعاً في حاجة ماسة إلى مكان يلتقون فيه جميعاً، يتحاورون ويتفكرون ويفرحون ويحزنون إن دعا الأمر. وهذا ما وجدوه في بيت الصديق الغريب، دون أن يكون هناك حرج، ولعل هذه اللقاءات والأحداث هي التي دفعت الكاتب بأن يكتب هذه الفصول التسعة التي تُكوّن في مجملها، رواية شخصية لمجتمع زاخر بالحياة وبالتناقضات وبالأفراح إلى جانب الأحزان.

والمجتمع— موضوع هذا الكتاب— لا يقتصر على جنوب السودان، ولكنه يمتد إلى يوغندا وكينيا، وأبطاله كثيرون وعلى رأسهم أمير الكويت الذي جاء زائراً لساعات قليلة.

والقارئ لهذه المذكرات لابد أن يقف عند بعض المحطات، من السالبة إلى جوبا، ثم الأيام الأولى وفيها الحديث عن سوق الملكية، ومجلات بقاله أصحابها شماليون وجنوبيون يفتشون الأرض وأكثرهم سيدات بصدورهن العارية وهن يرتدين نصف الملابس، والسهرة الأولى بجوبا، ثم الزيارة لوزير الإسكان.

وقد تبدو الرحلة إلى نيروبي و يوغندا ومبسا أمراً عادياً، ولكنها ليست كذلك لدبلوماسي عربي تطأ أقدامه— لأول مرة— أرضاً أفريقية، ويقول لنا إن العرب لا يعرفون عن هذه الأرض إلّا القليل. والفصول التالية تأكيداً للتفاعل مع الأحداث ومع الحيوانات والأفاعى ومع الجيران ومع كبار الزوار، إلى جانب القضايا الخاصة.

إنّ الذى كتبه الزميل والصدىق عبداﷲ - فىما أعلم - أمر لم يسبقه إىله عربى أو دىپلوماسى آخى، والذى كتبه الأوربىون لا يشبه هذا الذى كتبه، إذ أن التجربة تختلف، وكذلك التفاعل مع الأحداث. إننى على يقىن، بأن الذى كتبه الصدىق عن السودان والسودانىىن، وعن الجنوبىىن والشمالىىن، والاهتمام والمودة التى عبر عنها فى كثر من أحادىثه ولقاءاته وكتاباتة، فى هذه المذكرات، وفى الجزء الآخر عن المجموعات والقبائل فى جنوب السودان، إننا لنأمل أن تكون هذه الدراسة المرتكزة على التجربة حافزاً لآخىرىن، كما نأمل أن يتواصل الجهد والعطاء أكثر.

ىكفى أن أقول شكراً أىها الزمىل، شكراً أىها الأخ الكرىم، شكراً ياعبداﷲ الكوىت، ياعبداﷲ جوباً.

البىروفسىر محمد عمر بشىر
الخرطوم فى ١٤ أغسطس ١٩٨٥



مقدمة ثالثة :

تعرفت على الأستاذ عبدالله السريع لأول مرة، في مدينة جوبا عاصمة إقليم الاستوائية، في شهر يناير « كانون ثان » عام ١٩٨٣، يومها كنت في زيارة للمدينة ضمن جولة في جنوب السودان مع وفد مصرى سافر إلى هناك لمعاينة المواقع التى ستقام عليها بعض المشروعات، منها إنشاء جسر على نهر السوبات في أعالي النيل، وإقامة فندق بمدينة جوبا، ومستشفى بمدينة نيمولي القريبة من الحدود السودانية الأوغندية.

كنت قد لاحظت ونحن في مدينة جوبا تعدد المكاتب الأجنبية مثل مكتب الأمم المتحدة ومنظماتها والمراكز الأوربية المختلفة، فسألت عن حجم التواجد العربى في الجنوب، فقل لى على الفور: لا يوجد هنا سوى مكتب الكويت، وهي الدولة العربية التى تكاد تكون وحيدة، تقوم بمشروعات إسكانية لخدمة أبناء الجنوب، عند ذلك طلبنا أن يتضمن برنامج الجولة زيارة هذه المشروعات.

توجهنا إلى منطقة المشروع، وعندما اقتربنا منها لاحظت مساكن حديثة لم يكتمل إنشاؤها بعد، تقع على منطقة ضخمة تكاد تشكل حيا مستقلا من مدينة جوبا، وفي داخله مبنى خشبى ذو سلام خشبية، التقينا بمدير المكتب الذى جاء لاستقبالنا وهو الدكتور عبدالله السريع، كان المبنى صغيراً، من تلك المباني التى تقام عادة بجوار مواد البناء.

راح الدكتور عبدالله يشرح لنا نشاط مكتب الكويت ومشروعاته، يتحدث بهدوء ويعرف كيف يستقبل زائريه.

خطر ببالنا خاطر ونحن نستمع اليه، وهو كيف يعيش هذا العربى القادم من الكويت في ذلك المكان النائي من عالمنا العربى، وشعرنا بألفة صادقة نحوه.

خاصة أنه يتمتع بشعبية وسط الجنوبيين، يتعاملون معه كأنه واحد منهم، ينادونه باسمه مجرداً وأحياناً بالدكتور. وعرفنا أنه حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة جوبا.

تركزت زيارتنا لمنطقة مشروعات الكويت أثراً طيباً في نفوسنا. وحمدنا الله أن هناك دولة عربية لم تنس جنوب السودان، تلك المنطقة البعيدة التي هي جزء من دولة عربية توجد في أفريقيا، تسعى قوى كثيرة لصنع حاجز بين أبنائها وبين العالم بأساليب ونشاطات متعددة.

خلال زيارتنا القصيرة للجنوب والتي لم تستمر أكثر من أسبوع، ظلت شخصية الدكتور عبدالله السريع العربي الكويتي باقية في خاطرننا، وتمنيت لو أمضيت معه أياماً لنكتشف معاً، مافي الجنوب السوداني من أمور غامضة علينا في عالمنا العربي، خاصة حياة الناس وعاداتهم، فقد التقينا بمثقفين جنوبيين ومسؤولين، وشاهدنا طبيعة ساحرة، ورأينا أيضاً أناساً يمشون أنصاف عرايا ويبداهم الحراب، ولا شك أنه عالم رحب، وراءه الكثير الذي يستحق الدراسة والتسجيل، وأدركت أن مجرد أيام لا تكفي لدراسة الجنوب.. إن الباحثين الغربيين من المعاهد العليا التي تهتم بالدراسات الأفريقية، ترسل بين وقت وآخر، باحثين من طلبة وطالبات يتكبدون مشاق السفر بمفردهم ويقيمون شهوراً في الأكواخ مع القبائل ليسجلوا حياة القبائل ليحصلوا على درجة علمية.

وكم تمنيت لو تفتح لباحث عربي هذه الفرصة. لم يمض زمن بعد هذه الزيارة، حتى علمنا أن صديقنا الدكتور عبدالله السريع قد عين سفيراً للكويت في الخرطوم، وكم كانت سعادة الجميع في السودان بهذا الخبر فالرجل معروف لدى الجنوبيين والشماليين، وسمعت طيبة، وليس غريباً على الشعب السوداني والمسؤولين جميعهم. كان ذلك اختياراً موفقاً.

ومرة ثانية التقيت به في منزله بالخرطوم كسفير للكويت. كانت المناسبة هي توديع السفير المصري أحمد عزت عبداللطيف الذي ارتبط بصداقة معه. في هذه الزيارة المنزلية تركنا الصديق الكويتي يتحدث عن بعض ذكرياته في الجنوب.

كان حديثه مثيراً ومسلماً، فشد الجميع إلى سماعه . وهنا تذكرت ما كنت أفكر فيه عندما التقيت به في جوبا في العام الماضي ، فقلت له « لماذا لا تكتب هذه التجربة الفريدة، إنك تكاد تكون العربي الوحيد في جيلنا ، الذي أمضى في جنوب السودان عشر سنوات ، ولا شك أن لديك الكثير مما يجمله الكثير من عالمنا العربي عن الجنوب .

أدركت أنه سبقني في التفكير، إذ قال لي إن لديه أشياء أكبر مما أتصورها ، وطالما فتحت هذا الموضوع فلتكن رفيق مشواري في هذا العمل ، فقد سجلت عادات وتقاليد القبائل ولم يبق إلا تفريفها وإعدادها .

وهكذا التقينا .

اتفقنا على البدء ، وظلت الفكرة تدور بيننا لمدة ثلاثة أشهر وسط مشاغل عمله الدبلوماسي وعمل الصحفي .

وكان يوم ٢ ديسمبر ١٩٨٤ ، وهو اليوم الأول لكتابة الكلمة الأولى في هذا الكتاب ، ولم يكتف صاحبنا بتسجيل تجربته الشخصية ، ولكنه أصر على أن يتضمن الكتاب في الجزء الثاني تسجيلاً للحياة تسع من القبائل ، تغطي أكثر سكان قبائل إقليم الإستوائية .

وهكذا أمضيت معه ثمانية أشهر في إعداد هذا الكتاب ، تخللتها فترة تعرض فيها صاحبنا لعدة صدمة داهمة بيننا كان في إحدى زياراته للكوييت ، عاد بعدها متماثلاً للشفاء . لكنه لم يهمل الكتاب . كان دائماً يقول : لا أريد أن أفقد حماسي ، فلوتكاسلت يوماً واحداً لن يخرج هذا الكتاب إلى النور . وبالفعل كان أحياناً يزداد حماسه وأحياناً يفتر ، لكن شعوره بأهمية الكتاب جعله يضاعف الجهد لأنه أول كتاب باللغة العربية يعطي صورة عن الواقع للحياة في جنوب السودان . كنت أكتب ما سجله ، ويعود لتقييم ما كتبت ، فيغير ويحذف ويضيف وأعود فأكتب من جديد ، وذلك كله حرصاً على أن يخرج الكتاب مفيداً للناس ، وكم حاولنا فهم ما يقوله أبناء الجنوب ، وأحياناً كان الدكتور عبدالله السريع يعود الى

شخصيات من الجنوب معروفة بثقافتها وعمق تفكيرها يراجعها فيما كتب و يستوضح منها ما غمض عليه فهمه .

الواقع أن الجهد كان يبدو كبناء عمارة من تلك العمارات التي بنيت بالحديد والأسمنت في الجنوب ، ليخرج الكتاب بأساس متين يمكث في الأرض وينفع الناس .

الخرطوم - يوليو (تموز) ١٩٨٥ م

صلاح عبد اللطيف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تعريفية :

إن جمهورية السودان الديمقراطية ، واد فسيح يرويه نهر النيل وروافده ، في مساحة قدرها مليون ميل مربع ، وبيننا يقطن حوالي واحد وعشرون مليون نسمة ، على كل هذه المساحة ، نجد أن أكثر من خمسة ملايين نسمة تقطن الجزء الجنوبي منه ، حيث إن الغالبية من سكان ذلك الإقليم يدينون بأديان محلية ، إذ نجد أن نسبتهم تصل الى ٦٥ % بينما يمثل المسيحيون ١٧ % والمسلمون ١٨ % : (١)

ونتيجة لهذا الإتساع والإختلاف في الظروف المناخية يقسم السودان إلى ثلاث مناطق مناخية هي : —

(١) المنطقة الشمالية وتمتد من خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ١٥° شمالا .

(٢) المنطقة الوسطى وتمتد من خط عرض ١٥° شمالا إلى خط عرض ١٠° شمالا .

(٣) المنطقة الجنوبية وتمتد من خط عرض ١٠° شمالا إلى خط عرض ٣° شمالا ، شمال بحيرة ألبرت في يوغندا .
والجنوب يتألف من ثلاثة أقاليم إدارية هي :

(١) إقليم الاستوائية وعاصمته جوبا ومساحته ١٩٨١٢٠ كم^٢ (٢) .

(١) دراسة ميدانية قام بها الباحث محمد عمر موسى من معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية — جامعة الخرطوم — مايو ١٩٨٥ م .

(٢) رئاسة المديرية الاستوائية جوبا أعضاء على المديرية الإستوائية — جوبا — فبراير ١٩٧٢ .

(٢) إقليم بحر الغزال وعاصمته واو، ومساحته ٢١٣٧٥١ كم^٢(١).

(٣) إقليم أعالي النيل وعاصمته ملكال ومساحته ٢٣٦١٨٠ كم^٢(٢).

وأهم ما يميز حدود الجنوب أنها حدود ليست فاصلة بين السلالات السكانية، فنجد مثلاً بعض القبائل التي تقطن السودان الجنوبي كالزائدي والآشولي واللاتوكا والطرقانا والأنوك والمادي، تتخطى الحدود وتمتد إلى الأقطار المجاورة، كما تتخطى بعض القبائل في الأجزاء الشمالية من مديرتي بحر الغزال وأعالي النيل (خط عرض ١٠° شمالاً) ويمتد سكانها إلى الشمال.

فساحة الإقليم الجنوبي تبلغ ٦٤٨٠٥١ كم^٢، حوالي ربع المساحة الكلية للسودان، ويمتد داخل إطار المنطقة المدارية، وأمطاره قليلة تتراوح بين ٤٠٠ مم قرب الرنك بأعالي النيل، و١٦٠٠ مم عند خط تقسيم مياه الأمطار بين النيل والكنفو، وتهطل الأمطار عادة بين شهري فبراير ونوفبر من كل عام، وتبلغ غزارتها في شهر أغسطس. وهذا ينقسم الجنوب إلى إقليمين (نباتيين) هما: إقليم الفيضان، والإقليم الاستوائي، تتوزع فيها المراعى الفسيحة والمستنقعات والسدود والغابات والأدغال.

وقد أدت هذه الظروف الطبيعية والجغرافية في الجنوب إلى إيجاد أنماط متعددة لحياة السكان كالاقتصاد على تربية المواشي أو زراعة المحاصيل وصيد السمك والحيوان أو جمع الفاكهة البرية والنبات الغابي كنوع من أشكال النشاط الاقتصادي.

وتعتمد اقتصاديات الجنوب الحالية على الزراعة المتنقلة، بينما الزراعة الآلية توجد بمنطقة الرنك بإقليم أعالي النيل، وتتنوع المحاصيل التي تزرع من منطقة إلى

(١) وزارة الثقافة والاعلام والسلام والبناء - مديرية بحر الغزال الخرطوم أبريل ١٩٧٤ م.
(٢) وزارة الثقافة والاعلام مديرية أعالي النيل - الإنسان والطبيعة - الخرطوم مارس ١٩٧٤ م.

أخرى ، كالذرة والدخن والفل السوداني والسمسم والبطاطا والبطيخ والقطن، وتشكل الماشية جزءا هاما في اقتصاد الجنوب ، وتتعدى تربيتها في المناطق التي تنتشر فيها ذبابة التسي تسي . (التي تسبب مرض النوم) .

ويلاحظ تأخر الإقتصاد النقدي هناك لأمد طويل نتيجة لتلك المسافات الشاسعة التي تفصل مديريات الجنوب عن الأسواق الرئيسية مما يسبب عجز أو قلة أو انعدام وسائل المواصلات الجيدة ، بجانب انعدام وسائل التسويق المناسبة ونقص الأموال والأيدي العاملة الفنية .

ولقد قام علماء الأجناس بتصنيف سكانه - تبعا للغة والتكوين الجسدي والأصل التاريخي - إلى ثلاث مجموعات هي :-

- (١) النيليون : كالدينكا والنوير والشلك والأنوك .
- (٢) النيليون الحاميون : كالمورلي والتابوسا واللاتوكا والديدينجا والبويا .
- (٣) القبائل السودانية وهي تضم عددا من القبائل الصغيرة والتي تسكن المناطق الغربية والجنوبية من جنوب السودان ، وأهمها قبيلة الزاندي .

وهناك قبائل أخرى كالباري والمنداري واتياجورا وفوجلولا والمورو ولولوبا ، وهي خليط من القبائل النيلية والنيلية الحامية والسودانية ، وليس بينها قبيلة لها من القوة ما يجعلها نواة تتجمع حولها القبائل الأخرى ، أو ما يمكنها من السيطرة عليها أو احتوائها (١) .

إن الفوارق في السلالة بين القبائل المختلفة أدت إلى استخدام لغات مختلفة (نيلية : - بارية ، ديدنجية ، ماديتة ، والزاندية) ونشوء فوارق في المؤسسات السياسية والدينية .

(١) محمد عمر بشير جنوب السودان - دراسة لأسباب النزاع - مصر ١٩٧١ ص ٢٤ .

ويمثل تعدد اللغات عائقاً في طريق تحقيق الوحدة الوطنية، إذ لم تستطع لغة من بينها أن تصبح بعينها اللغة السائدة، فلذا وجدت اللغة العربية الدارجة طريقها بين تلك القبائل كلغة مخاطب مشتركة

والغالبية من السكان تدين بأديان محلية تؤمن بوجود إله قدير، بجانب الاعتقاد بأرواح السلف التي تلعب دوراً هاماً في حياتها أكبر من دور آلهتها، إذ يسود الاعتقاد بأن تلك الأرواح تتجسد في الأجيال المتعاقبة من صانعي الأمطار والرؤساء الروحيين، وهم أشخاص يجمعون عادة بين السلطة السياسية والسلطة الدينية.

وتختلف التنظيمات السياسية في الجنوب من قبيلة إلى أخرى كالرث مثلاً عند الشك، وصانع الأمطار عند الدينكا والباري... الخ والمجتمع في الجنوب مجتمع قبلي، ويشكل جماعة بشرية مازالت تنقصها عوامل الوحدة وتتميز بالآتي: —

(١) الولاء لزعامة القبيلة.

(٢) تعدد اللغات.

(٣) هيمنة الأديان المحلية وقيمها الاجتماعية.

(٤) انخفاض مستوى الدخل بالنسبة للفرد.

ومما تقدم ذكره، ورغم التباين في المجموعات وتعدد الثقافات واللغات والعادات والتقاليد الخ.. فإن الأمل معقود في أن ينهض أبناء الجنوب بأقاليمهم المختلفة، التي تتميز بتربها الخصبة وأمطارها الغزيرة وثرواتها الغنية وطاقاتها الفتية وذلك لن يتأتى — بالطبع — بسهولة إلا في إطار التخطيط السليم والاستقرار التام.

محمد عمر موسى

دراسة بمعهد الدراسات الأفريقية والاسيوية ١٩٨٥ م.

الجزء الأول



100

لفصل الأول

من السّامية إلى جوبا

كان ذلك في أحد أيام شهر سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤، عندما وجدت نفسي لأول مرة في الخرطوم قادماً إليها من الكويت عن طريق القاهرة، لأبدأ أول مهمة لي بعيداً عن الوطن، ولم تكن الخرطوم هي نهاية الرحلة، وإنما كانت مجرد محطة أتوقف فيها يوماً أو يومين لأواصل الرحلة إلى هناك .. إلى جنوب السودان .

كانت المهمة التي كلفت بها، هي أن أكون مديراً لمكتب دولة الكويت في جوبا .

ولم تكن لدي أي فكرة عن السودان؛ شماله أو جنوبه، كل ما سمعته أنني سأرى عالماً بدائياً، ومع هذا فقد قبلت المهمة . كانت بنفسى دوافع متباينة جعلتني لا أتردد .. دوافع عامة وأخرى خاصة، فقد علمت أن ليس هناك ثمة وجود عربي في جنوب السودان؛ لا في شكل قنصلية، أو حتى بعثة عربية مقيمة، سوى مكتب دولة الكويت .

إذاً سوف أتعرف هناك على جزء من وطننا العربي الذي لا نعرف عنه نحن أبناء الخليج العربي إلا القليل . وكنت في شبابي من هواة مشاهدة أفلام طرزان، وهأنذا سوف أرى بعد أيام قليلة غابة طرزان على الطبيعة . أما الدوافع الخاصة فكانت بالنسبة لي أهم من الأولى، ذلك أن مرتبي سوف يتضاعف مما سيخفف عني أعباء ديون أثقلت كاهلي، وهذا في حد ذاته فرج من الله لا يجب التفريط فيه .

وهكذا وجدت نفسي في الخرطوم، بعد غروب شمس يوم الثاني والعشرين من سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤، قادماً إليها من القاهرة، ولأول مرة أجد نفسي

في عالم جديد، مبتدئاً حياة لا أعرف معالمها بعد، وفيما كانت سيارة سفارة الكويت، وهي تعبر بنا شوارع الخرطوم الهادئة - أنا وزميلين من أعضاء السفارة هما أحمد الدواس ومحمد الصانع - إذ بي أجد نفسي مع سكّون الأشجار ومنظر النيل وقد انعكست على صفحته الاضواء، أستعيد ذكرى سنوات الكفاح في الكويت منذ أن ولدت عام ١٩٣٤ في منطقة الصالحية بالقبلة.



كان جدّي - رحمه الله - يمتلك بيتاً كبيراً في منطقة الصالحية، يعد من البيوت الكبيرة الممدودة في ذلك الوقت. تربيت بين يدي أمي - رحمها الله - والدي أطال الله في عمره، وفي الخامسة من عمري ألحقني بمدرسة (المُلا محمد الحنيني)، التي يُدرّس فيها بنفسه القرآن الكريم ومادّتي العربي والحساب، وقد استطعت خلال فترة وجيزة لا تتعدى ثمانية أشهر تلاوة القرآن تلاوة سليمة، ولم أكن أحفظه بل أقرأه جيداً. وكان هناك تقليد، وهو أنه بعد أن يتم الولد الصغير قراءة القرآن، يطوف به أستاذه وزملاؤه الصغار في الحي، بعد أن يلبسوه ملابس الرجال (العقال المقصب والعباءة والبشت) ويردّدون عبارات هي (الحمد لله الذي هدانا، بالدين والإسلام اجتباناً، سبحانه من خالق سبحانه، أول ما علّمنا هُجّاناً، علّمنا معلم ما قصراً، ردّده في درسه وكرراً.. إلخ)، وألبسوني تلك الملابس وطافوا بي وسط زغاريد النساء، ثم ألحقني والدي بعد ذلك بكتاب آخر أكثر تطوراً، إسمه مدرسة (مُلا مَرشد)، وقد عُرفَ مديرها بالشدة والقسوة، ويستعمل (الْفَلَقَة) كثيراً في تأديب التلاميذ، وكان معي تلاميذ من الأحياء المجاورة، هم الآن من رجالات الكويت. وفي هذه المدرسة درست إلى جانب القرآن، الفقه والتوحيد وتعلمت الحساب والكتابة والقراءة في فترة وجيزة قبل أن أتم الثامنة من العمر.

علمت فيما بعد أن جدّي قد تُوفيّ وعمري عامان. فباع والدي المنزل لأول مجلس شكّل لمعارف الكويت (وهو بمثابة وزارة التربية والتعليم)، كان المنزل كبيراً يضم أكثر من عشرين غرفة، به قسم للضيوف وآخر للسكن ومرافق صحية

كثيرة، باعه بخمسة آلاف روبية هندية. (١) وحوله المجلس إلى مدرسة ابتدائية ومتوسطة للبنين سُمِّيَ بالمدرسة (القبلية)، بعد ذلك نقلنا والدي إلى منزل في المرقاب بجوار مسجد الحمود، وفي خلال ست سنوات تنقلنا إلى ثلاثة منازل، كلها لا تبعد كثيراً عن المنزل الأول. تزوج والدي خلالها امرأة ثانية، ثم انتقلنا إلى بيتٍ بناه في منطقة الرميثة المعروفة الآن، ولم يكن بها سوى بَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ، هما: —

بيت محمد بن رشيد،

وبيت أبي، الذي أقام بجانبه مزرعة كبيرة تنتج كل أنواع الخضار. وأذكر أنني وشقيقتي الأربع (أكبرنا كانت في العاشرة) شاركنا في بناء ذلك البيت، الذي كانت مادة بنائه الرئيسية من الطين، لأن والدي كان في أيام الجمعة (العطلة الأسبوعية) يشغل وقت فراغه في البناء، حيث يقضى العمال الحقيقيون عطلة ذلك اليوم مع ذويهم.

كان قد مرَّ على افتتاح المدرسة القبلية (بيت جدّي) سنتان. فالحقني والدي بها كي أستفيد من الأسلوب التربوي الحديث، وفقاً لمنهج وزارة المعارف في ذلك الوقت (التربية حالياً).

فوالدي ميسور الحال، يمتلك بيوتا وسيارة فورد من طراز ٣٦ صالون تन्दة، وعدداً من الحمير، ومزرعة كبيرة وأراضي كثيرة. وكان يُفَضَّلُ أحياناً ركوب الحمار بدلاً من السيارة، لينقله من الرميثة، إلى الكويت، ليوصلني إلى المدرسة وهو في طريقه إلى عمله بإدارة الأيتام، والمشهد الذي لا يغيب عن ذهني حتى الآن، هو أنه عندما كان والدي يركب حماره، يدعني أهول خلف الحمار، لمسافة أربعة عشر كيلومتراً كل صباح، وهي المسافة بين الرميثة والعاصمة، وأذكر أنه في أيام الشتاء القارس كنت أرى زملائي الطلاب يرتعدون من البرد، بينما أجلس أنا في مداخل المدرسة وسط التيار الهوائي لأجفف عرقى بعد تلك الهرولة.

(١) في ذلك الوقت كان يمكن للمرء أن يشتري داخل العاصمة أرضاً أو منزلاً صغيراً بثلاثمائة روبية فقط (عشرون ديناراً).

واصلت دراستي حتى الصف الخامس الابتدائي ، الذي يعادل في هذا الوقت الثالث المتوسط ، وبعد امتحان نصف السنة أصبت بحروق في قدمي اليسرى ، أقعدتني شهرين عن الدراسة وعن السير ، وظللت حبيس المنزل . وبعد أن شفيت وجدت أبي قد صرف نظره عن استكمال دراستي ، رغم أن ترتيبى كان الأول دائماً . وقد ذهب الأستاذة محمد زكريا - الذى كان مديراً للمدرسة - وإبراهيم عبد الملك وبدر السيد رجب الى والدى وحاولوا معه .. ولكن دون جدوى لأنه أراد لى أن أكون مساعداً لسائق سيارته اللورى التى اشتراها لتعمل على نقل الركاب بين العاصمة الكويت والقرى المجاورة لها ، مثل النقرة ، حوّلي ، السالمية ، (كانت تسمى الدمنه) الرأس ، البديع والنجفة ، وهي قرى متناثرة حول الكويت ، أكبرها حوّلي ، وكان بها نحو خمسمائة منزل ، تليها السالمية ، التى غالبية سكانها من قبيلة العوازم (١) ..

كانت مهمتي هي جمع الإيراد من الركاب ، وتعلمت من السائق فنون إصلاح السيارة وفك أجزائها وإصلاحها . ثم بدأت أسوق سيارة والدى الصغيرة الخاصة بجلستة عندما ينام ظهراً ، وكان عمري حينها أربعة عشر عاماً . ولأننى قصير القامة ، فقد كنت أضع خلف ظهري وتحتى مخدتين ، لكي تصل قدماي إلى المِدَوَسَيْنِ حتى يظهر رأسى خلف المقود ، فتعلمت بسرعة . وبدأت أيضاً أقود اللورى . واشترى والدى سيارة (دودج بيك أب وانيت) لينقل بها ركاباً فى أوقات فراغه ، فأصيبَ يوماً حيث وقع على قدمه برميل فارغ من السيارة ، قطع حذاءه وأصبع قدمه اليمنى الكبير . أقعده ذلك الحادث عن عمله ستة أشهر ، حيث وجدت نفسى مضطراً أن أعمل بتلك السيارة لنقل الركاب ، وعمري لم يصل بعد السادسة عشرة ، ومع هذا لازلت أضع تحتى وخلف ظهري مخدتين كبيرتين ، لأتمكن من الجلوس والقيادة براحة تامة ، وكثيراً ما أوقفتنى الشرطة لصغر سنى وعدم وجود رخصة قيادة معى ، فكتب لى والدى رسالة إلى الشيخ صباح السالم أمير الكويت الراحل - رحمه الله - الذى كان رئيساً للشرطة عام ١٩٥٠ .

(١) من القبائل الكبرى فى الكويت .

عندما رأى الشيخ صباح قصّر قامتي وصغر سّتي، أشر على طلب والدي أنه عليّ أن أراجع بعد سنتين، فما كان مني إلّا أن عدت لمقابلته بعد أسبوع واحد فقط، وكان يجلس معه في مكتبه كل من عبدالله المُلّا وعبدالله السديراوي وسعود اليوسف^(١)، وبادرنى بقوله: — ألم أقل لك عد لمراجعتي بعد سنتين...؟ فرددت عليه بعفوية تامة قائلاً: — بالنسبة لى لقد مرت السنتان.. فاستغرب، وسأل كيف؟ قلت ببراءة: — إذا كنت تستطيع أن تصرف على بيتنا حتى يشفى والدى، أنتظر حتى عشر سنوات، أما فى ظروفنا الحالية هذه، فأنت تعلم أن والدى مصاب، وأنا كبير الأسرة، وشرطة المرور تضايقنى لعدم وجود رخصة قيادة معى. هنا تدخل عبدالله المُلّا فى الحديث موجهاً كلامه لى: —

— أنت مازلت قصيراً ولا تستطيع حتى أن تطول يدوّش السيارة .
— رددت: — أنت أيضاً قصير، ولكنك أطول منى بإسـمك .
— فوقف المُلّا بجوارى ليستحقق مما قلته، ولم يكن يزيد طوله عنى كثيراً .
— ضحك السديراوي وقال: — لقد انتصر عليك . وسعود اليوسف قال: — امتحنوه .
والمُلّا بعد أن جلس قال: — إذا نجحت، تعال اشتغل عندى بـ ٢٠٠٠ روبية فى الشهر .

كان السديراوي هذا، رغم مكانته الاجتماعية، هو الذى يمتحن السواقين الجدد بدون مقابل . يقوم بهذا بحكم صداقته التى تربطه بالشيخ صباح . وأجرى لى وستة آخرين امتحاناً صعباً اجتزته بنجاح، وأصبحت سائقاً معترفاً به يحمل رخصة رسمية من إدارة البلدية^(٢) .

(١) توفاهم الله جميعاً وكانوا من كبار شخصيات الكويت .

(٢) إدارة البلدية هي التى كانت تقوم فى ذلك الوقت بصرف إجازات القيادة بعد أن تنتهى جميع الإجراءات فى إدارة الشرطة .

بما لوالدى من علاقة حميمة مع الشيخ^(١) عبدالعزيز حمادة قاضى المحكمة فى ذلك الوقت، الذى كان فى حاجة لسائق يعمل مع أسرته، فقد بعث بى لأعمل سائقاً ليلاً ونهاراً، وكان ذلك سنة ١٩٥٠، وقد رعتنى تلك الأسرة الكريمة كأحد أبنائها.

لم أكن أذهب إلى بيتنا إلا قليلاً، وقد أتاح لى وجودى فى منزل المرحوم القاضى القراءة، لوجود مكتبة كبيرة لديه، فاستفدت منها كثيراً، وبقيت فى هذا العمل لمدة عشرة أشهر، ألحقنى والدى بعدها بعمل فى الإدارة التى كان يعمل بها (إدارة الأيتام) كمساعد كاتب، كان والدى يعد من كبار محاسبى الكويت حتى أنه فتح مدرسة ليلية يعلم فيها الحساب ومسك الدفاتر، ويتميز بخط جميل وأسلوب جيد، وكان أيضاً يستطيع حل المسائل الحسابية بسرعة لفتت الأنظار إليه، لذلك كان التجار يلجأون إليه عندما يعجزون عن حل مسائلهم التجارية، حتى المحاكم كانت تستعين به لحل مثل تلك المشاكل. ثم ألحقنى بوظيفة بإدارة المعارف فى الشهر السادس من عام ١٩٥١.

فى صبيحة أحد أيام ربيع عام ٥٢، وعمرى نحو سبعة عشر عاماً، وفيما كنت أستعد للذهاب إلى العمل كالعادة، إذ بوالدتى تقول لى:—

- عد من عملك اليوم مبكراً.
- لماذا يا أمى ؟!!
- لأنك سوف تتزوج هذه الليلة.
- هذه الليلة ؟!!!
- ومن ابنة عمك صالح..
- رددت بعصبية:— ابنة عمى صالح ؟!! هذه التى لم تبلغ بعد من العمر اثني عشر عاماً..!!؟
- ردت بهدوء، وهي تبتسم :— وأنت كم عمرك ؟ ثم إن هذا مافقره والدك.

(١) كل قاض فى الكويت يلقب أو يطلق عليه إسم شيخ وكذلك أفراد الاسرة الحاكمة يلقبون بذلك حتى لو كانوا صغاراً فى السن.

ولم أكن رأيت ابنة عمى منذ أن كانت في السابعة، لأن التقاليد في ذلك الوقت تقضى بعزل البنات عندما يبلغن هذه السن، حيث يمنعن من الخروج ولا يلتقين بالأولاد أو الرجال أو حتى النساء الغربيات، فرمما تكون إحداهن قد جاءت خاطبةً، ويسمح لهذه الطفلة فقط برؤية النساء والفتيات من نفس العائلة، وعندما كنت أذهب الى منزل عمى^(١) قبل وفاته — رحمه الله — لانتاح لى رؤيتها فهي تختفى دائماً بمجرد أن تعلم أنى فى المنزل.

كنت صغيراً بلا شنب .. مجرد خط أخضر كزغب يعلو الشفة العليا، وكنت محباً للقراءة وخاصة الكتب التى تصوّر البطولات مثل قصة عنترة وعبلة، وأبى زيد الهلالي، والوزير سالم، كما قرأت ألف ليلة وليلة، وقصص أرسين لوبين التى كانت شائعة فى ذلك الوقت. وعكفت على قراءة مايكته الأدباء من عرب وأجانب. وفى المساء كنت أستعين بضوء لمبة الجاز. ثم تطورت قراءاتى لتشمل الشعر العربى والفلسفة والفقه وعلم النفس والتاريخ العربى والاسلامى، وقد وجدت فى القراءة تعويضاً عما افتقدته فى الدراسة.

كانت وظيفتى الجديدة فى مدرسة (ثانوية الشويخ) التى كانت تحت الإنشاء، مسؤولاً مع آخرين عن تسجيل نحو ألف عامل من الذين يعملون فى بناء تلك المدرسة، وكان العمل يمتد من بعد صلاة الفجر إلى ما قبل الغروب أحياناً، وأعود فى المساء إلى بيتنا الجديد الذى بناه والدى فى السالمية حيث أجد مهاماً أخرى فى انتظارى.

إن هذا البيت الذى يمتلكه والدى كبير جداً وقد فتح فيه محلات تجارية لحسابه، منها محل بقاله وجزارة ومخبز، بالإضافة إلى المزارع التى يمتلكها، والعمل الذى يشغله فى إدارة الأيتام وسيارات نقل الركاب. وفى هذا العام — ٥٤ — تزوج للمرة الثالثة. لذا فقد تضاعفت مسؤولياتى، فقد كنت بعد صلاة العشاء أقوم بإعداد الشاي والقهوة لضيوفه الذين اعتادوا زيارته فى ديوانه، ثم أحاسب

(١) توفي رحمه الله فى ربيع عام ١٩٥١ إثر حادث، حيث صدمه حصان هائج يجر عربته خلفه فى وسط صفاة الكويت، أى أن زواجنا تم بعد وفاته بسنة.

العمال في المحلات التجارية والسواقين . وفي أوقات فراغى أعمل ميكانيكياً لسيارات والذى مع السواقين؛ أنظف « البلاتين والبوجيات » وأغير الزيت ، وأذهب بمن يمرض من الأهل إلى المستشفى للعلاج ، لذا كنت آوى إلى فراشى متأخراً ، وأستيقظ مبكراً مع آذان الفجر، لأبدأ برنامج يومي التالى . وحتى زوجتى كانت لا تقل عنى تعباً ، فهي مثلى مشغولة طوال اليوم فى أعمال المنزل ، لذا لم أكن أراها إلا يوم الجمعة (العطلة الأسبوعية) .

كان طبيعياً أن يكون لهذا الجهد آثاره على صحتى ، فشحب وجهى وهزل جسمى .

إزاء ذلك كان لابد من تغيير هذا الواقع ، فاستأذنت والدى فى مساء يوم من أيام شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ بأن أخرج من البيت وأستقل بنفسى ، وخرجت من عنده ، ولم يكن فى جيبى فلس واحد أدفعه حتى للمواصلات .

كانت الساعة حوالى التاسعة والنصف مساء يوم من أيام شهر أكتوبر ١٩٥٤ — أوقفت سيارة أجرة جاءت إلى المنطقة مصادفةً ، وركبت مع آخرين ، وكان عليّ أن أدفع روبية هندية (تعادل خمسين فلساً كويتياً) قيمة الأجرة ، فقد كنت ذاهباً إلى منزل عمتى فى الكويت . طلبت من السائق بعد أن أوصل الآخرين إلى محطة الوقوف ، أن يوصلنى الى المنزل مقابل ضعف الأجر . طرقت باب عمتى ، وكانوا نياماً ، فاستيقظوا ، وأخذت منهم الأجرة وأعطيتهما للسائق ، وأقت معهم . وكان عليّ بعد هذا أن أستأجر بيتاً خاصاً فتوجهت إلى منزل زوج أختى الكبرى ، وكان به ديوان ملحق ببيته فأخلاه لى وأقرضنى مبلغاً من المال فاستأجرت سيارة أحضر بها زوجتى من بيت والدى الى البيت الجديد .

وبعد انتقالى إلى بيتى المستقل ، اقترضت ثلاثة آلاف روبية من إدارة المعارف ، واشتريت أثاثاً ، كما اشتريت سيارة مستعملة بالأقساط ، حيث حولتها الى سيارة أجرة ، فكنت بعد العمل الحكومى أعمل عليها حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، وبذلك استطعت أن أوفر للبيت احتياجاته وأسدد الأقساط .

بهذا تحقق لي نوع من الاستقرار والاستقلالية، وتفرغت لعملى وللقراءة ولتربية ابنتى وابنى، وانتقلت بعد ذلك إلى منزلى الحالى فى السالمية عام ١٩٦٠.



فى أثناء ذلك وجدت نفسى رياضياً دون أن أعلم، فلم يكن لدى ميل لأي نشاط رياضى، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن كرة القدم، بل كنت أندهش لماذا يهتم الناس بالكرة إلى هذا الحد. وذات يوم فى صيف عام ١٩٦٣ فوجئت بعدد من الأصدقاء الشباب يطرقون باب بيتى بعد صلاة المغرب، ليخبرونى أنهم قرروا إنشاء ناد رياضى فى منطقة السالمية، وأنهم اختارونى لأكون أحد المؤسسين، ضمن مجموعة من الشباب بلغ عددهم سبعة عشر شاباً، حاولت الاعتذار متعللاً بعدم درايتى بالرياضة، فلم يفلح اعتذارى، فأصبحت واحداً من مؤسسى نادى السالمية، ووجدتني أتابع تسجيل وإشهار النادى لدى وزارة الشؤون الاجتماعية. ثم عقدنا أول اجتماع فى منزلى للمؤسسين، بعد إشهاره فى الجريدة الرسمية. وفى هذا الاجتماع تشكل أول مجلس إدارة للنادى، فاختار المجتمعون الشيخ (١) سالم الصباح رئيساً فخرياً، وعبدالعزیز الرشيد رئيساً للنادى، وجاسم الوقيان أميناً للصندوق، وأنا أميناً للسرى.

كانت بداية النادى هكذا بلا لاعبين، بلا إمكانيات، بلا مقر، ورغم ذلك كان على النادى أن يشارك فى الموسم الرياضى بعد ثلاثة أشهر، وقد تم ذلك.

لم يقتصر نشاطى فى ذلك الوقت على نادى السالمية، فقد كنت مشغولاً إلى عالم المسرح، ووجدت أن حصيلة ما أقرأه، من كتب قد أثمرت فى داخلى إحساساً بعالم الفن والأدب، ووجدتني أتعرف على الفنانين من كُتّاب ومخرجين وممثلين، وكتبت ثلاث مسرحيات من ثلاثة نصوص، وثلاث أخريات من فصل واحد، كما كتبت للإذاعة حلقات أسبوعية، وأعددت نصوصاً مسرحية إعداداً إذاعياً.

(١) كلمة الشيخ فى الكويت لاتعنى الرجل كبير السن، بل تطلق على كل فرد من الأسرة الحاكمة حتى لو كان عمره سنتين.

لم يمنعني انخراطي في الحركة المسرحية من الإستمرار في وظيفتي ، أو يحجبني عن النشاط الرياضي الذي استوعبته تماماً وأحبته ، فرشحت من قبل الأندية لأن أكون عضواً باتحاد كرة السلة ، وانتُخِبتُ أميناً لصندوق الاتحاد ، كما انتُخِبتُ عضواً في اللجنة الأولمبية الكويتية وأميناً لصندوقها .

كانت هذه المرحلة بالنسبة لي مرحلة انطلاق ، وبها بدأت أعرف طريقى . لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن ، فقد أصيبت زوجتي في عمودها الفقري في يونيو ١٩٦٧ وهي في ساعات الولادة . كانت أخبار الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية ، تصل إلى أسماعها ، وهي في أدق اللحظات التي تمر بها أي سيدة في ساعات المخاض ، وقد أثر ذلك على نفسياتها وعلى حالتها ، فأصيبت في عمودها الفقري ، وعلى الفور نقلت إلى مستشفى العظام ، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر لاتنزل من سريرها إلا قليلاً ، فتقرر علاجها على نفقة الحكومة في لندن ، وذهبت مرافقاً لها ، وأجريت لها عملية جراحية هناك لم يكتب لها النجاح ، وأقيمت معها أربعة أشهر ، ثم عدنا إلى لندن في العام التالي لاستكمال العلاج ، وبقيت معها أربعة أشهر أخرى ، ثم انتقلت معها إلى باريس ، فأنفقت كل مامعى ، وتكاثرت عليّ الديون ، رغم أن علاج زوجتي كان على نفقة الحكومة ، إلا أنى كنت أنفق على أكثر من جهة ؛ بيتى الذى فيه والدتى وأبنائى في الكويت ، وزوجتى التى في المستشفى ، وعلى نفسى .. مسكناً ومأكلاً ومواصلات ..

وفي عام ١٩٧٢ انتقلت من وزارة التربية والتعليم ، التى كنت رئيساً لأحد الأقسام فيها ، إلى وزارة التخطيط مراقباً للشئون الإدارية . مكثت فيها عامين ، انتدبت بعدها للعمل لدى الهيئة العامة (١) للجنوب والخليج العربى . وكنت قبل ذلك وقبل أن تفاجئنى أزمة ١٩٦٧ ، أعترض عن قبول وظائف خارج الكويت ، لأسباب ، منها صغر سنى . ورغبة والدتى - رحمه الله - بالبقاء في الكويت . ومن هذه الوظائف التى اعتذرت عن قبولها ؛ أمين

(١) رشحنى لهذا العمل الأستاذ عبدالوهاب الزواوي الذى كان يشغل في ذلك الوقت مديراً لإدارة النشاط المدرسى في وزارة التربية .

خزينة البعثة الكويتية في القاهرة عام ١٩٥٨ ، كما اعتذرت عن قبول وظائف كثيرة لأنها تتعلق بالخزينة منها أمين صندوق لوزارة الشؤون الاجتماعية ، وأمين صندوق لوزارة الخارجية عام ١٩٦١ ، وأمين صندوق لوزارة المواصلات . فكننت أبتعد عن هذا العمل لحساسيته ، لأنه عرضة للنقص ، أو الزيادة ولأنه لا مجال فيها للترقية إلى الأعلى .

كنت حريصاً — رغم كل هذه المتاعب — على أن أستكمل دراستي والتحق بالجامعة ، فعدت إلى الدراسة الليلية عام ١٩٦٤ ، وحصلت على الثانوية العامة (منازل) من بيروت بعد ثلاث سنوات ، وعندما قدمت أوراقى للالتحاق بجامعة القاهرة طلب منى أن أعيد الثانوية العامة في القاهرة ، فانتسبت لإحدى المدارس المصرية عام ٦٨ ، لكن الإمتحان أُلغى في هذا العام الدراسى ، بعد أن أشيع أن بعض الأسئلة قد تسربت ، ومرة أخرى عاودت الحصول على الثانوية العامة عام ١٩٧٣ من البحرين . وفيما أنا أواصل تعليمى ، جاءني هذا العرض للعمل خارج الكويت ، فلم أتردد وأسرع بقبوله ، كمدير لمكتب دولة الكويت في سلطنة عمان ، ولم يتم فتح المكتب ، وبقيت بالهيئة ثلاثة أشهر ، كُلفت خلالها أن أقوم بأعمال أمين الخزينة (الصندوق) ، فتذكرت الوظائف السابقة التى عرضت عليّ ورفضتها ، وجدت نفسى محاصراً بِقَدْرى ، كارهاً غير راغب ، ورغم أنها أقل بكثير من وظيفتى في وزارة التخطيط ، إلا أننى قبلتها لأنها مؤقتة . بعدها بشهرين استدعانى الأستاذ السقاف العضو المنتدب إلى مكتبه ، وعرض عليّ السفر إلى جوبا في جنوب السودان ، كان ذلك في أوائل سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٤ .

كان مدير المكتب هناك قد طلب إعفائه بعد أن عمل فترة ، فلم أتردد .. ووافقت على الفور ، حتى لو كان في مثل تلك المنطقة النائية ، التى لا أعرف عنها شيئاً ، وإزاء قبولى المفاجئ ، أطلعنى على مجموعة صور ، فرأيت فيها أناساً عراة ، وحراباً ، وغابات ، وعششاً متناثرة ، وصغاراً يقضون حاجتهم حولها ، وأكواماً من القمامة ، ومستنقعات ، فلم تُثْنِنى . ورحت أهيب نفسى للمستقبل القادم ، وأسأل من لديه فكرة ولوبسيطة عن جنوب السودان ، ليطلعنى على جوانب الحياة هناك .

كان هناك واحد من الذين زاروا مكتب الكويت في جوبا ، هو المهندس عبد المنعم عرفه (١) ، في نحو السبعين من عمره ، من أبناء مصر ، قال لى إن المنزل الذى سأسكن فيه عبارة عن قصر كبير ، تراه من الجو كما لو كان البيت الأبيض الأمريكى ، فسألته : كيف هو ؟ قال إنه يشبه الشاليهات الكويتية على الخليج لقضاء العطلة الأسبوعية ، وهو عبارة عن خمس غرف ؛ اثنتان منها للمكتب ، وثلاث للسكن ، وسقفه من الزنك المبطن من الداخل بقماش (الدمورية) كي يعزل الحرارة ، نوافذه واسعة وكبيرة ، وقضبانه متباعدة ، فقلت له : — كيف يكون إذن بيتاً كبيراً وأنت تصفه هكذا ، فقال : — لأنه البيت الوحيد المبني في جوبا حيث لا تجدد سوى الأكواخ والعشش ، وهناك تنتشر الأمراض ، مثل الملاريا ، والدوسنتاريا ، والجذام ، والبلهارسيا ، ومرض النوم ، وأضاف قائلاً : — إن قضبان النوافذ الحديدية متباعدة ، ويمكن أن يقفز منها نمر إلى داخل البيت ليلاً ، فسألته وهل توجد نمر تقفز على الناس في الليل هكذا .. ؟ قال : — نعم ، إنها موجودة بكثرة ، وهناك وأنت في المنزل ، تسمع زئير الأسود .

كل ما سمعته لم يُغيّر من موقفي ، بعد أن اتخذت قرارى بقبول العمل هناك .. حجّزت لى الهيئة مقعداً للسفر إلى القاهرة ، ومنها إلى الخرطوم ، حيث وصلت مساء الخميس ٢٢ سبتمبر ١٩٧٤ . وفيما كنت أطل من نافذتى على حياتى ، إذا بأحد الزميلين يقطع عليّ ذلك ، ويطلب منى النزول فقد وصلنا إلى الفندق .

كان عليّ أن أقضى يومين قبل سفرى إلى جوبا ، في انتظار إذن بالسفر من وزارة الخارجية السودانية ، لأنه لم يكن يسمح بالسفر في ذلك الوقت إلى الجنوب إلاّ بتصريح مسبق . بعد ساعة رنّ جرس الهاتف في غرفتي بالفندق ، وكان المتحدث محمد سالم البلهان ، سفيرنا في الخرطوم ، وعرفت أنه يتحدث من صالة الاستقبال ، وأنه جاء يدعونى لمرافقته لتناول العشاء معاً في مكان آخر ، وكانت هذه أول مرة أتعرف عليه فيها .

(١) أصبح من أعمد الأصدقاء وكم من ليلة سهر معى في جوبا حتى الصباح أمام طاولة الشطرنج فعلمت منه أنه إنما قال ذلك لى كى يشبّط من عزيمتى حتى أرفض ، لأنه كان يحب المدير السابق ويتمنى استمراره .

في صبيحة اليوم التالي، وكان يوم الجمعة، خرجت إلى الشارع كي أعرف على المدينة ورحت أتأمل الجانب الآخر من النيل الأزرق. كان المنظر غاية في الجمال الطبيعي الهادئ، وقد ظهرت بعض الجزر في النيل، وبان من مكان غير بعيد إلتقاء النيلين الأزرق والأبيض، وأمام مدخل الفندق امتلأ المكان بالباعة الذين يفترون الأرض، يعرضون سلعهم على النزلاء والسائحين، وهي سلع تلفت نظر أي قادم من بلد أجنبي، لأنها تعتمد على مصنوعات يدوية تعكس آثار البيئة مثل جلد الأصلة (أفعى ضخمة) والتماسيح والنمور وحيوانات مصنوعة من العاج وبيض النعام، كلها أشكال جميلة ذات طابع أفريقي. وذكريتي سلع الباعة بما سمعته عن جنوب السودان المليء بالأفاعى والنمور والفيثلة، فتذكرت أنتى سوف أرى هذه الحيوانات حية على الطبيعة غدا السبت، لأن الإذن بالسفر إلى جوبا، كانت السفارة قد استخرجته لى قبل وصولى.

وفي الطائرة كانت عبارات المهندس عرفة تطنّ في رأسى، فلم أكن أتصور كيف يقفز نمرٌ إلى داخل البيت، أو كيف تكون الحياة مليئة بالحيوانات الوحشية والغابات، حتى خُيِّل إليّ أن جنوب السودان مجرد غابات مثل تلك التى نراها في أفلام طرزان، أشجار كثيفة لا يتخللها ضوء الشمس، والقرود تقفز على أغصانها، والحيوانات الوحشية تمرح فيها. ولعل هذه الصورة التى فى ذهنى، جعلتني أختار مقعداً مجاوراً لنافذة الطائرة الزجاجية، لأرى العالم من الجو.. الطائرة من طراز فوكرز، ذات محركين هوائيين، وسعتها لاتزيد على أربعين راكباً، تقطع المسافة من الخرطوم إلى جوبا فى ثلاث ساعات ونصف الساعة، وهي مسافة تقدر بنحو ألف وستمئة كيلومتر.

رحت أتأمل الأرض من الطائرة، فلم أكن أرى سوى سهول خضراء منبسطة، وروافد نهريّة.. قطع تأملنى صوت قائد الطائرة، وهو يعلن أننا نمر الآن فوق مدينة ملكال، وهي إحدى المدن الرئيسية فى الجنوب. وكانت الطائرة قد قطعت ساعة ونصف الساعة، ومعنى ذلك أن ملكال تتوسط المسافة بين الخرطوم وجوبا. وظلت الصور الأرضية التى ألمحها من النافذة كما هي، أراضٍ خضراء، وروافد نهريّة، بدت من أعلى أشبه بعروق نافرة فى جسم إنسان، وبعد فترة من

الوقت جاء صوت مضيئة الطائرة ليعلن أننا نقرب من مطار جوبا ، وأن علينا ربط الأحزمة ، وكلما اقتربت الطائرة من الأرض ، كنت أوجه نظري إلى الخارج في محاولة لأرى تلك الحيوانات التي يعتدى فيها القوي على الضعيف ، لكنني لم أر سوى قطعان من الأبقار تخيلتها في أول الأمر حيوانات وحشية . وظهرت معالم مدينة جوبا ، ولم أر ذلك البيت الأبيض ، وكل ما رأيته عششاً (قطاطي) وبعض المنازل ذات الدور الواحد تبدو وسط الأشجار المتناثرة ، وأرضاً خضراء تتخللها آثار عجلات سيارات ، ورأيت المطار؛ مبنى صغير وأمامه أناس ينتظرون وصول القادمين .

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤ عندما وصلنا إلى جوبا ، الطقس جميل فلا هو بالبارد أو الحار، وغيوم متناثرة في السماء تسمح لأشعة الشمس أن تتسلل إلى الأرض . ونزلت من الطائرة مع من نزلوا .. وجوه سمراء بقامات طويلة ، يُحَيِّون بعضهم بعضاً ، منهم مَنْ يرتدى ملابس تشبه ملابس رجال الجمارك .. إنهم الموظفون العاملون بالمطار ، سرت مع هؤلاء وأنا أتأمل ؛ وجوههم شديدة السواد ، يتضحكون ويتسّمون ويتبادلون التحية ، ولم أر بين المستقبلين عارياً كما تخيلت ، ولأعرف إن كانوا سيفهمون اللغة العربية إن أردت التحدث بها معهم أم لا ؟ دخلنا الصالة الصغيرة ، وسرت بينهم شارداً كالثائه ، وفجأة وجدت يداً تربت على كتفي ، وصوتاً ينادي من الخلف ، ونظرت فإذا بشاب يرتدى الدشداشة الكويتية (الجلابية) بدون الفترة والعقال ، وسألني :-

— أنت عبدالله ؟

رددت على الفور :-

— جاسم ؟

إنه جاسم الرشيد مدير مكتب الكويت في جوبا الذي سأحل محله ، ولم أكن قد التقيت به من قبل ، وقدم لي اثنين من العاملين بالمكتب ؛ محمد ، ملاحظ المباني وهو من اليمن الشمالي ، ورمضان ، فراش بالمكتب ..

على الفور تبدد في داخلي الشعور بالغربة بعد أن وجدت من يستقبلني كسائر ركاب الطائرة .

كانت الصالة الصغيرة لاتزيد مساحتها على سبعة أمتار في عشرة أمتار، على اليسار غرفتان ؛ إحداها لمدير المطار، والأخرى للحركة الجوية ، وعلى اليمين غرفة الجمارك ، وفي الخارج غرفة أخرى مكتوب عليها (في . آي . بي) ، أى الغرفة المخصصة لاستقبال كبار الزوار .

بقيت في الصالة إلى أن وصلت الأمتعة ، ووضعناها في سيارة المكتب ، وهي جيب تيوتا ، سقفها من المشمع . وتوجهنا إلى المدينة على طريق مرصوف بالأسفلت ، وبدت الأشجار خضراء باسقة ، والمنازل متناثرة بالقرب من مبنى المطار . وعلى بعد نحو كيلو مترين بدت مدينة جوبا ؛ بيوتها من دور واحد على الطراز العربى ، ولم أر أناساً عراة ، أو حيوانات وحشية ، أو ثعابين تزحف على الأرض ، أو قروداً على الأشجار ، كما كنت أتخيل .. وراح جاسم يصف لى المدينة .. المبنى الكبير الذى على شمالنا من دور واحد ، هو فندق جوبا ، والأشجار التى فى ساحته ، أشجار مانجو ، أما الأشجار الباسقة الممتدة على طول الشارع ، فهى أشجار تسمى (النيم) ، والمبنى الذى على اليمين من دورين ويطل على ميدان صغير هو مقر الحاكم والمحافظ . وبعد قليل ظهرت مبان متجاورة ، إنها مكاتب الأمم المتحدة .. بعدها انعطف شمالاً ، وعلى بعد مائتى متر رأيت علم الكويت يرفرف فوق مبنى صغير .. إذن هذا هو القصر الأبيض ، الذى وصفه المهندس بأنه يُرى من الجو ، وهو لا يكاد يرى من على بعد هذه المسافة .

— قال جاسم : —

— هذه جوبا ، حمداً لله على السلامة .

الطقس رائع ونسمات لاتخلو من رطوبة ، كل الناس يسرون وقد ارتدوا الملابس العادية ولاشئ غير عادى .

وهكذا وصلت إلى مقر العمل ، والبيت يبدو من الخارج مبنى مستطيلاً ، ليس له سور بل سلك شائك ، لايمنع أى إنسان أو حيوان من الدخول ، وإنما فقط يحدد

موقع المبنى . كان أول مارأيته عندما فتح الباب ، طاولة خضراء كبيرة ، تشبه طاولة التنس (البنج بونج) ، فوقها آلة كاتبة ، وعلى الأرض سجادة ومساند قطنية وفوقها طاولة صغيرة ، وعلى الجدران رؤوس أرانب وفئران محنطة ، وعلى صدر الحائط صقر كبير مفروود الجناحين ، عرفت من جاسم أنه يسمى (صقر الجديان) ، وهو شعار السودان ، كان قد اصطاده وحنطه ووضع بالطريقة المرسومة في شعار السودان . نوافذ المبنى عريضة ، ذات قضبان متباعدة تسمح بدخول رجل نحيف أو حيوان ، وليس لها نوافذ خشبية أو زجاجية . وفي الصالة باب يؤدي إلى غرفتين ؛ واحدة منها بها سريران خشبيان ، وعلى كل سرير (ناموسية) مرفوعة على عصا ، ودولاب خشبي من ضلفتين ، أما الغرفة الأخرى ، ففيها سرير واحد عليه (ناموسية) ، ونافذتها تطل على فناء المنزل الخلفى .. وفي زاوية الغرفة ، طاولة صغيرة ، وجهاز (سبرنج) مثبت في الحائط ، كان جاسم يستخدمه في هواياته الرياضية ، ويحتفظ بقطعتين أليفتين ؛ أطلق على إحدهما اسم (نوسة) والأخرى (سيامه) .

خلال الفترة التي أمضاها جاسم في جوبا ، كان يمارس هواياته في الرياضة والصيد والرسم وتربية الدواجن والحيوانات الأليفة ، ويلعب الورق مع أصدقائه كوسيلة للتسلية ، وهكذا صنع عالماً لنفسه .

عندما سألته عن غرفة المكتب ، أشار إلى مدخل قريب من (صقر الجديان) ، وتوقعت أن أجد بداخله المكتب وكل مايلزمه ، فإذا به مجرد مخزن مليء بالصناديق الخشبية والخيام والمراتب ، وعرفت أنها خاصة بالشيخ علي صباح السالم ، الذي اعتاد أن يحضر إلى جنوب السودان في موسم الصيد من كل عام ، ليقم معسكراً في الغابة لمدة أسبوعين أو أكثر ، ويحتفظ بهذه الأشياء هنا ، ليستخدمها كلما جاء إلى جوبا .

إذن أين المكتب ؟ فأشار إلى طاولة التنس ، التي توجد عليها الآلة الكاتبة ، وقال : - إن هذه الطاولة هي مكتبه ، ومكان تسليته في لعب (البنج بونج) .

تأملت بقية المنزل .. هناك أيضاً مدخل واسع يؤدي إلى المطبخ ، وفي ساحة المنزل الخلفية مخزن صغير ، وغرفة يستخدمها عمال المكتب .

هذا هو إذن القصر، وهذه هي جوبا بأشجار النيم من حولنا، واحدة منها أمام المنزل، تقف تحتها السيارة الجيب لِتُظِلَّهَا من حرارة الشمس، وأخرى في وسط فناء المنزل، وتحتها طاولة صغيرة وكريسيان.

جلسنا في ظل الشجرة، وراح يحدثني عن جوبا وتجربته فيها، والتي استمرت زهاء ستة عشر شهراً.

* * * * *

فصل لہائی

الأنیام الأولى

1

2

هأنذا في عصر يوم وصولي أقف في فناء المنزل ، ثم أتقدم خارجاً ، إننى لا أرى من حولي بنايات شاهقة ، لا شوارع من حول مقرّنا معبّدة أو مسفلته ، ولا إضاءة ، وكل ما أراه هدوء تام يشبه الصّمت ، أناس يسرون فرادى ، أكثرهم حافي القدمين ، أطفال هناك يلعبون ، أشجار نيم خضراء باسقة ، تنبعث من بين أغصانها تغاريد عصافير جميلة تقطع السكّون أو سيارة تمر فتعكر الهدوء بغبار تخلفه وراءها .

وأنا في تأملى هذا ، إذ بصوت جاسم من خلفى ، يقول : — دعنا نركب السيّارة لأطلعك على المدينة .

لم أتردد ، وبدأنا الطّواف في حوالى الرّابعة بعد الظهر .. إننى أرى نسبة الأشجار أكثر من المساكن ، وقد تناثرت حولها الأكواخ والبيوت ذات الدور الواحد ، وأستطيع أن أقول إنّ نسبة الأكواخ تعادل سبعين بالمائة من مجموع المباني ، الشارع الرئيسى بالمدينة مرصوف ومستطيل ، يلف حول نفسه على شكل دائرة ، ويمر بوسط المدينة ، قطعناه في سبع دقائق . وقال جاسم : — إنك الآن رأيت كلّ جوبا ، ثم اقترح أن نذهب لعدد من أصدقائه لأتعرّف عليهم ، فتوجهنا إلى منزل ابراهيم عبدالله مساعد المحافظ ، الذى رحب بى كثيراً ، وكنت قد أعربت لجاسم عن رغبتى فى الذهاب لصيد الغزلان ، لأننى لم أجربها فى حياتى ، فقال : — إنها على مسافة كيلو مترين فقط ، وتواعد مع ابراهيم أن نلتقى ثانية فى منزله بعد صلاة المغرب لنذهب للصيد ، ثم طاف بى إلى منزل صديق آخر ، هو المهندس حبيب عبدالله ، وهو من هواة الصيد أيضاً فلبى الدّعوة .. ثم عدنا إلى المنزل ، حيث جاء إلينا صديق لجاسم ، اسمه الدكتور زاهر طاهر (رائد فى الجيش وطبيب بالمستشفى العسكرى) .

خرجنا جميعاً في نحو الساعة السابعة مساءً، وتوجهنا إلى منطقة .. على بعد كيلو مترين من المنزل، وهي عبارة عن جزيرة من غابات السافانا، والتي يسمونها (القش)، ترتفع سيقانها نحو ثلاثة أمتار، استعنا بضوء كشاف صُمم خصيصاً للصيد في الليل، بالإضافة إلى ضوء السيارة، دخلنا المنطقة، وجدنا غزالاً رابضاً فاصطدناه، ففرحت، وبقدر فرحتي كنت أرتعد خوفاً، عندما تذكرت كلام المهندس عرفه، عن وجود أفاعٍ صغيرة لا يزيد طولها على ثلاثين سنتيمتراً، تلتف حول أغصان الأشجار، وتقفز كالسهم على فريستها حيث تلدغها، تخيلت أن ذلك قد يحدث وخاصة في هذا المكان، فأغلقت زجاج السيارة، ولم أطمئن فقد تقفز علينا من السقف، كنت في خوفى هذا، بينما كان الآخرون يتسامرون، ولا يبدو أنهم يشعرون بنفس ما أشعر به، وبعد نصف ساعة اصطدنا غزالاً آخر، وقررنا العودة ولكننا ضللنا الطريق، فلا يوجد طريق خاص للسيارات، وظلام الليل يسود المكان، وكان دليلنا هو المهندس حبيب لكنه هو الآخر افتقد الطريق .. جزيرة قش السافانا هذه لا تزيد مساحتها على أربعة كيلو مترات فقط، لكن كيف الخروج منها؟ وخفت أن يخترق القش عجلات السيارة، فلا نستطيع أن نتحرك. وتخيلت أن يكون مقرى الليلة في بطن وحش مفترس، وأنا الذى لم يمض سوى ساعات على وجودى في جوبا، خاصة عندما أدركت أن القلق بدأ يساور الآخرين، ووسط هذه الحيرة، رأينا غزالاً سيئ الحظ فاصطادوه، ولم يعد همى هو الصيد، بقدر الخروج من هذا المأزق، وبعد ساعة يُسر لنا أن نخرج من هذه المنطقة، فقد ظهرت لنا وسط أعواد القش الطويلة مجموعة من الأطفال العراة، فراودنى الخوف لأول وهلة عند رؤيتهم، لكن رفاقى سألوهم ببلهجة عربية ركيكة عن الطريق إلى جوبا، فأشاروا بأصابعهم، وعن طريق هؤلاء الصغار عدنا إلى جوبا وأنا لا أكاد أصدق.

وبعد أن ذهب كل واحد منا إلى بيته، بدأت أفكر كيف سأبيت ليلتي الأولى هذه. وحاصرتنى المخاوف، وخاصة من تلك النوافذ المفتوحة. وبقيت بمفردي في غرفة من غرف المنزل، أرقب بقلق السكون الصامت والظلمة الموحشة، ولا أسمع إلا طنين البعوض، الذى بدا لى كأزيز طائرة تحط على مدرجها،

وظللت على هذا الحال حتى أوشك الفجر أن ينبلع ، فنفوت بعض الوقت ، واستيقظت في حوالى الساعة صباحاً ، فلم أجد جاسم الذى كان قد خرج بسيارته ، ظللت أنتظره ، وإذا بى أسمع محرك سيارة يتوقف فى الخارج ، خرجت فرأيت رجلين نزلا من سيارة مرسيدس ؛ أحدهما طويل القامة ، والآخر قصيرها ، عرفانى على نفسيهما ، القصير قال إنه اللواء جوزيف لاقو^(١) ، قائد الفرقة الأولى ، والطويل قال أنه فيليب أوبانج سفير السودان الجديد لدى يوغندا ، ولم يمكثا طويلاً وذهبا ، وبعد قليل عاد محمد ، ملاحظ المباني ، وهو يركب دراجته الهوائية .. وسألته أين ذهب ؟ فقال : - إلى موقع المشروع . ثم جاء جاسم ومعه بعض أصدقائه من السودانيين وعرفنى عليهم ؛ محبوب محمد علي (المقاول) وعبدالكريم عكاشة ، وسعد كوراك وياسر الطيب ، وخالد من الخطوط السودانية وعبدالباقي البلاع ، ومعظمهم من التجار المعروفين ، وهم من الشماليين المقيمين فى جوبا ، وبعضهم ولد فيها .

كان يوم الأحد (العطلة الأسبوعية) فى الجنوب ، فبدأ جاسم ومن حضر معه يتسللون بلعب الورق (الكوتشينه) ، وقد شاركهم لعبة (الكونكان) ، ولكن آثار دهشتى أثناء اللعب ، أن أحدهم أقسم بالطلاق ثلاثاً ، بأنه سيفتح ، أى أنه سينهى اللعبة لصالحه ، فى حين أن ورقى كان جاهزاً تماماً ، واللعبة لصالحى ، لكن لأنه أقسم بالطلاق ، لم أحاول أن أفتح ، بل رحت أتسلى بالورق لتضييع الوقت ، وقد ضايقتنى هذا فى أول الأمر ، لأن مانفعله مجرد تسلية ، ولا يصح أن نستخدم فى التسلية قسماً غليظاً ، هو أبغض الحلال عند الله . وقررت ألا أستمر فى اللعب طالما أنهم يقسمون هكذا ، فضحكوا جميعاً لأنى أخذت الأمر بشكل جاد ، وأفهمونى أن الذى أقسم بالطلاق لم يتزوج بعد ، وأن عليّ ألا أتضايق من ذلك ، لأننى سأسمع هذه الكلمة كثيراً حتى من النساء والأطفال . وقضينا اليوم . وبعد الظهيرة أراد جاسم أن يلعب الكرة الطائرة كعادتهم ، فذهبنا الى منزل أحدهم وشاركهم اللعب .

(١) سوف يتكرر هذا الاسم كثيراً لتعريفه أكثر.

في اليوم التالي (يوم الاثنين) طلبت من زميلي، أن يطلعني على العمل، فلما ذهبنا لم نجد عملاً ولا عمالاً. ولا بنائين، وإنما مجرد سور ارتفع نحو نصف متر عن الأرض، أوشك أن تردمه الرمال، وأخبرني أن المقاول توقف عن العمل، لأنه لا يملك المواد الأساسية— وأهمها الأسمنت— حيث لا توجد في أسواق جوبا، ويصعب نقلها من الخرطوم. واقترح أن يُعَرِّفَنِي على بعض المسؤولين، فأخذني إلى مكتب جوزيف أدوهو^(١) وزير الإسكان، ثم إلى مكتب العميد شرطة روبرت مايك، والعميد محمد يحيى منور^(٢) رئيس الأركان في القيادة الجنوبية في جوبا، والسيد هنري بانجو المحافظ^(٣).

بعدها ذهبنا إلى محل محجوب المقاول، الذي يمتلك محلاً تجارياً وسط السوق، أمام مسجد جوبا الكبير، وهناك جلسنا خارج المحل بحيث يستطيع المرء أن يرى حركة السوق، والناس تبيع وتشتري من الدكاكين المجاورة.. كانت الحركة نشطة، واللوازي تنقل البضائع، وكان من الواضح أن أصحاب هذه المحلات من شمال السودان، وعاشوا في الجنوب واستقروا فيه. الناس في الشارع ترتدى بدلة السفاري أو القميص والبنطلون، ومن السهل أن تفرق بين الشمالي والجنوبي من ملابسه، فالشمالي يرتدى الجلابة والعمامة البيضاء أو الطاقية، وأكثرهم أقل سواداً، ولا تستطيع أن تميز بين التاجر والمثقف والمتعلم وغير المتعلم، فكلهم بسطاء. وأصحاب الدكاكين يفضلون الجلوس على مقاعد خارج محلاتهم، ويستعملون (الصعوط)، ويدخنون بكثرة، ويتبادلون الأحاديث مع بعضهم. وقد ضايقتني، أن أرى كل واحد منهم يصرق على لأرض بشكل تلقائي، ويبدو أن هذه العادة مألوفة لديهم. وتأملت، فلاحظت كثرة الفقراء الذين يمدون أيديهم يطلبون العون، فيخرج التاجر من جيبه قطعة معدنية أو ينادي: هات يا ولد قرشاً،

(١) أصبح الآن أحد عناصر المعارضة في الجنوب.. رجل بشوش وكرم.

(٢) قتل عام ١٩٧٧ في محاولة انقلاب فاشلة في الخرطوم حيث شارك في التصدي لافشال ذلك الانقلاب.

(٣) توفي في حادث انقلاب سيارة عام ١٩٧٨ في الطريق إلى مدينة ياي التي تبعد عن جوبا مسافة ١٨٠ كم وهي بالقرب من الحدود مع زائير وأوغندا.

ويلقى به هؤلاء الفقراء، ورأيت منظرًا أثار في نفسى الفزع، فبعض هؤلاء الفقراء بلا أصابع فى أيديهم، وأقدامهم تكاد تكون متآكلة، وهم يجوبون الشوارع، وعرفت أنهم مصابون بمرض الجذام، ولم يبد أصحاب المحلات خوفهم، فقد اعتادوا على رؤية هذه المناظر، ولكنى لم أحتمل، وشعرت بالخوف، وألححت على جاسم أن نعود إلى البيت، فقد ضايقتنى منظر البصق، وهؤلاء المصابين بالجذام، فعدنا لأقوم ببعض الأعمال معه فى مراجعة أوراق المكتب وحساباته.. فبعد أيام سيغادر عائداً إلى الكويت، وعَلّيتُ أن أتسلم العمل منه. كان جاسم يقوم بكل شيء، يتابع الحسابات، ويرسل الأوراق إلى الهيئة، ويقوم بأعمال الطباعة والمراسلة.



بعد أن تناولنا الغداء، واسترحت بعض الوقت، فاجأنى بقوله: — ألا تريد أن ترى العراة؟، وترى كيف نصطاد حمام (القمرى)؟ .. إنهم لا يبعدون كثيراً. أثار فضولى ورحبت بالفكرة، وخرجنا معا. سرنا مسافة نحو ثلاثة كيلو مترات فقط من المنزل، وبدأت أرى أناساً عراة، كما ولدتهم أمهاتهم، يسرون على جانبي الطريق سيراً طبيعياً، وقد حمل كل واحد منهم عصا طويلة، أو حربة دون أن يتوكأ عليها، وإنما يبدو أنه اتخذها كوسيلة دفاع عن النفس، فى مواجهة أي اعتداء قد يقع عليه، ورأيت نفسى مشدوداً إلى هذا المنظر الغريب، الذى أراه لأول مرة فى حياتى؛ رجل عارٍ تماماً، يمشى دون حرج من الآخرين، ولا يخرجهم الآخرون. أجسامهم باسقة طويلة، أما النساء فيرتدين شيئاً حول الوسط يشبه (الثنورة)، مصنوعاً من الأعشاب الجافة، يغطي الجزء الأسفل من الجسد حتى الركبة، أما السُرّة فافوق فهو عارٍ. وهن منشغلات فى أداء أعمالهن، حول أكواخهن، فهن من ترعى أغناماً، ومنهن من تحرث الأرض، وأخريات حول الأكواخ التى تسمى بالقطايطي (جمع قطية)، يحضرن وجبة للعشاء، قبل غروب الشمس، أما الأطفال من أولاد وبنات دون الثانية عشرة، فهم مثل الرجال عرايا تماماً. كانت هذه المناظر مألوفة لدى صاحبي، فلم يعرّها اهتماماً، وراح ينشغل باصطياد حمام (القمرى)، وبعدها عدنا بصيدنا الوفير إلى المنزل، ومعه بدأ

ينتابنى شعور بالخوف من منظر هؤلاء العراة، وتخيلت لو أن أحدهم تسلل الى البيت، عبر قضبان النافذة المتباعدة. فلم أتم في تلك الليلة الثالثة لوصولي، وحاولت أن أبدد هذه الهواجس باللعب مع القظتين (سيامه) و (نوسه) لكنها لم تكونا قد اعتادتنا عليّ. وزاد من هواجسي فكرة أن جاسم سوف يسافر غداً، أو بعد غدٍ، وفكرت أن أبقيه يوماً آخر، حتى أتعرف أكثر على مدينة جوبا، فقد كان لى في الأيام الأولى بمثابة رفيق وأنيس بدّد قتامة الغربة، خاصة أنه استطاع أن يترك انطباعاً طيباً، وسمعة حسنة، بين المواطنين. في اليوم التالي خرجت معه إلى سوق الخضار، الذى يعرف بسوق (الملكية)، وهناك وجدت سوقاً مزدحماً بالناس ومحال بقاله كثيرة، وآخرين يفتشون الأرض، وأكثرهم سيدات بصدورهن العارية، وهن يرتدين نصف الملابس، ومنهن من تحمل (قفة)، تبيع مامعها من خضار، وتشترى بالثمن ما تحتاجه من بقالات في السوق.. الخُضْرُ متوفرة من كلّ الأنواع وهي تباع (بالكوم)، وليس بالميزان، وتباع البامية بالعدد؛ كل خمسة أصابع تباع بقرش (ارتفع سعرها وأصبح الآن ثمن الأصبع الواحد خمسة قروش)، وإلى جانب سوق الخضار يوجد سوق الجزارين وتجار السمك، وقد لفت نظرى سمك كبير يسمى (العجل)، يزن بعضه أكثر من ٣٠ كيلو جراماً. وهو خال من الشوك، وهناك سمك البلطي والبياض وأنواع أخرى محلية، مثل (أبو كرشه)، وخشم^(١) البنات، وهو نوع من السمك له فم صغير جداً وبارز للأمام، كَشَفَتْنِي فتاة أفريقية، وفضلت عليه (أبو كرشه) الذى يشبه سمك السالمون في لون لحمه وطعمه، ولحوم البقر والضأن متوفرة. وخراف جنوب السودان ليست كالتى في الشمال، فهي صغيرة الحجم، وأنواعها متعددة، مثل أغنام (بور) و(كابويتا) و(نيمولي) و(توريت)، وكان ثمن الخروف يتراوح بين ثمانية وعشرة جنيهات (أصبح ثمنه الآن أكثر من تسعين جنيهاً).

أثناء عودتنا إلى المنزل، تأملت مدينة جوبا أكثر، فوجدتها مدينة صغيرة، يبدو عليها القدم، وهي تقع في أحضان الطبيعة، تحيط بها جبال متباعدة، وسفوح خضراء، وشوارعها غير مرصوفة، وتكثر بها الأشجار المتعددة الأنواع، وهي أشجار

(١) كلمة خشم في كل السودان: المقصود بها القَمْ.

بامسقة كأجسام سكانها، مثل شجر (التي)، الدائم الخضرة طوال العام، وشجر الباباي ذو الثمر حلو المذاق، وأشجار المانجو والموز. ورأيت العشش (القطاطي)، تبني من أغصان الشجر والطين المخلوط (بالقش)، وتسقف بأعواد السافانا الغابى، التى ترص بشكل مائل، كي تمنع تسرب المطر إلى الداخل، وتكثر أكوام الزباله بينها مما يؤدي إلى تكاثر الأمراض بين السكان، كما أنى لم أر مرافق صحية فى الأحياء.

عدنا إلى البيت، وأثار فضولى تجمع نسوة وأطفال حول حنفية مياه، أقامها جاسم ليرتوى منها الأهالى المجاورون للمكتب مجاناً بلا مقابل (سبيل)، ويرتادها أيضاً عابرو الطريق، ويزداد الأطفال والنسوة عادة بعد الظهر، وهنَّ يحملن أوانى من الصفيح (الجراكن)، أو غيرها، ويقفن فى طابور منتظم وليس بينهن رجل واحد، وإنما نساء يرتدين ملابس رثة، ومنهن من تحمل طفلاً أو طفلين، إلى جانب هذا تحمل (جركن) يسع خمسة جالونات من الماء على رأسها، اقتربت منهن، والتقطت لهن صورة بكاميرا فورية (بولارايد)، ولما رأين صورتهم، تدافعن حولى، كل واحدة تريد أن تأخذ صورة بمفردها، وبعضهن ظن أن ذلك نوع من السحر، فكلهن فى الصورة بنفس ألوان أجسادهن وملابسهن. وأخذت صوراً لهؤلاء - عاريات الصدور - وأرسلتها إلى زوجتى وأهلى فى الكويت، ليقفوا على بساطة الحياة، وأنَّ التّعري هنا لايعتبر أمراً منموماً أو معيباً، ولكنها بساطة الإنسان فى مراحل تطوره، ارتبط بالطبيعة وأصبح جزءاً منها، يرتدي ملابس أو لا يرتدي، فلا قيود عليه، وهنا يختلف مفهوم العيب عن مجتمعاتنا العربية الأخرى.

كانت لحظات مثيرة، واقتربت الشمس من الغيب وكان موعد سفر جاسم يقترب، فأقمت له حفل وداع صغيراً بفندق جوبا، دعوت إليه أصدقاءه الذين عرفنى عليهم، لأبقى على صلتى بهم كأصدقاء جدد لى.

فى صباح اليوم التالى الأربعاء ٢٩/٩/٧٤ توجهنا الى المطار لوداع جاسم.. ودعته بعد أن ترك فى نفسى أثراً كبيراً، فقد كنا ثلاثة فأصبحنا اثنين، أنا ومحمد، وعدت إلى المكتب أقود سيارة (الجيب) لأول مرة.

أول شيء فعلناه أنا ومحمد بعد العودة من المطار، أن اشترينا ما نحتاجه من السوق، وفكرت أن أذهب إلى دكان عجوب، ولكنى تذكرت المصابين بالجذام، وغيرهم ممن يبصقون على الأرض، فأثرت البقاء في البيت. جلسنا تحت شجرة النيم، ورحنا نتسلى معاً بورق الكوتشينة (اللعب)، إلى أن حان وقت الغداء، وبعد الظهيرة وقفت أتفرج على التسوة والأطفال، الذين يملأون أوانيهم من حنفية المياه، وكانوا قد بدأوا يألّفوننى، فكنت أدعب الأطفال وأتحدث إليهم، وألتقط لهم صوراً، وهم لا يخافوننى، ولكننى لم أستطع أن أفهم لهجتهم العربية التى يتحدثون بها، إلا القليل منها.

بعد صلاة المغرب اقترح محمد أن نذهب إلى دكان سعد كوراك، وهو صاحب محل أقمشة، ذهبنا إليه، وكان هناك أناس كثيرون قد جلسوا خارج المحل، والخياطون يجلسون إلى ماكينات الخياطة على امتداد السوق، ورحت أتأمل المارة في الطريق من رجال ونساء وأطفال.

وشدّ انتباهى، طفلان، لم يزد عمر أكبرهما على ست سنوات، شبه عاريين.. وقفنا ينظران إليّ بتمعن شديد، أدركت من نظراتهما، أن مصدر تعجبهما ودهشتها، هو لونى الفاتح، ذلك أنها كانا ينظران إلى لون جسميهما، ولون الآخرين من حولى، كما لو كانا يقارنان بين الألوان، فأخرجت من جيبى ورقتين من فئة الخمسة والعشرين قرشاً، وأعطيتها لهما بعد أن داعبتهما.

قال أحد الجالسين أنت مدعو هذه الليلة الى «تيرم تيرم» ولم أحاول الاستفسار، ظناً منى أنها وجبة سودانية. وذهبت معهم على هذا الأساس.

هناك فوجئت بما لم أتوقع. فقد كان كل شيء عادياً، الجلوس في فناء المنزل (الحوش)، وضع به عدد من الكراسى، حوالى اثنى عشر كرسيّاً على شكل دائرة، بينها طاوولات صغيرة.

وخلف تلك المقاعد، طاولة فوقها راديو مسجل، وحوله عدد من الأشرطة. وفيما أنا أتخيل نوع هذه الأكلة «تيرم تيرم»، إذا بمجموعة من الفتيات يدخلن ويسلمن

على الجميع ويجلسن ، وظننت أنهن من المدعوات ، وبعد قليل أدير المسجل ، لسماع موسيقى أفريقية تسمى (الجلوا) .

ومع تلك الأنغام الموسيقية ، وقف صاحب المنزل مرحباً ومعرفةً الآخرين بى . ودعا إلى بدء الحفل ، بمعنى أن يتقدم الجميع للرقص على أنغام تلك الموسيقى ، ووجهت حديثى لأحدهم بأننى مدعو إلى تَرم تَرم وليس إلى رقص ، فضحكوا جميعاً وأفهمونى بأن تَرم تَرم تعنى حفلاً راقصاً ، وهذه التسمية متداولة (شفرة) بينهم إذا ما كان بينهم غرباء .

وبما أننى محتفى به ، كان عليّ أن أفتح الرقص . وعندما شرحت أنه لم يسبق لى مثل هذا الموقف ، قالوا : - إننى إن حاولت - مجرد محاولة - الاعتذار أو الرفض ، فإن حفلهم هذا سيفشل ، وستصرف البنات ويرفضن تلبية دعوة أئى واحد منهم مستقبلاً . وعلمت أيضاً أن الشابة هي التى تدعو الرجل للرقص . ووقفت إحداهن أمامى ، وأشارت إليّ بيدها ، طالبة مراقبتها ، فوجدتنى ولكي لا أفسد هذه الجلسة على الأصدقاء ، أقف أمامها ، وأتمايل وجسدى يتصبب عرقاً ، ليس من حرارة الجو ، ولكن من موقف لأحسد عليه .

بعد قليل أوقفت الموسيقى ، وطاقوا علينا بأطباق اللحم ، وبدأ الجميع كُلاً يتحدث ويأكل . فانتزتها فرصة لأعلن عدم مقدرتى على الاستمرار ، لأننى مرهق وفى حاجة للراحة ، فاستأذنت ، بينما استمر الباقون .

توجهت فى صباح اليوم التالى برفقة محمد إلى السوق حيث دكان محبوب ، وهناك أمضيت ساعتين ، أطوف بالمحلات والدكاكين ، لأتعرف على نوع بضاعتها ، فوجدت أن أى دكان يبيع كل شىء ؛ الزيوت والذرة والأقشة والفساتين والعطور وأشرطة التسجيل ، وفى جولتى إلتقيت بمن كنت قد تعرفت عليهم من قبل ، ومعظمهم تجار فى السوق ، فدعوتهم إلى عشاء فى منزلى ، كي أحافظ على صلتى .

فى يوم الخميس لم يكن لدينا مانفعله ، فأمضيت اليوم فى التسلية بلعب الورق مع محمد ، الذى آثرت أن أزيل الحواجز بينى وبينه ، فقد كان يعاملنى فى

البداية بتحفظ ، على أنى مدير المكتب ، وهو ملاحظ ، وفضلت أن نكون أصدقاء ، خيراً من أن نكون رئيساً ومرؤوساً ، فكان يصحبني إلى حيث أذهب .

وفي المساء ذهبنا إلى الصيد ، إلى نفس المنطقة التي كان جاسم يصطاد فيها ، وعدنا بغزالين وفهد صغير .

وفي اليوم التالي — الجمعة — ذهبت كالعادة إلى السوق ، وإلى دكان محجوب ، وكان المسجد الذى سأؤدى فيه صلاة الجمعة ، يقع مقابلاً للدكان . ولاحظت كثرة المتسولين والفقراء ، عن أتى يوم مضى ، وعرفت أن ذلك يحدث عادة يوم الجمعة قبل الصلاة ، حيث توزع عليهم (القروش) ، وعندما دخلت إلى المسجد ، لم أر مرافق صحية ، إنما حنفية في فناء المسجد يتوضأ منها المصلون . ولفت نظرى أن موعد صلاة الجمعة لا يختلف عنه في الأيام العادية ، كما يحدث في الكويت ، حيث تُقدّم الصلاة عن مواعدها ، لأن الخطبة تأخذ وقتاً . ولاحظت أن الإمام يسلم تسليمه واحدة على اليمين ، فيسلم المصلون معه والتسليم الثانية يؤديها ولكن لا يعلنها بصوت مسموع .

بعد أداء الصلاة ، شعرت بحنين إلى الأهل والأصدقاء في الكويت ، وتذكرت أنني لم أكتب لهم حتى الآن ، وأنه لا وسيلة هاتفية كي أبلغهم أنني وصلت بسلامة الله ، ولا شك أن القلق ينتابهم ، وقررت أن أرسل برقية ، لأنها تصل أسرع من البريد فقد يأخذ البريد حتى يصل الكويت شهراً أو أكثر ، أما البرقية فقد تصل في سبعة أيام ، وهكذا في المساء فرغت من إعداد الرسائل وكتابة البرقية ، وأصبحت جاهزة ، ووضعتها على الطاولة وكلفت محمد ، بأن يأخذها إلى البريد في الصباح .

كان اليوم هو السبت ٧٤/١٠/١ عندما خرج محمد ، حاملاً معه الرسائل والبرقية ، وركب دراجته الهوائية ، متوجهاً إلى البريد ، وجلست تحت الشجرة في انتظار عودته لتناول وجبة الإفطار ، فإذا بهدير أصوات يصل إلى سمعى من بعيد ، كما لو كانت أصوات مظاهرة ، وبعد قليل دخل عليّ شاب يرتدى ملابس مدنية ، وطلب مني أن أنقل السيارة من مكانها تحت الشجرة أمام المنزل إلى

خلفه ، وعندما سألته عن السبب ، أخبرني أن هناك مظاهرة تطوف الشوارع ، ولم أجادله ، ونقلت السيارة ، ثم طلب مني أن أبقى بداخل المنزل وألاً أكون خارجه أو على المدخل ، وفي نفس الوقت كان هدير المظاهرة يقترب ، وأنا في ذهشة فليس بيني وبين أحد عدا ، كما أنني لم آت إلى هنا لأعادي أحداً . لقد شعرت من لهجة الشاب كما لو كنت مقصوداً بهذه المظاهرة القادمة ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فهل سيحميني هذا المنزل بنوافذه المفتوحة ، ورحت أراقب المظاهرة القادمة من النافذة . كان نحو ألف شخص يحملون العصي والحجارة والزجاجات الفارغة يسيرون في الشوارع ، ثم توقفوا أمام منزلي ، وراحوا يضربون اللوحة المعلقة على الحائط بالخارج ، والمكتوب عليها بالانجليزية والعربية (مكتب دولة الكويت) ، سمعت بعضهم يتساءل : — ماذا يعني مكتب الكويت ، وماهي الكويت ؟ فردّ أحدهم : — الكويت يعني عرب ، هنا اشتدّ حماس المتظاهرين ، وراحوا يقذفون المنزل بالحجارة ويرددون : مادايرين عرب (أي لا تريد عرباً) . كان الشاب الذي دخل عليّ لأول مرة من رجال الأمن ، فلم يمنع المظاهرة ، وكانت الشرطة - بملابسها الرسمية - تعمل على ألا يتفاقم الموقف . فواصل المتظاهرون سيرهم وهم يرددون كلاماً لا أفهمه . استغرق ذلك بعض الوقت ، وفجأة تذكرت محمداً ، فربما حدث له مكروه في الطريق ، فلاحه عربية ، وقد يتعرض لأذى ، ولم أعرف كيف أتصرف ، كل ما فعلته أن خرجت إلى الشارع ، ورحت أطلع إلى الطريق ، فالشوارع الترابية حول المنزل ساكنة ، ولا أحد يمر بها ، ولم أرسو بعض النسوة يتراكن من بيت إلى بيت ، ولا شيء غير ذلك ، مما زاد قلقي على صاحبي ، وتنفس الصعداء عندما لحته قادماً من بعيد ، ماشياً على قدميه ، ويجر دراجته بيده ، ولما اقترب ، رأيت وجهه شاحباً ، والعرق يتصبب من جسمه ، فخرجت إلى الشارع نحوه مسرعاً ، قائلاً في لهفة : —

— إيه يا محمد . خير إن شاء الله .. طمّني .. ؟

— محمد : خلاص أنا بكره مسافر . أنا بكره مسافر . فرحت

ألهدي من روعه : —

— إهدأ يا محمد وتعال نتكلم .. أريد أن أعرف ماذا حدث . ! ؟ .

غسل وجهه ، وغيّر ملابسه المبتلة من العرق ، وقال إنه وجد مكتب البريد مغلقاً ، وفي العودة لقيه المتظاهرون ، فحاولوا ضربه ، وحاول أن يشرح لهم أنه من اليمن ، فلم يفهموا ماذا تعني اليمن ، وتركوه بعد أن علموا أنه غير مصري ، فقد علم أن الأمر كله موجه ضد المصريين ، ولم يكن أمامه بعد ذلك إلا أن يحتّمى في فندق جوبا ، وقد احتّمى كل النزلاء في داخل الغرف ، ومنعت الشرطة المتظاهرين من دخول الفندق ، وسمع من يقول إن هناك دخاناً يتصاعد في المنطقة المجاورة للسوق .

هدأت من روعه ، وبقينا داخل المنزل ، لم نخرج لنجلس كالعادة في الفناء الخارجى تحت الشجرة ، ووجدت نفسى أفكر فيما حدث ، لماذا كانت هذه المظاهرة موجهة ضد العرب ؟ ولماذا كان المصريون هدفاً لها ، ولماذا شبت الحرائق في بعض المحلات . وأحسست أننا قد نواجه مشاكل كثيرة ، وأطلت في ذهنى فكرة العودة إلى الكويت ، ولكننى رأيت أن عليّ أن أعرف حقيقة الأمر أولاً قبل اتخاذ أي قرار ، خاصة أنه لم يكن بيننا وبين أحد من جيراننا صلة ، لنسأله عن السبب ، ويبدو أنهم من المسئولين الجنوبيين ، لأننى كنت أرى سيارات رسمية تدخل وتخرج إلى المنازل المجاورة . فبدأت أنا ومحمد نضرب أخماساً في أسداس ، كل واحد منا يحاول أن يفهم ويتصور حقيقة ماحدث ، إلا أن صاحبي كان يردد أنه لن يستمر ، وأنه سوف يستقيل ، وأنه لم يأت إلى هنا ليوت أو يقتل .

عادت الأمور إلى طبيعتها بعد الظهيرة ، ونشطت حركة السيارات والمارة كما كانت ، ومعنى ذلك أن المظاهرة وآثارها انتهت تماماً .

خرجنا معاً إلى أقرب مكان ، وهو فندق جوبا ، لعلنا نقف على حقيقة الأمر بشكل أوضح ، وخاصة أن مديره أصبح من أصدقائنا - يدعى محمد سليمان - . كان محمد (الملاحظ) متردداً في الخروج معى ، لكننى أقنعتة بأنه يجب علينا الذهاب إلى الفندق مادمننا بالتهار ، لنعرف حقيقة ماحدث قبل غروب الشمس ، كان كل شىء عادياً في الفندق ، الناس جلست تحت ظلال الأشجار ، حول الطاولات كالعادة ، والفندق امتلأ بالرواد ، وكان من بينهم واحد من أصدقاء

المكتب، عرفنا منه أن هذه المظاهرة التي حدثت في الصباح كانت موجهة ضد مشروع قناة جُونُفُلِي (١)، الذي بدأ الحديث عنه كمشروع كبير تشترك فيه مصر مع السودان، وأن قناته سوف تحفر في الجنوب، ولأنه لم يسبق هذا الموضوع تعريف بأهميته للجنوبيين، فقد اعتقدوا أنه مشروع ضد مصالحهم، خاصة أن شائعات قد تسربت بأن هناك حوالي ستة ملايين مصري قادمون، ليسكنوا على ضفتي القناة، ليستوطنوا فيها ويزرعوها، وأنهم يرون ذلك احتلالاً جديداً، كانت المظاهرة إذن ضد قرار الحكومة المركزية، لهذا طافت المظاهرة على كل بيوت الشماليين، وأحرقوا سياراتهم، ومن لا يملك سيارة حطموا أثاثه، وللد على هذه المظاهرة، وعدت الحكومة الإقليمية أنها ستقوم بشرح أهمية هذا المشروع.

عدنا إلى المنزل. ورحنا نفكر في المستقبل، خاصة تلك الكلمة التي ردها المتظاهرون «لأنريد عرباً»، ومعنى هذا أن سمعنا نحن كعرب مشوهة تماماً لدى هؤلاء الناس، وقد التمسنا لهم العذر، فقد ظلوا في حرب أهلية استمرت سبعة عشر عاماً، عزلتهم عن كل دول العالم، باستثناء بعض الدول الأفريقية المجاورة لهم. وأياً كانت الأسباب والتماس الأعذار، فإنني وجدت نفسى بين أمرين أحلاهما مر؛ فإما أن أعود إلى الكويت غداً على متن أي طائرة، أو أن أستمري في مهمتى التي جئت من أجلها. وبعد تفكير عميق، اخترت الأمر الثانى، وقد أضفت لمهامى مسئوليات جديدة، وهي أن أعمل على إزالة هذه الصورة المشوهة عن العرب لدى هؤلاء المواطنين، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كان عليّ أن أجري إتصالات مع المسؤولين والأهالى والمثقفين منهم، كيؤكد وأزيل هذا الحاجز النفسى، الذى ترسب في نفوسهم عن العرب.

بينما كنت غارقاً في هذه الأفكار، زارنى عدد من الأصدقاء الذين تعرفت عليهم، جاءوا ليطمئنوا علينا، وراحوا يشرحون ما حدث كما فهمته من قبل. ويذكرون تفاصيل عن الذين أصيبوا أو أحرقت سياراتهم من الشماليين، واعتبرت

(١) قناة جُونُفُلِي تمتد ٣٦٠ كم في منطقة جُونُفُلِي بالقرب من ملكال عاصمة إقليم أعالي النيل الى بور في أقصى الجنوب، وتوفر ٨ مليار متر مكعب من مياه المستنقعات في تلك المنطقة، وتقسم هذه الكمية بين مصر والسودان وتبلغ تكاليفها ٩٠ مليون دولار.

ذلك نوعاً من تهدة الخواطر، فشكرتهم على روحهم الطيبة، وبدأت أعد نفسي لمهمتي الجديدة، وهي أن أقرب من الناس بشكل أكبر وخاصة الجنوبيين العاديين منهم والمسؤولين، وأخذت (رمضان) فراش المكتب، ليصحبني في السيارة ليدلني على أماكن الوزارات التي أريد زيارتها، خاصة أن الوزارات موزعة في أماكن متفرقة، وقررت أن أبدأ زيارتي بوزارة الإسكان، فهي أقرب إلى السوق، لأنني عرفت وزيرها بواسطة جاسم، في هذه المرة أردت أن أزوره بمفردى، تركت رمضان في السيارة، وذهب محمد إلى مكتب البريد لإرسال البرقية والرسائل، التي كنت قد كتبها للأهل. توجهت إلى مكتب الوزير وطلبت من سكرتيته إذنًا لمقابلته، لم ترد واكتفت بأن مدت يدها إلى درج على يمينها، وأخرجت ورقة مكتوبة باللغة الانجليزية وبها بيانات، عن الاسم والوظيفة والغرض من المقابلة والزمن الذي سأقضيه مع الوزير، واكتفيت بأن كتبت اسمي ووظيفتي وأعدتها، وبعد قليل دخلت بها إلى الوزير، ثم فتحت الباب ودعنتي للدخول، استقبلني الوزير مرحباً ترحيباً حاراً، وكان يتكلم معي باللغة العربية بلهجة ركيكة، ولكنني استطعت أن أفهم مضمون حديثه، وأكدت له رغبتى في استمرار التعاون بينى وبينه، وتمنيت أن يتيح لى فرصة زيارته كلها سمحت الظروف، فأبدى استعداداه لاستقبالى في أي وقت.

خرجت من عنده، وذهبت إلى محجوب في دكانه، جلست معه قليلاً، وجاء أحد المواطنين يسأل عن بعض السلع، فسمعت واحداً يقول: شوف الزاندي (١) دا عاوز شنو (أي، إسأله ماذا يريد) وأخذ الزاندي حاجته، فسألته كيف عرفتم أنه زاندي؟ فقالوا: — إن الإقليم الجنوبي كبير جداً، وبه العديد من القبائل، وهم يستطيعون أن يميزوا بين القبائل الجنوبية من الملامح؛ فالدينكاوي مثلاً، من قبيلة الدينكا أكبر القبائل في السودان، طوال القامة، شديدو السواد، وأكثرهم أسنانهم العلوية بارزة إلى الأمام.

(١) الزاندي اسم قبيلة كبيرة في جنوب السودان، تقع في غرب الاستوائية، سوف يرد ذكرها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

بعد يومين من زيارتي لوزير الإسكان - حيث كانت الحكومة في اجتماع دائم لبحث آثار ما حدث يوم السبت الماضي من مظاهرات - رأيت أن أستأنف زيارتي، فدخلت وزارة الصحة لأول مرة، كانت مليئة بالموظفين. فهي وزارة خدمات، وبعد السؤال عن مكتب الوزير استطعت أن أهتدي إليه، ولاحظت أن كل غرف الوزارة لا توجد عليها لافتات للتعريف بالموظف الذي فيها، باستثناء الوزير ومدير الوزارة والباشكاتب. وصلت إلى مكتب الوزير، وكان مليئاً بالمراجعين؛ منهم الواقف والجالس، سألتني أحد السكرتيرين بالانجليزية عما أريد، فعرفته بنفسى وأنى أرغب في مقابلة الوزير، فأشار علي أن أذهب إلى المدير، وذهبت، فأشار سكرتيه أن أذهب إلى نائب المدير، وهكذا هبطت درجات السلم الوظيفي حتى وصلت إلى رئيس الكتبة (الباشكاتب). تكلم بالانجليزية وتكلمت معه بالعربية، وفهم رغبتى في مقابلة الوزير وطبيعة عملى ومهمتى، وفهمت منه أنهم لا يعرفون حتى الآن بوجود مكتب للكويت، بل لا يعرفون الكويت أصلاً، وقال إننى إذا أردت أن أتعرف على الوزير، فلأذهب إلى الوزير، ووصف لى مكتبه، فأخبرته أننى ذهبت بالفعل إلى مكتبه، وأعادونى إلى المدير ونائبه حتى جئت إليه، وأنّ هدفى كله من هذه الزيارة هو التعارف لا أكثر. طلب من أحد السعاة أن يصحبنى، وقد تحدثت معه بلهجتهم المحلية، ورافقنى الساعى إلى مكتب الوزير مرة أخرى، وفى المكتب تكرر ما حدث فى مكتب وزير الإسكان، إذ كان عليّ أن أملأ ورقة عن اسمى ووظيفتى وسبب الزيارة وغير ذلك، أخذ الموظف الورقة منى بعد أن كتبت ما يريد، وبقيت واقفاً، حيث لا يوجد مقعد خال، إلى أن فرغ أحدها، فجلست، وظللت جالساً منذ الساعة التاسعة والنصف صباحاً، أرى الموظفين والمراجعين يدخلون ويخرجون من عند الوزير، ولم أسأل لماذا تأخرت مقابلتى، وإنما رحت أراقب ما يجري حولى، وأدخن من سيجارتي فى هدوء، وظللت على هذا النحو، حتى خرج الوزير من مكتبه فى الساعة الثانية والنصف، ووقف له الموظفون والعاملون فى المكتب، فوقفت، نظر نحوى نظرة سريعة ولم يتحدث، وانصرف خارجاً، وبعد قليل بدأ الموظفان فى مكتبه يستعدان للانصراف، وأخبرنى أحدهما أن الوزير

خرج إلى بيته، بمعنى: أنت أيضاً انصرفت. وعدت في اليوم التالي مبكراً قبل وصول الموظفين، الذين بدأوا يقدون إلى مكاتبهم. وبعد قليل دخل الوزير مكتبه وبدأ المراجعون يدخلون ويخرجون، وبقيت أنا جالساً أَدخن من سجائري واستمر ذلك حتى الثانية والنصف، إلى أن خرج الوزير مثل الأمس، وكررت المحاولة حتى اليوم الرابع، وكان يوم جمعة، عندما سمح لي بالمقابلة، ودخلت مكتبه، وعلى الفور وجهت له التحية، وأنا أقدم له نفسي، قائلاً: — إنني جئت فقط للتعارف والمجاملة، وأشكركم معالي الوزير لأنكم أنتم لي فرصة دخول مكتبكم لتحيتكم والتعرف عليكم، قلت هذا ولم أفكر أن أجلس، وقفلت عائداً، ولم يرد، وإنما نظر إليّ مندهشاً، لأنني لم أطلب شيئاً، ولم أناقشه في أي أمر، فإذا به يطلب مني البقاء، قائلاً: —

— إنني أراك منذ أربعة أيام.. فهل حقاً جئت لتقول لي صباح الخير، واسمى عبدالله... وخلاص؟ !!!

— قلت له: نعم هذا كل ما أردته من مقابلتكم، وإنه لطف منكم إذ سمحتم لي بجزء من وقتكم لتحيتكم.

أمرني بالجلوس، فجلست، وشرحت له أنني موظف جديد، ولم يمض عليّ أكثر من عشرة أيام في جوبا، واستلمت المكتب من زميل آخر، مكث هنا أكثر من سنة، وغادر، وأردت أن أتعرف عليكم كمستولين، وأعرفكم بطبيعة عملي ومهمتي.

فرد قائلاً: أننى أول كويتي يتعرف عليه، قلت له: — طالما استوقفتني لتسمع مني بعض الكلمات، فأرجو أن يتكرر هذا اللقاء بيننا، وعرفني على نفسه، وعرفت أن اسمه الدكتور جاستن ياك — وزير الصحة الإقليمي — وكان واضحاً من ملامحه أنه ينتمى إلى قبيلة الدينكا، فهو طويل القامة، وأسنانه بارزة قليلاً إلى الأمام، وهي أوصاف أبناء الدينكا التي قالوا لي عنها في السوق.. وبعد مقابلته شعرت بارتياح، فقد تعرفت الآن على وزيرتي الإسكان والصحة.

في اليومين التاليين لم يكن هناك مجال لمواصلة برنامج التعرف على باقي المسؤولين، فرغم أن يوم السبت يوم عمل في جوبا، إلا أن بعض المسؤولين والوزراء يخرجون إلى القرى المجاورة، ويوم الأحد هو العطلة الأسبوعية، وفكرت أن أقوم في هذا اليوم برحلة صيد، غير تلك التي قمت بها مع جاسم، بأن أتوغل داخل الغابة، وليكن ما يكون. كان معي في هذه الرحلة مجموعة من الأصدقاء، ورغم أنني لا أعرف طبيعة المنطقة والمداخل إلى الغابة، التي تبعد عن جوبا نحو خمسين كيلو متراً، أخذنا معنا مجموعة متنوعة من بنادق الصيد، فلم يكن الهدف هو صيد حمام أو غزال، فالغابة مليئة بالحيوانات الوحشية الأخرى، وكنت لأدري ما الذي سوف يحدث، ولكن وجودي مع هؤلاء الأخوة، أشاع في داخلي الاطمئنان، فلاشك أنهم ذهبوا إلى الغابة من قبل، واصطادوا وعادوا، لكن مخاوف التجربة الأولى، أعادت المواجهات إلى نفسي، فكيف سأواجه الحيوانات المفترسة، وأشاهد الفهود والثور والأسود والمستنقعات والأفاعي، كل ذلك على الطبيعة وليس في حدائق للحيوان، وخشيت أن يقفز إلى السيارة المكشوفة ونحن في الغابة قرد أو نمرة، كنت أقود السيارة وأنا صامت مستسلم، بينما بقية الأخوة يتسامرون ويتضحكون وكأنهم متوجهون إلى السوق. كان الطريق إلى الغابة وعراً، وتكثر فيه الخيران (جمع خور) التي لم يجف ماؤها بعد. فنحن في نهاية الخريف (موسم الأمطار)، ولم تكن هناك كبارى (جسور) لتعبر السيارات فوقها، لذا لم يكن أمامنا - كي نعبها - إلا أن ينزل راكبو السيارة، ونشدها بونش صغير مثبت في المقدمة، نربط الطرف الأمامي في إحدى الأشجار خارج التهر، وهذا ما حدث عندما واجهنا الخور الأول، وكان عرضه يبلغ نحو خمسة عشر متراً، نزل الركاب ورحلت أقود السيارة وسط خضم من المياه، غطس أكثر من نصفها، وكان على السيارة أن تعبر مرتفعات طينية، فلم تتمكن من ذلك ومن حسن الحظ أن المهندس حبيب والدكتور زاهر يعرفان طريقة استخدام الونش، فهذه ليست تجربتهما الأولى مثلي... نزلاً إلى المياه، وشدا الونش من مقدمة السيارة وربطاه في شجرة، وبمساعدة المحرك تندفع السيارة إلى الأمام. وكنت أخشى من وجود تماسيح في المياه، بينما الأطفال من أهالي المنطقة يصطادون

الأسماك ، فهذا الخور عبارة عن مجرى مائى متصل بالمجرى الرئيسى للنيل ، ويمتلىء بالمياه مع هطول الأمطار، فتتواجد فيه الأسماك إلى أن تجف مياهه ، واجتازنا الخور الأول ، وارتفعت السيارة على الأرض .. الأرض أمامنا لينة ، عليها بقايا أمطار، سرنا عليها مسافة عشرة كيلومترات ، قطعنا السيارة فى حوالى ساعة ، وكانت السيارة تنزلق وتتوقف كثيراً بسبب بقايا الأمطار على الطريق ... وفى الطريق كنا نرى النسوة والأطفال والرجال يسرون فرادى ، يتعد كل واحد عن الآخر بمسافة عشرة أمتار، وهم يحملون صناعاتهم اليدوية مثل الحصير وأزيار المياه ، ويذهبون إلى المدينة لبيعها ... بعد هذا الطريق الصعب ، وصلنا إلى أرض ترابية سرنا عليها براحة تامة ، ثم طلب منى المهندس حبيب أن أتوقف أمام مجموعة من الأكواخ ، وراح يسأل عن شاب اسمه (كسميرو) ، كان لابد من حضوره معنا ، لأنه دليل الطريق داخل الغابة ، فلن نستدل على طريقنا بدونه . وتجمع حولنا الأطفال من أولاد وبنات ، وكانت أعمارهم تقل عن الخامسة عشرة .. الأولاد عراة تماماً .. ظلوا يتفرجحون علينا ، وأتفرج أنا بدورى عليهم ، إلى أن وصل الدليل ، إنه شديد السواد ، ويرتدى لباساً قصيراً مثل مايوه البحر ، عارى الصدر ، يمسك بحربة طويلة ، قفز داخل السيارة ، وراحوا يتبادلون معه الحديث ، الذى لم أفهم منه كثيراً .

بعد وقت قليل بدأ الدليل (كسميرو) يعطى تعليماته . وطلب منى أن أترك الطريق العام وأتجه يمينا إلى طريق فرعى ، وما إن دخلته حتى بدأوا يجهزون البنادق ، ومعنى ذلك أننا أصبحنا على مشارف الغابة ، ولم أكن قد ابتعدت عن الطريق العام أكثر من ألف متر، حتى بدأت تظهر قطعان الغزلان على اليمين واليسار بالعشرات والمئات ، تجري مسافة خمسين متراً وتتوقف وتنظر إلينا وتجري من جديد ، ووجدت نفسى مشدوداً إلى هذا المنظر الذى أراه لأول مرة ، وبدأت الصيحات تتعالى من السيارة : « هذا الغزال صغير اتركه » ، « ذاك أكبر إنه ذكر لاتدعه يفلت » ، زال عنى الخوف ، ووجدت نفسى متحمساً وأحثهم على الضرب وكانوا يضحكون منى لأننى بدوت متلهفاً وكأننى سأملأ السيارة من هذه الغزلان ، فقد اكتفوا بصيد غزال واحد ، وتوقفوا للراحة ، لتناول الإفطار ، فقد تركنا جوبا

في السادسة صباحاً ووصلنا موقعنا هذا في الحادية عشرة، أى أننا قطعنا خمسين كيلو متراً في أربع ساعات.

٦

قطعوا الغزال ووضعوه على النار الى جانب ما أحضرناه من أطعمة أخرى، وبدأوا الأكل، في حين كنت متشوقاً لاصطياد أكبر عدد، لكنهم بعد أن ملأوا بطونهم. صرفوا النظر عن صيد الغزال، وفكروا في صيد أكبر، مما أثار دهشتي، فهل هناك أكبر من الغزال؟ إنى أكتشف عالم الغابة لأول مرة، فإذا بقطعان من الزراف تجري أمامنا، تتبعها قطعان من النعام تسير بسرعة فائقة، كان المنظر رائعاً إلى حد أننى نسيت كل مشاق الطريق ومخاوفه، ولم أصدق أننى في غابة، فلقد كانت الطبيعة غاية في الجمال، وتساءلت أين الأسود والنمور والفهود والثعابين وآل فيلة؟ .. وازددت اطمئناناً عندما قالوا: إن هذه الحيوانات من الصعب أن تراها هنا، لأنها تتواجد في أماكن بعيدة، وهذه الأماكن التى نحن فيها قريبة من المدينة، والفيلة لاتعيش في المناطق المنبسطة، وإنما في المناطق الوعرة الجبلية والصخرية، التي لاتسير فيها سيارات، وأحياناً قد نشاهد قليلاً منها يعبر هذه المناطق إلى مناطق أخرى، ونحن نسير الآن على طريق هو أصلاً كان طريقاً للسيارات، ولكن الأمطار صنعت منه حفراً، ولم يعد صالحاً لها، وعليك أن تأخذ حذرك، فقد تكون هناك حفر عميقة، مغطاة بالأعشاب العالية الطول.

كانوا يشرحون لى معالم الغابة والمنطقة التي نسير فيها، وأنا أقود السيارة بحذر، ثم رأينا قطيعاً كبيراً من (التيتل) وهو حيوان في حجم البقر، ومن فصيلة الغزال، ويميل لون جلده الى اللون البني، يشبه الزراف، رجلاه الأماميتان أعلى من الخلفيتين، وله قرنان ملفوفان مثل قرني الماعز، وتكاثرت أعداده، فازداد المهرج في السيارة عند رؤيته، كانوا مُصِرِّين على اللحاق به واصطياد واحد منه، لأن لحمه ألذ من لحم الغزال، ثم اختلط عليهم الأمر، عندما مرّ قطع من الجاموس الوحشى، لأنه أكبر من الأول، واستقر الرأي على أن نصطاد واحداً من هذا الجاموس الكبير، الذي يزن الواحد منه حوالى نصف طن، فأصابوه، ولكن كيف عرفوا أنه أصيب؟

قالوا: إن حيوان الغابة إذا أصيب انفصل عن القطيع، أي عن مجموعته، وهذا الذي نراه قد انفصل، بمعنى أنه أصيب. وهذه حكمة الله في خلقه فرما أنه ينفصل حتى لا يعرض غيره في القطيع إلى الإصابة، وبعد ساعة كان قد فقد الحركة تماماً، وحمدنا الله على ذلك، فهو من أخطر حيوانات الغابة، لأنه إذا أصيب ولم تكن الإصابة قاتلة، يتحول إلى حيوان شرس، ويطارد من أصابه إلى أن يقتله، فإذا أصاب أحد من أهل الغابة المشاة جاموساً من هذا النوع بحربة، يظل يطارد به إلى أن يجبره على تسلق أقرب شجرة تقابله، ولكن الجاموس يبقى تحتها يعيش ويرعى منتظراً الرجل إلى أن ينزل من الشجرة مها طال الوقت، فإذا تمكن منه؛ فإنه يتلقاه بقرنيه ويرفعه إلى أعلى، ليضربه من جديد كالكرة المرتدة، ويظل يفعل في ضحيته.. إلى أن يهشم عظامه تماماً، ويسحقه على الأرض برأسه ذى القرنين الكبيرين حتى يذيه في التراب.

حمدنا الله على أن ذلك كله لم يحدث معنا، فلقد كانت وسيلتنا في الصيد هي البندقية وليست الحربة، واسترحنا بعد ذلك، وراح كسميرو (دليل الرحلة) يتعامل مع مانصيده من الحيوانات بمعرفة وبمشاركة الزملاء، حيث يقطع لحم الجاموس، الذي قدر وزنه بأكثر من نصف طن، في نحو ساعة، ووضعوا لحمه في السيارة، وتركوا على الأرض رأسه وهيكله، وراح البعض يشوي من لحم الغزال لإعداد وجبة غذائية شهية، كانت الغابة من حولنا خضراء جميلة، والأرض منبسطة، والأشجار متباعدة، وما إن ابتعدنا عن بقايا الجاموس، حتى حطت عليه النسور لتلتهمه.

بدأنا طريق العودة، وعلينا أن نصل إلى جوبا قبل مغيب الشمس.

في الطريق رأينا قطعاناً كثيرة من الجاموس، وكنت حريصاً على أن نكتفي بما اصطدنا. وعلمت من الإخوان أن حيوان الغابة، عندما يُطارَد يدخل منطقة وعرة تسمى (الدقاق)، وهي منطقة مليئة بالحفر الصغيرة المتجاورة، لا تستطيع السيارة أن تسير فيها أكثر من خمسة كيلومترات في الساعة، ليحمي نفسه من المطارد، وكأن الله قد أطلعه على سرّه.. ثم رأينا نوعاً آخر من الحيوانات، لم أره

من قبل ، وعرفت أنه خنزير الغابة ويسمى (الحَلُوف) ، أطلق زميل رصاصة نحوه فأصيب ، وحاول أن يهجم على السيارة بقرنيه ، وهو مصاب في ظهره ورجله ، ومن صفاته أنه إذا تعرض لإصابة فإنه يؤذي ولكن ليس كالجاموس لصغر حجمه .

كان الوقت يزحف نحو المغيب .

لذا كان لابد من تنفيذ تعليمات كسميرو، الذى كان يوجهنى يمينا أو يساراً، جتى عدنا إلى الطريق العام، فشعرت بالاطمئنان، فيما كان الزملاء مسرورين بما غنمناه من صيد، ويتحدثون، إلى أن وصلنا المنطقة التى يسكن فيها الدليل كسميرو، وكانت الساعة الرابعة والنصف، ولم يبق سوى ساعة ونصف على مغيب الشمس— ففى الإقليم الاستوائى النهار والليل متساويان طوال العام، وقد يقل الوقت أو يزيد ربع ساعة فى موسم الأمطار— نزل كسميرو، وأخذ معه مايكفيه وأسرته من كل أنواع اللحم والخنزير بأكمله، ثم واصلنا الطريق، حيث وصلنا جوبا مع عتمة الليل بعد الغروب بقليل .



افصل لثالث

في ربوع السودان ويوغندا وكينيا

بدأ الملل يتسرب إلى نفسي، فحتى الآن لا يوجد عمل حقيقي، وقد مضى على وجودي شهر كامل، وحتى خطابات الأهل لم تصلني من الكويت، فأصبح الأمر لا يعدو أن يكون مجرد سياحة في غابات الجنوب السوداني، والتسلية مع من تعرفت عليهم، نلعب الورق (الكوتشينة)، وأحاول أن أخفف عن محمد الذي بدأ الضيق ينتابه ويشكو مثلي من قلة المراسلة، ثم بدأ الخوف يتسلل إلي أيضاً من مرض الملاريا، فقد سألت ذات يوم عن أحد الأصدقاء الذي اعتدنا أن نلتقي به، فقليل لى إنه مريض بالملاريا، ويلازم فراشه في البيت، اهتزّ بدني فكل معلوماتي عنها أنها مرض معد وخطير.. وأشفقت على الرجل، وأدركت أن نهايته قربت لا محالة، ولا شك أن الكل قد انقطع عن زيارته حتى لا يصابوا بالعدوى، لكنني فوجئت ببعضهم يقول:—

لقد كنا في زيارته، وقد أتينا من عنده الآن، وهو في تحسن، فازداد فرحاً، فلا شك أن هؤلاء سيصابون بالملاريا، فنهضت واقفاً، وأردت الانصراف معتذراً بأنني متعب بعض الشيء، وخرجت في خوف من أن تلحقني هذه العدوى، وحاول محمد أن يهديء من روعي، بقوله:—

إنه مرض عادي، وكل الناس هنا أصيبت به، وأن الملاريا ليست مرضاً خطيراً إلى الحد الذي أنا أتصوره، لكن فكرة الخوف تملكنتني، وانقطعت عن الجلوس مع هؤلاء الذين يزورون مريضاً بهذا الداء، وأحضرت كمية من مبيد البعوض والحشرات، ورحت أرش بها المنزل في كل مكان، في الصباح والمساء، حتى أصبحت رائحته هي السائدة، واعتبرت ذلك نوعاً من الوقاية، فكسرت حاجز العزلة الذي قرّضته على نفسي، وعدت إلى مجالسة الأصدقاء، وأقنعوني بأن

الملاريا هنا مثل الأنفلونزا، يوماً بعد يوم ألفت هؤلاء الذين يصابون بها، فأصبحت أزورهم في منازلهم وأجلس معهم، ولم أعد أخشى ذلك..

في تلك الفترة كنت أقضى معظم الوقت في محاولة التعرف على المسؤولين، وكانت الوزارة الاقليمية تضم تسعة عشر وزيراً، قابلت منهم حتى الآن ستة والمحافظ، وبقى أمامي ثلاثة عشر وزيراً ورئيس المجلس التنفيذي (حاكم الإقليم) السيد أبيل أيلر، فذهبت إلى مكتبه، وكان عليّ أن أقابل صغار المسؤولين قبل الوصول إليه، وظللت ثلاثة أيام في محاولة أن أتمكن من مقابلة الأمين العام، الذي أبدى له رغبتى في مقابلة رئيس المجلس، فأبلغنى أن السيد/أبيل سوف يسافر إلى الخرطوم، ولا مجال لمقابلته.

إزاء ذلك وجدت الفرصة متاحة لأقوم بزيارات في مديريات الجنوب الأخرى، فالجنوب ليس هوجوباً فقط، فهو يتكون من ثلاث مديريات، هي الاستوائية وكانت مقر الحكومة الاقليمية قبل التقسيم وعاصمتها جوبا، وهناك مديرتان أخريان هما:—

— بحر الغزال وعاصمتها واو.

— أعالي النيل وعاصمتها ملّكال.

كانت خطة الهيئة الكويتية للجنوب السودانى، هي إنشاء مدرستين ومركز صحى فى كلّ من هذه المدن الثلاث، وبالتالي كان عليّ أن أزور هذه الأماكن وأتعرّف على المسؤولين فيها، طالما أن رئيس الحكومة هنا سيكون مشغولاً فى زيارته للخرطوم.

أرسلت برقيةً إلى محافظ بحر الغزال أبلغه بموعد وصولى إلى واو، وأخذت معى المقاول، وركبنا الطائرة (الفوكرز)، ذات المحركين، وهي تستخدم عادة بين مدن الأقاليم الجنوبية ومطار العاصمة القومية الخرطوم، وعندما وصلنا مدينة واو، لم أجد أحداً فى استقبالى، فتوجهت مع المقاول إلى استراحة صغيرة، تضم أربع غرف، وتؤجر كفندق أو بنسيون، ثم ذهبنا فى اليوم التالى إلى مساعد المحافظ لشئون التعليم، وشرحت له مهمتى ومهمة مكتب دولة الكويت فى جوبا، فرحب بى،

ورافقنى إلى حيث الأرض المخصصة، لأنه كان على علم مسبق بأن الكويت
ستبنى مدرستين ومركزاً صحياً في واو.

وفي المساء، وبينما كنت ومحجوب جالسين في الاستراحة نتحدث، سمعنا
صوت موسيقى عالياً فذهبنا، وما إن اقتربنا حتى رأينا الميدان الذى أمامنا، قد
غص بالناس وكلهم يرقصون على أنغام موسيقى الجاز الأفريقية، وقد تصاعد
الغبار من تحت أقدامهم كدخان البخور، فالكل مبتهج ويرقص بطريقته.

عدنا إلى الاستراحة وكان علينا أن نتناول السحور فقد كنا في شهر رمضان،
وقد أعدنا ما يلزمنا من طعام للفطور والسحور، من معلبات وبعض الخضروات
والخبز، إلى جانب أكل شعبى يعد في الاستراحة اسمه الفول والعصيدة والكسرة
(رغيف يصنع من الذرة). ذلك أنه لا يوجد في هذه الاستراحة أو الفندق الصغير،
نظام لتقديم إفطار أو سحور، فالصائمون قليلون وسكان الجنوب ليسوا مسلمين فقط،
فهناك المسيحي والوثني، ولذلك لا يلمس المرء جو رمضان، فحلات الأطعمة
والأسواق والذكاكين مفتوحة طوال اليوم، كسائر الأيام العادية.

غادرت واو في الصباح، وتوجهنا إلى ملكال بالطائرة، حيث وصلناها في
الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وكما حدث لنا في واو، حدث لنا أيضاً في
ملكال، فلم أجد أحداً في استقبالي، فذهبنا إلى الفندق، وهو أيضاً عبارة عن
استراحة صغيرة، بها ست غرف في منطقة خارج المدينة. رأيت ملكال لا تختلف
كثيراً عن واو؛ المباني فيها أقل، والأكواخ أكثر، وأراضيها طينية تميل إلى
السواد، رغم عدم وجود أمطار في هذا الوقت، وأكثر الناس يمشون حفاة، أسواقها
أقل حركة من أسواق جوبا. وعندما خرجنا مساءً نتجول في المدينة، رأيت ساحة
مساحتها لا تزيد على مائة متر مربع، بها «لمبات» مضاءة متباعدة، كانت تبدو
كما لو كانت سوقاً خبيرياً بمناسبة شهر رمضان، فيها أناس يعرضون مشغولاتهم
اليدوية من القماش على طاولات خشبية، وأشياء صغيرة بأثمان رخيصة،
وملكال هذه ميناء على التل يتصل بميناء كوستى الموصل بين شمال السودان
وجنوبه، حيث يستقبل البضائع القادمة من بورتسودان، ثم تنقل منه بواسطة

المعدييات والبواخر النيلية إلى ملكال، ومنها إلى جوبا وبقية مناطق الجنوب، وبها بعثة تعليمية مصرية، وأهلها يتحدثون العربية بأفصح مما يتحدث بها أهل جوبا، ولكن المسئولين في المدن الثلاث؛ واو وملكال وجوبا، يحرصون على التحدث باللغة الانجليزية، وقد يكون السبب في ذلك، أن البعض ممن هاجر خلال الحرب الأهلية إلى المدن والدول الأفريقية المجاورة، اكتسب عادة الحديث باللغة الانجليزية أو اللغة السواحلية، بينما المتحدثون بالعربية هم الذين لم يتركوا مساكنهم ومناطقهم خلال سنوات الحرب الأهلية، بالإضافة إلى أن التعليم في الجنوب يُدرّس باللغة الانجليزية كلغة أولى، إلا القليل من المدارس التي تُدرّس اللغة العربية إلى جانب تلك اللغة.

في صباح اليوم التالي حضر إلى الفندق رجل يرتدى ملابس موظفي الجمارك، قدم نفسه بأنه مساعد المحافظ، جاء ليرحب بي بعد أن وصلتهم برقيتي، ويتعرف على طبيعة العمل الذي جئت من أجله، وشرحت له مهمتي.

فطلب مني أن أكتب لهم بالتفصيل عن المشروعات، عن طريق مكتب محافظ جوبا.

أمضيت بقية شهر رمضان في جوبا، وكان هذا أول رمضان أقضيه بعيداً عن الوطن، فلم أتمكن من مواصلة الزيارات لبقية المسئولين خلال هذا الشهر بسبب حرارة الطقس.

في هذا الشهر الكريم تعرفت على أنواع الأطعمة السودانية، فبجانب العصيدة وملاح الويكه، عرفت أن العصيدة أنواع؛ منها عصيدة الدخن وعصيدة التلبون والدرة ودقيق الفينا. وهناك طبق من الأرز لا يختلف كثيراً عما يقدم في الكويت، أما الشراب فهو متعدد، فالسودانيون يهتمون بالعصير في هذا الشهر، ويشربون منه بكثرة، فهناك عصير يصنع في البيوت ويجهز قبل رمضان ويسمى «الحلومر»، وهو عصير يصنع من الدرة، وطعمه ليس حلواً، فيضاف له السكر، وهناك عصير التمر هندي ويسمى العرديب، وبالإضافة إلى عصير الليمون الطازج، توجد أنواع أخرى من العصير المُصنَّع ومعبأ في أوانٍ زجاجية أو

بلاستيكية ، وتقدم في الإفطار أنواع من الحلوى ، لا تختلف كثيراً عن تلك الموجودة في البلاد العربية من نوع الحلويات الشرقية . وقد أسعدنى خلال هذا الشهر أن تلقيت لأول مرة رسالة من الأهل ، فاطمأنت عليهم .

وجاء يوم العيد ..

فتوجهت في السادسة صباحاً مع شروق الشمس — كما هي العادة في الكويت — لصلاة العيد في ساحة تسمى (ميدان المولد) ، مخصصة لإقامة الشعائر الدينية كالمولد النبوى الشريف والأعياد والمناسبات الدينية الأخرى ، ذهبت إليها ، ولكننى لم أجد أحداً ، فتوجهت إلى المسجد لظننى أن الصلاة قد تكون به ، فوجدته خالياً ، ورأيت رجلاً يسير في الشارع ، فسألته عن مكان إقامة الصلاة فقال : — هنا في هذه الساحة . قلت له : — وأين الناس والشمس قد أشرقت وارتفعت ؟

فرد : —

— ليس بعد ، فالصلاة في الساعة السابعة والنصف ..

وكما قال الرجل ، بدأ الناس يتوافدون في نحو الساعة السابعة ، حيث جاء المؤذن وفرش بعض الحصيران^(١) على الأرض ، فجلست ، وسرعان ما توافد المصلون من كل مكان ، وكان بعضهم يحمل سجادته ، وأقيمت الصلاة تحت وهج الشمس ، وانتهت في نحو الثامنة ، وراح الناس يتبادلون التهاني .. الفقراء والمساكين كانوا قد تجمعوا وتكاثروا ، ليتلقوا القروش (العيديات)^(٢) من المصلين .

انصرفنا ، ولكننى تساءلت لماذا يصلى الناس صلاة العيد في وقت متأخر كهذا ؟ فعرفت أن المصلين يأتون من أماكن بعيدة ، سيراً على الأقدام ، لعدم وجود مواصلات ، وإتاحة الفرصة لأكثر عدد من المسلمين للمشاركة في الصلاة ، بعدها قمت بزيارة الأحياء لتقديم تهانى العيد إلى من أعرفه ، وفي كل بيت وجدت ديواناً أو مجلساً — كذلك التى فى الكويت — يتبادلون فيه التهاني ، ثم ذهبت إلى المنزل

(١) الحصيران جمع حصير يصنع من سعف النخيل أو الدوم أو الدليب .

(٢) العيديات عادة ما يقدمه الكبار للصغار من مال ابتهاجاً بفرحة العيد .

لأتلقى بدورى التهنة. وهكذا أمضيت اليوم الأول فى تبادل التهانى والزيارات، وهى عادة أصيلة، وكما هى فى كل بلد مسلم، وجدت أيضاً فى جنوب السودان، فى ثانى أيام العيد، عادة يتقبل الحاكم التهنة فى أعياد المسلمين والمسيحيين على السواء، فذهبت مع المهنيين كمواطن عادى، وقف الحاكم وبحواره معظم أعضاء حكومته، والناس تدخل فى صف طويل، يقدمون التهنة، دخلت وخرجت ولم أعرف أحداً، إلا بعض الوزراء الذين التقيت بهم، ولم يعيرونى اهتماماً، مجرد مواطن من هؤلاء الذين يقفون فى الصف الطويل، ولا أكثر من كلمة «كل سنة وأنتم طيبون» وانصرفت على الفور، أما الوجهاء من مسئولين وتجار وأناس معروفين، فإنهم بعد أن يقدموا التهنة، يجلسون مع أعضاء الحكومة ويُقدّم لهم العَصِير.

ومرت أيام العيد فى بهجة وسرور، كما يحدث فى أتي بلد عربى إسلامى، ولم تكد تنتهى أيام العيد، حتى بدأت أقواس الاحتفالات وأعلام الزينة ترتفع فى الشوارع واليادين وتنشط حركة الأسواق، الأمر الذى لفت نظرى إلى هذه المناسبة التى لا أعرفها، وخاصة أن أيام العيد قد انتهت، وعندما سألت، عرفت أنهم يستعدون لاحتفالات الكريسماس ورأس السنة الميلادية، ولم أكن قد اعتدت على ذلك فى الكويت، لأن الإحتفال هنا أخذ طابعاً رسمياً على مستوى الحكومة الإقليمية، ودبت فى المدينة حركة غير عادية، وكان من الواضح أنهم سيظلون فى هذه الاحتفالات لعدة أيام حتى العام الجديد، فوجدتها فرصة أن أسافر إلى الكويت، لأبحث مع المسئولين فى الهيئة وضع المكتب.



أقام لى السيد جوزيف لاقوليلة مغادرتى حفل عشاء، دعا إليه عدداً من كبار الضباط فى القيادة الجنوبية، وقد تركت هذه الدعوة أثراً كبيراً فى نفسى، لأنها كانت أول دعوة رسمية ألقاها من أحد المسئولين. وكانت لفتة طيبة منه، عندما أصر على وداعى بمطار جوبنا ومعه بعض الأصدقاء. وتوجهت إلى الخرطوم، ثم القاهرة، وفيها اتصلت بالكويت، وكان هذا أول اتصال بينى وبين أهل

هاتفياً، منذ أن غادرتهم في شهر سبتمبر، فكان ذلك مصدر سعادة للأسرة التي أبلغتها بموعد وصولي، وفي المساء لم أغادر الفندق حيث بدأت أعد تقريراً عن سير العمل في المكتب كما رأيته على الطبيعة.

وصلت الكويت، وفرحت بلقاء الأسرة والأبناء، وقضيت كل اليوم معهم، وفي اليوم التالي رفعت تقريرى إلى الهيئة، وكان يتضمن ثلاث نقاط رئيسية حول رأى فى مستقبل العمل بمكتب جوبا، وهي على النحو التالى: -

(١) على الهيئة إذا أرادت أن يستمر عمل المكتب فى جوبا أن تغير من لوائحها الداخلية، وتصرف للمقاول جزءاً من مستحقاته بالعملة الصعبة، ليتمكن من استيراد مواد من شرق أفريقيا، وبالتحديد من كينيا، هذه المواد هي الأسمنت والخشب والزئك. وما يحتاجه المقاول، كي يتمكن من تنفيذ العمل، لأن جوبا لا يوجد بها أي نوع من تلك المواد، ومن الصعب نقلها من الخرطوم عبر كوستى إلى جوبا بالمعديات التيلية، هذا إذا وجدت.

(٢) فى حالة عدم موافقة الهيئة على الاقتراح الأول، عليها أن تعطي المبلغ المخصص للمشاريع فى الجنوب إلى الحكومة الإقليمية وتغلق مكتبها، خير من أن يبقى المكتب بلا عمل.

(٣) إنه فى حالة عدم الأخذ بما جاء فى الإقتراحين الأول والثانى، أطلب اعفائى من تلك المهمة.

تركزت التقرير على مكتب العضو المنتدب، وبعد ثلاثة أيام أبلغنى الأستاذ السقاف، أن مجلس إدارة الهيئة قد وافق على الاقتراح الأول من تقريرى، وطلب أن أسحب مبلغاً من حساب المكتب فى جوبا، وأصحب المقاول معى، وأشتري المواد اللازمة، إلا أنى اقترحت أن تحول الهيئة مبلغاً من حسابها فى الكويت لأفتح به حساباً فى أحد البنوك فى نيروبي، ولاداعى لسحب عملة صعبة من جوبا، فالسودان أحق بتلك العملة. فأمر بتحرير شيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه استرلىنى.

كان عليّ أن أبدأ العمل ، فلم يكّد يمضي يومان بعد عودتي إلى جوبا ، حتى أعددت العدة للسفر بالسيارة إلى كمبالا (عاصمة يوغندا) في طريقى إلى نيروبي ، وأخذت معى المِقاول وأحد أقاربه يدعى عبدالكريم عكاشة ، كان علينا أن نقطع برّاً بالسيارة حتى كمبالا ، ثم نستقل قطاراً في اليوم التالى إلى نيروبي .

يبدأ الطريق من جوبا إلى كمبالا عبر نيمولي — تلك القرية التى تبعد حوالى مائتي (كم) وتقع على الحدود السودانية الأوغندية — وكنا نمر بتقاط شرطة للتفتيش ، فقطعنا الطريق فى أربع ساعات ، حتى وصلنا نيمولي فى الساعة العاشرة صباحاً ، فتناولنا افطارنا ، وانتهينا من الإجراءات الجمركية بها ، وقبل الخروج من الحدود السودانية ، استوقفتنا نقطة للجيش السودانى ، بحيث أعيد تفتيشنا تفتيشاً دقيقاً ، ثم واصلنا الرحلة ، وعبرنا جسراً طوله لايزيد على اثنى عشر متراً ، هو النقطة الفاصلة بين الحدود السودانية والأوغندية ، وهذا الجسر نصفه سودانى والآخر أوغندى .



دخلنا الأراضى الأوغندية ، وكان علينا أن نسير على اليسار على غرار النظام الانجليزى فى المرور ، وكنت أنا الذى أقد السيارة ، فوجدت معانة فى القيادة ، لأنى لم أعتد على قيادة السيارة يساراً ، وكان عبدالكريم ينبهنى بين وقت وآخر ، كلما اتجهت يمينا ، فقللت من سرعة السيارة تحسباً لأي خطأ . فى بداية الطريق كان من الصعب عليّ أن أميز بيت المواطنين الأوغنديين والسودانيين ، الذين تركناهم فى نيمولي ، فكلهم وإن كانوا من دولتين مختلفتين ، لكنهم ينتمون إلى قبيلتيّ المادي والآشولي اللّتين تعيشان فى البلدين على مناطق الحدود ، وكلهم ذوو بشرة شديدة السّواد ، وخاصة هؤلاء الذين يسكنون فى الجانب اليوغندى .

بعد ثلاثين كيلو متراً تقريباً وصلنا إلى أول معسكر للجيش الأوغندى . ومرة أخرى جرت عمليات التفتيش الدقيق ، فسهل لنا عبدالكريم هذه المهمة ، فهو يتحدث اللّغة السواحلية التى يتحدث بها الجنود .

واصلت السير، وبدأت أعتاد على قيادة السيارة يساراً، لأن الطريق داخل الأراضي الأوغندية حتى ولو لم يكن مسفلتاً فهو مُسَوَّى تماماً، مما يساعد السائق أن يسير بأي سرعة يريد، لذلك قطعنا نحو ستين كيلو متراً بسهولة، ووصلنا أتيالك، وهي أول قرية داخل الأراضي الأوغندية، وفيها يقع مركزا الجوازات والجمارك. وقبل وصولنا إليها بقليل كان هناك حاجز يسد الطريق، والحاجز عبارة عن عود من البامبو، مستطيل، ومسد على قائمين من جذوع الشجر، نهني إليه عبدالكريم وطلب مني أن أتوقف عنده، وسألته عن السبب، أجاب— وهو يعلم—: سوف ترى. عندما توقفت، أتى إلينا مواطن يوغندي، ملابسه كاكية قديمة، وفي يده عصا طويلة، في آخرها سلة من القماش تشبه تلك التي تستخدم في ملاعب كرة السلة، ومدها داخل السيارة، وسألته عن معنى ذلك، فقال: إنه يفتش خشية أن تكون بها ذبابة (التي تسي) التي تسبب مرض التوم، وأنه إذا وُجدت في سيارة ما لايسمح لها بدخول يوغندا، أفرعني ذلك، فجرد أن أواجه إجراء على هذا النحو، ينه إلى احتمال وجود هذه الذبابة، أمر لم أتوقعه، حمدنا الله أنه لم يجدها، فواصلنا السير، حيث توقفنا في أتيالك مركز الجوازات والجمارك، وانتهينا من سلسلة الإجراءات بفضل عكاشة، وبعد أتيالك بمسافة قصيرة، وصلنا أول المدن الأوغندية الصغيرة وتسمى (جولو)؛ بيوتها تشبه البيوت العربية، مدهونة باللون الأبيض، لا تخلو من جمال، وكان الطقس أبرد مما هو في جوبا، توقفنا فيها، فإذا هي تعج بحركتها التجارية، تناولنا غداءنا، وزودنا السيارة بالوقود بعد أن أجرينا فحصاً عليها في أحد (الجراجات).

الطريق إلى كمبالا مرصوف وعريض، وكلما تقترب من كمبالا نرى أمامنا مظاهر الحياة المتقدمة، شكل المباني وتنظيم السير، واستخدام إشارات المرور الضوئية، والأرض خضراء منبسطة، زرعت بأنواع مختلفة من الحبوب، مثل الفول والذرة والموز وغير ذلك، وتبدو حالة السكان الصحية جيدة. قطعنا ثلاثمائة وأربعين كيلو متراً من جولو حتى كمبالا، تفصل بينها مدن صغيرة جميلة، ودوريات المرور تجوب الطرق، فهي تشدد العقوبة على من يرتكب مخالفة، لذلك

كنت أخفف من السرعة كلما اقتربنا من كمبالا ، عبر ضواحيها الصغيرة ،
ووصلناها في الساعة الخامسة والنصف مساء .

في كمبالا أقنا بأكبر فنادقها وهو (انترناشونال هوتيل) ؛ فندق كبير وجميل ،
ويتكون من ستة عشر طابقاً ، استرحنا بعض الوقت من عناء الطريق وألقى كلُّ
منا بنفسه في حمامات الغرف ليزيل عن جسده ماعلق به من تراب ، ثم ذهب
عبدالكريم إلى أصدقائه السودانيين المقيمين هناك ، وبقيت أنا ومحبوب بالفندق ،
وقد استعدتُ نشاطي بعد الحُمَام الساخن ، فهبطت مع محبوب حيث تجولنا
بصالات الفندق .. كلَّ شيء به كان جميلاً ، يبعث على الإرتياح ، خاصة أن
الطقس كان معتدلاً ، ويميل إلى البرودة .. ومظاهر الطبيعة حول الفندق تزيد
جمالاً .

عاد عبدالكريم وقد أنهى حجز المقاعد في القطار لنا جميعاً مساء الغد إلى
نيروبي .. فطلبنا العشاء في نحو الساعة التاسعة مساء ، وحمدنا الله أن وجدنا قطعة
من لحم البقر وشوربة ورغيفا ، لأنه في مثل هذه الساعة يكون المطعم قد أوشك أن
ينهي عمله .

غرف الفندق جميلة ، وليس بها أجهزة تكييف أو مراوح ، فالجو لا يحتاج إلى
ذلك لأنه معتدل ، ولا يتغير طوال العام ، فقد يبرد قليلاً بالليل ولكنه معتدل ، وقد
يرتدي المرء بدلة كاملة فلا يشعر بالحر ، أو يرتدي قيصاً ، فلا يشعر بالبرد ، وهو
منعش وضحي ، ويظل طوال العام غائماً ، يتخلله رذاذ خفيف من المطر يزيد في
مواسمه .

استيقظنا مبكرين ، وتناولنا إفطارنا وركبنا سيارتنا ورحنا نطوف في شوارع
المدينة الجميلة المتميزة بجمال الطبيعة ، بطقسها وأشجارها الخلابية ، ورذاذ المطر
المنعش الذي يتساقط خفيفاً في ساعات الضحى ، ثم تجولنا على أقدامنا في أسواق
المدينة ، والتقينا ببعض السودانيين المقيمين هناك من أصدقاء عبدالكريم ومحبوب ،
وأمضينا معهم بعض الوقت ، ثم تركنا السيارة عند واحد منهم وتوجهنا إلى محطة
القطار لنبداً رحلة السفر إلى نيروبي .

كانت مقاعدنا بالقطار بالدرجة الأولى ، مطعمه جميل ؛ فيه ثمانى طاولات ، تتسع لسته عشر شخصاً يأتون إلى المطعم كلما دقّ الجرس ، حيث تنصرف مجموعة وتأتى أخرى ، إلى أن يتناول كل الركاب طعامهم .

وصلنا إلى نيروبي في الساعة السادسة صباحاً . كان الجو أبرد مما كان عليه فى كمبالا ، فهي أكثر ارتفاعاً ومناظرها خلابة ويغلب عليها الطابع الحديث ، منازلها ذات طوابق متعددة ومنخفضة . لفت نظرى حركة الناس السائرين بنشاط ، وكثرة استخدام الدراجات الهوائية ، ومعظم السيارات يقودها آسيويون وأوروبيون .

استأجرنا تاكسياً ، سار بنا فى شوارع المدينة حتى وصل شارعاً اسمه البيع والشراء ، واسمه أيضاً بالسواحيلى (بيع شراء) ، وفى هذا الشارع نزلنا فى فندق صغير من فنادق الدرجة الرابعة اسمه (فرانسيه هوتيل) ، صاحبه هندی يدعى (شاه) ، قد اعتاد عبدالكريم الإقامة فيه كلما زار نيروبي ، وبالفندق موظف واحد واثنان من العمال ، اللذان يقومان بتنظيف الغرف وترتيبها ، تناولنا الإفطار فى مقهى يقع أسفل الفندق ، شربنا كوباً من الشاي ، وتوجهنا إلى السفارة الكويتية .

كان علينا أن نقوم بمهمتنا لإيداع مبلغ الشيك الذى أحله فى أحد البنوك ، حتى يتمكن الماويل من شراء المعدات التى نلزمه .

لم يكن مقر السفارة بعيداً عن الفندق ، فسرنا على الأقدام فى الشوارع المؤدية إلى السفارة .. المحلات بدأت تفتح ، وكل أصحابها من الآسيويين الذين يحمنون الجنسية الكينية ، فقد جاء آباؤهم وأجدادهم مع البريطانيين الذين قدموا إلى كينيا فى أواخر القرن التاسع عشر ، واستوطنوا هذه المناطق التى تلائمهم ، لأنها أبرد مناطق القارة الأفريقية ، وهذه المحلات تخصص فى بيع صنف واحد ، وهي نظيفة ومنسقة وتشجع على الشراء .

وصلنا إلى مقر السفارة ، وقد استمتعنا بالسير فى الشوارع الجميلة المؤدية إليها .

استقبلتنا السكرتيرة التي تتحدث العربية، تدعى كلثوم، وهي من اليمن الجنوبي وتعمل منذ فترة طويلة بالسفارة، حيث تعيش مع زوجها وأولادها في كينيا، ومعها في المكتب سكرتيرة أخرى، بعدها وصل القائم بالأعمال.

تعرفت عليه وعرفت أن اسمه جاسم الصباغ، رجب بى كثيراً، وأبلغته أنني قادم من جوبا في مهمة تتعلق بمكتب الكويت، وأعدّ كتاباً إلى البنك الذي تتعامل معه السفارة لأفتح حساباً به وهو ليس بعيداً عنها، فتحت الحساب. وعلى الفور توجهنا إلى المنطقة الصناعية على بعد عشرة كيلومترات من وسط المدينة، وأتاح لنا ذلك أن نشاهد شوارعها التي أعجبت بها، كما أعجبت بحركة المرور، حيث السيارات تسير بنظام، ولا تتجاوز الخطوط الأرضية المرسومة ولا أحد يستخدم المنبّه (البوري).

اشترينا ما احتاجه المقاول من زك وخشب، ولم نجد الأسمنت، لأنه لا يتوفر إلا في ممباسا، تلك المدينة الكينية الجميلة التي تقع على المحيط الهندي، وتعتبر من أهم الموانئ الأفريقية، وكان لابد من السفر إلى هناك لشرائه، فأعدنا أنفسنا لنغادر نيروبي في اليوم التالي إلى ممباسا.

في الصباح ركبنا سيارة من تلك السيارات التي تؤجر من محطة خاصة لنقل الركاب بين نيروبي وممباسا، وكان معنا ثلاثة آخرون من الكينيين، وانطلقت بنا وسط جو غائم ورذاذ مطر خفيف يتساقط من خلف النافذة، التي نلمح منها كثرة السيارات على الطريق، عرفنا أن أمامنا خمسمائة وثمانين كيلومتراً، في الطريق كنا نشاهد بعض المباني والمصانع، وبعد نحو ساعتين ظهر أمامنا جبل مرتفع ارتفاعاً شاهقاً، وعرفت أنه جبل كلمنجارو الشهير، الذي يقع في تنزانيا على الحدود مع كينيا، يبدو آية في الجمال، ويبتعد عن الطريق بنحو عشرة كيلو مترات، لكنه يبدو كما لو كان على بعد ألفي متر لضخامة حجمه.

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً.. الطريق جميل وعريض ومعبّد. ومحطات البنزين تنتشر على جانبيه، والحركة نشطة، وخاصة في محلات الأطعمة، التي تقدم الطعام للمسافرين، اقتربنا من مدينة ممباسا التي ظهرت أمامنا من

بعيد، وبدأنا نشعر بحرارة الجو، التي تشبه إلى حد بعيد الحرارة في المناطق الحارة .
على الطريق المؤدى إلى المدينة أشجار جوز الهند، وتنتشر بكثرة إلى حد أنها تظلل
الطريق، ومن بين أغصانها تتدلى ثمارها ذات اللون الأخضر.. ولذلك انتشر
باعثها في الطريق على عربات خشبية تجرها الحمير (الكارو)، فتذكرت أكلنا
لهذه الثمار جافةً ونحن صغار في الكويت، ورحت أتأمل المدينة التي تبدو جميلة
وهادئة، ولاحظت أن بعض النسوة يرتدين العباءة، مثل التي ترتديها المرأة
الكويتية، وبعضهم مخفيات وجوههن خلف قماش أسود، كالكويتيات والنسوة في
دول الخليج، إنهن من أصل عربي نزحن مع أزواجهن من اليمن الشمالي
والجنوبي وأقاموا في ممبasa واستوطنوها، وهم يُعرفون بالعرب رغم أنهم لا يتكلمون
العربية، والرجال يرتدون لباس أهل اليمن، وهو القميص والإزار والطاقي، وهم
يحتفظون بهذا الزي نظراً لحرارة الجو في ممبasa، التي تشبه حرارة الجو في موطنهم
الأصلي، ومع هؤلاء العرب يوجد الآسيويون الذين يعملون بالتجارة، وفي هذه
المدينة تجد المساجد بمآذنها الإسلامية المرتفعة، والمباني السكنية من دور أو
دورين، ومن النادر أن ترى تلك المباني التي ترتفع إلى أربعة أدوار، وينتشر في
شوارعها باعة جوز الهند، الواحدة منها ماؤها يملأ كأسين .

توقفت السيارة في المكان المخصص لسيارات الأجرة في وسط المدينة،
فاستأجرنا سيارة تاكسي أخرى، وكان سائقها من أصل يمني اسمه محمد، يرتدى
القميص والإزار والطاقي، ويتكلم العربية ولكنه لا ينطقها جيداً، وعندما يصعب
عليه نطق كلمة يتكلمها بالسواحلية .

نزلنا في فندق صغير، وتناولنا غداءنا في أحد المطاعم القريبة . وقررنا أن
نستريح اليوم ونواصل العمل غداً.. فاتفقنا مع السائق أن يأتي في الصباح
الباكر . وأمضينا فترة المساء في مشاهدة المدينة، التي تكثُر فيها النوادي الليلية
حيث يرتادها البحارة من مختلف الجنسيات الذين ترسو سفنهم على شواطئ
المدينة:

في اليوم التالي ذهبنا إلى مصنع بمبوري للأسمنت الذي يبعد نحو أربعين كيلو
متراً. واتفقنا على شراء كمية من الأسمنت يتم شحنها بواسطة المصنع إلى جوبا،

ودفعنا شيكاً بالمبلغ ، وعدنا إلى المدينة حيث استكمل محبوب شراء ما يلزمه من أدوات البناء ، ثم قنا بجولة ، وذهبنا إلى الشاطئ لتناول الغداء في أحد الفنادق المطلة على المحيط ، شاطئ البحر رماله ناعمة كنعومة الدقيق (الطحين) ، ولونه أبيض كالملح ، تفرس فيه الأقدام ولا يعلق بها ، حتى إنك لتشعر كما لو كنت تضغط على قطعة من الإسفنج . يسكنه كثير من الأوربيين والآسيويين وبعض الأفارقة ، الذين يفضلون مماساً على نيروبي لحرارة جوها ، وخاصة الأوربيين الذين سلموا أنفسهم لأشعة الشمس الحارة على الشاطئ بأجساد شبه عارية .

عدنا إلى فندقنا الصغير ، نستعد لرحلة العودة إلى نيروبي . وفي الصباح ركبنا سيارة الأجرة ذات الركاب السبعة وعدنا إلى نيروبي .

إن نظام الحياة في كينيا يشبه إلى حد كبير النظام الإنجليزي ، حيث تفتح المحلات من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، تتخللها ساعة غداء من الواحدة إلى الثانية ، وفي هذا الوقت يتوجه معظم العاملين في طوابير أمام المحلات التي تباع الأطعمة الجاهزة ، للحصول على وجبات سريعة مثل السندوتشات والدجاج المشوي والسمك المقلي والشبس ، وهم يفضلون الشبس مع زجاجة مياه غازية ، ثم تغلق كافة المحلات بعد الخامسة باستثناء تلك المحلات التي تدفع ضرائب أكثر ، ومنها الذي يستمر حتى الثامنة أو العاشرة ليلاً ، ويحرص الكينيون على مظهرهم ، فهم يمتنون بنظافة ملابسهم ، حتى العمال منهم ، كما أنهم يهتمون جداً بتنظيف أحذيتهم وتلميعها ، لهذا ترى ماسحي الأحذية على امتداد أرصفة الشوارع .

في اليوم التالي ذهبنا لنصلي الجمعة في مسجد نيروبي الكبير في وسط السوق ، فوجدناه غاصاً بالمصلين ، ولا موضع فيه لقادمين جدد ، حتى إنني وجدت صعوبة لأجد مكاناً بينهم ، مما اضطرني أن أصلي في فناء المسجد مع من حضروا متأخرين ، وبعضهم انتظر خارج الجامع إلى أن قامت الصلاة . أنجزنا كل شيء وعلينا أن نعود إلى جوبا ، فأخذنا قطار المساء من نيروبي ووصلنا كمبالا في الصباح ، وأقنا بها يوماً واحداً ، وغادرناها في الصباح الباكر . ووصلنا إلى نيومولي — نقطة الحدود السودانية — في الساعة الثانية والنصف ظهراً ، وسط جو

ساخن وحار. وبعد أن انتهينا من الإجراءات الخاصة بالجوازات والجمارك ، قرنا أن نبيت الليلة ، لأن أماننا طريقا طويلا ، والطقس هنا أبرد منه في جوبا وأحر منه في يوغندا .

كانت الإستراحة من قسمين : — أحدهما مبنى من الأسمنت ، يضم أربع غرف ، والآخر على الطراز الأفريقى ، أي تلك الأكواخ (القساطى) المبنية من القش والأخشاب وأغصان الشجر وأمضينا ليلة جميلة ، لم يعكر صفونا خلالها إلا ذلك البعوض المنتشر بكثرة في الغرف . وفي الصباح الباكر كانت السحب الخفيفة تكسب المنطقة جمالا خلاباً ، وتلك المناظر الطبيعية المتمثلة في الجبال المنتشرة هنا وهناك حول النيل القادم من بحيرة فكتوريا في اوغندا . ومن بعيد رأيت قطعاً من الفيئة يسير على سفح جبل في منظر رائع ، بدا وكأنه صورة مجسدة للوحة فنان بارع ، هو الله الخالق ، ورحت أسير على قدمي تجاه النيل المندفع بقوة نحو الشمال ، وقد برزت رؤوس فرس البحر الضخمة (سيد قشطة) على سطح الماء .

قبل أن نواصل طريقنا إلى جوبا توجهنا إلى منطقة الشلالات ، التي تبعد عن نيمولي بنحو عشرة كيلو مترات . فركبنا السيارة ، وسرنا شمالاً على طريق منحدر . وشاهدنا الجداول المائية وهي تندفع من الجبل في اتجاه النيل ، وكان علينا أن نسير ببطء وحذر فالطريق صخري ووعر ، قطعنا العشرة كيلو مترات في نصف ساعة ، ثم أوقفنا السيارة ، ورحنا نمشي على أرض صخرية سوداء صلبة ، ووصلت إلى أسماعنا أصوات هدير المياه التي تعلو كلما اقتربنا ، ثم بان أمامنا الماء المندفع المتلاطم ، يرتفع زبده كبنائية عالية ، وبسرعة تصل إلى مائتى (كم) في الساعة ، وأصبحنا على بعد نحو خمسين متراً من الشلالات القادمة من بحيرة فكتوريا ، لتأخذ المياه طريقها إلى الشمال ، في رحلة طويلة عبر جوبا وملكال والخرطوم لتصل إلى مصر ، وتنتهى عند البحر الأبيض المتوسط . ووسط هذه المياه المندفعة ، رأيت صيادى السمك يصطادون سمك (العجل) ، ولم أتصور كيف يجازف هؤلاء للصيد في مكان كهذا ، ولما سألتهم ، قالوا : إنهم اعتادوا على ذلك ، فهذه حياتهم اليومية ومصدر عيشهم .

أثارت هذه المناظر في نفسى التأملات على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .. كيف لماء منحدر بهذه السرعة يندفع منذ أن خُلِقَ، ولم يتمدد النهر عرضاً، بل ظل في مجراه، ذلك لأن الله الذى خلق روافده على الجانبين، صب لها خرسانة من حجر أصم، يعجز هذا الماء المنحدر بقوة من اختراقها. سبحانك ربى خالق وحافظ ومسيطر على كل شيء .

عدنا إلى السيارة، وبدأت رحلة العودة إلى جوبا، في الطريق غير المرصوف، وعلى بعد حوالى أربعة كيلو مترات من نيمولي ظهر أمامنا جبل، لا يقل ارتفاعه عن ثلاثة آلاف قدم، وكان علينا أن نصعده وبه منحنيات حادة وخطرة، كانت سيارات اللوارى الشاحنة (التريله)، التى تحمل مواد البناء أو الوقود تصعد ذلك الجبل، فكنت في دهشة، كيف تتمكن هذه الشاحنات بوزنها الثقيل من الصعود، بينما وأنا في سيارة جيب صغيرة وليس معى سوى اثنين من البشر أشعر أننى في موقف صعب .

تجاوزنا المنحنيات الحادة، ووصلنا إلى قمة الجبل بعد أن قطعنا ثمانية كيلو مترات من بدايته، وأوقفت السيارة لنشاهد روعة الطبيعة من حولنا . فقد كانت نيمولي تبدو أسفل الجبل من هذا الارتفاع، والنيل في اندفاعه، والأرض منبسطة، والجبال من حولها، والغيوم تظلل الأرض من حولنا، المشهد كان خلاباً، وتمنيت لوأن أهلى وأسرتى وأصدقائى في الكويت، كانوا معى في تلك اللحظة، ليشاهدوا روعة الطبيعة وجمالها في تلك البقعة النائية من عالمنا العربى .

عدنا إلى السيارة، وواصلنا رحلة العودة الى جوبا، التى وصلناها في منتصف النهار.



افضل الرابع

الشيخ صباح السالم يزور جوبا

عندما كنت في الكويت ، أبلغني الشيخ علي صباح السالم نجل الأمير الراحل أنه سيحضر إلى جوبا في شهر فبراير (شباط) للصيد كالعادة ، فكان عليّ بعد عودتي من نيروبي وكمبالا ، أن أقابل رئيس المجلس التنفيذي العالي لأبلغه ولأشرح له مهمتي هنا ، واستغرقت محاولتي لمقابلة السيد أيل عدة أيام بين مكاتب الموظفين لتحديد الموعد ؛ فقد توجهت إلى أحد الموظفين ، وطلبت مقابلة الأمين العام للمجلس التنفيذي العالي فأحالني إلى موظف آخر أعلى منه درجة ، الذي أحالني بدوره إلى مدير مكتب السيد/ أيل ، والذي طلب مني أن أعود في اليوم التالي ، وعندما عدت كان عليّ أن أنتظر ساعتين حتى أقابل السيد (كليتو) الأمين العام للمجلس ، الذي شرحت له رغبتى في مقابلة السيد أيل ، وكسائر الموظفين أخبرنى أن السيد أيل مشغول ومن الصعب مقابلته اليوم ، وطلب مني أن أعود في اليوم التالي ، وتكرر هذا المشهد أكثر من سبعة أيام ؛ أذهب إليه ليطلب مني بعد انتظار ساعتين أو أكثر في مكتبه ، أن أعود في اليوم التالي ، وكنت قد تعودت على ذلك التأجيل وأنا أزور الوزراء للتعرف عليهم ، ولكن كلمة (بكره) هذه المرة تكررت أكثر من سابقاتها ، فألححت عليه في اليوم الثامن بضرورة تحديد موعد المقابلة . لأن طبيعة عملى في الجنوب تتطلب مقابلة كبار المسؤولين ، وعلى رأسهم رئيس المجلس التنفيذي العالي فقال لى : — خلاص .. تأتى غداً .. وسأبحث الأمر ، جئت في اليوم التاسع فأبلغنى أن السيد أيل طلب منه أن أقابل وزير الرئاسة ، فرافقنى إلى السيد لورنس لوال لوال وزير الرئاسة ، وبعد أن شرحت له مهمتى ورغبتى في مقابلة رئيس المجلس التنفيذي العالي ، اقترح أن يتولى هو إبلاغ ما أريد إلى الرئيس ، لأنه مشغول جداً ولديه لقاءات واجتماعات . عند ذلك فاض بى ، وقلت له : — إنني هنا ضيف ، وممثل لدولة

أخرى تقوم بإنجاز مشاريع في جنوب السودان، وتقتضى طبيعة عملي هذه، أن أتعرف على كافة المسؤولين، وعدم مقابلتي لرئيس المجلس تعنى أنكم لاترغبون في استمرار نشاط هذا المكتب، وترفضون الأعمال والمشروعات التي يقوم بها.

فكر قليلاً، ثم قال انتظر.. وخرج من مكتبه، وعاد ليقول إن رئيس المجلس لديه موعد الساعة الواحدة، والساعة الآن الواحدة إلا ربع، يمكنك مقابلته خلال ربع الساعة هذه، فشكرته وذهبت معه حيث قدمنى إلى السيد أبيل، الذي رأيته رجلاً عادياً متواضعاً، لكن مساعديه يحاولون أن يرسموا حوله هالة معينة تبعده عن الآخرين. وبادرنى بالتحية، وترك مقعده ليجلس إلى جانبي. شرحت له طبيعة عملي، وأنني هنا منذ أربعة أشهر، وحريص على أن أتعرف على كافة المسؤولين، لأن ذلك من شأنه أن يساعدني في إنجاز مهمتي. وأبلغته أنني ذهبت إلى الكويت وعدت منها منذ أيام، واستطعت أن أذلل الصعوبات بالنسبة لعمل المكتب، وإننا قمنا بفتح حساب في نيروبي لتوفير مواد البناء. ولاحظت أنه يستمع إليّ باهتمام، والسرور باد عليه، وانتهت الخمس عشرة دقيقة المخصصة للقاء، ولكن الحديث استمر ودخل الوزير لينبه بأز الوقت انتهى، ولكن السيد أيل لم يعر ذلك اهتماماً، وحتى عندما يرن جرس الهاتف في مكتبه لم يحاول أن يرد، بل أعطى وقته لي كاملاً. وعلمت مني أن الشيخ علي قادم للصيد كماذته، فأعطى تعليماته بأن توفر له كل التسهيلات مع رخص مجانية للصيد. واستمر اللقاء خمساً وأربعين دقيقة. شكرته وخرجت من عنده وأنا أشعر بارتياح كبير لهذه المقابلة. وتوجهت إلى الوزير وشكرته، ثم إلى كليتو الذي أفهمني بأنه جاري ولايفصل بيته عن بيتي سوى عشرة أمتار، هي عرض الشارع، وأعربت له عن سروري بذلك، وتمنيت أن تتوثق العلاقة بيننا.

وصل الشيخ علي بعد عدة أيام، ومعه بعض الأصدقاء، وأقاموا معي ليلتين، أعدوا خلالها سياراتهم وزودوها بالوقود، وأخذوا معهم ما يكفيهم للإقامة لمدة أسبوعين. وأمدتهم مصلحة الصيد بمرافقين وحراس، تنفيذاً لتعليمات السيد/أبيل. وتوجهوا ليقيموا معسكراً في الغابة في منطقة توريت شرقي مدينته جوبا، وكنت على اتصال يوميّ بهم عن طريق جهاز لاسلكي أتابع أخبارهم يوماً بيوم. وبعد

أربعة عشر يوماً علمت أنهم سيعودون إلى جوبا في طريقهم إلى الخرطوم، فذهبت لأقضي معهم الليلة الأخيرة في منطقة الصيد، وهناك رأيت جلود الحيوانات التي اصطادوها منتشرة ومعلقة على الجبال، وكذلك رؤوس الحيوانات المختلفة مثل الفيل والجاموس والثيتل والغزلان واللحوم بكيات كبيرة. وكان الشيخ ورفاقه سعداء بإقامتهم في الغابة وبما اصطادوه من حيوانات، لكنه أبدى أسفه لأنه سيفادر ولم يصطد أسداً حتى الآن.. قلت له وأنا أقصد المزاح:— غداً في الصباح سأرافقكم إلى الغابة وسنصطاد الأسد. ولم أكن أتوقع أن يتحول ماقلت إلى حقيقة، فعندما خرجنا إلى الغابة مع شروق الشمس، ولم نكن قد ابتعدنا عن المعسكر أكثر من أربعة كيلومترات، إذا بنا وجهاً لوجه مع أسد كبير، لم يكن بعيداً عنا، واعتقدنا للوهلة الأولى أنه لبوءة لعدم وجود فروة حول رقبته، وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها حيواناً مفترساً خارج أقفاص حدائق الحيوان. وظل واقفاً مكانه ولم يهرب منا كالحيوانات الأخرى، بل راح ينظر إلينا متباهياً، وكأنه هو الذي يتفرج علينا، وطبعاً هو لا يعلم ماذا ننوي له. هكذا جاءت الفرصة للشيخ علي لتحقيق رغبته قبل أن يعود، فأطلق الرصاصة الأولى على الأسد، فأصابته في عموده الفقري، وشلت نصفه الخلفي، ولم تستطع قدماء الأماميتان أن تحملاه، فبقي كالرابض، ثم جاءت الرصاصة الثانية، وقضت عليه فسقط، ولكن كيف نعرف أنه مات؟ إن الأمر كان في غاية الصعوبة كي يتقدم أحدنا من الأسد المتمدد على الأرض، فنحن في سيارتين وكل واحد يحمل سلاحه، اقتربت السيارتان من الأسد بحذر، ومن فيها يطلق الرصاص حوله وليس عليه، حتى لا يفسد الرصاص جلد الأسد. لأن الشيخ كان حريصاً أن يحصل على جلده سليماً وهذا هو الهدف من صيده، إضافة إلى متعة الصيد نفسها. تأكد المرافقون أن الأسد قد مات، فنزلوا وقد صوبوا السلاح نحوه إلقاءً لأي مفاجأة، وعندما وصلوا وضعوا فوهات البنادق عليه، كي يتثبتوا ما إذا كانت الحياة لازالت تدب فيه أم لا، وعندما تأكدوا من موته تماماً، راحت مجموعة من حرس الصيد (المرافقين) تتفحصه، فعرفوا أوصافه جيداً؛ بأنه أسد عجوز، ولم نكن ندرى أننا أمام وحش حقيقي، فالأسد عندما تتقدم به السن، يتخصص في أكل الإنسان

فقط ، لأنه لا يقوى على مطاردة الحيوانات ، فيكون سهلاً عليه اصطياد إنسان ، وإذا ذاق لحمه لا يأكل حيواناً غيره .. لأن لحم الإنسان فيه ملوحة . كالفرق بين مذاق سمك النهر وسمك البحر .

وبينما نحن حول الأسد وقد تأكدنا من موته ، فوجئنا برجل عار تماماً ينزل من شجرة عالية بالقرب منا ، ويكاد يسقط من شدة هزاله وضعفه .. أثار ظهوره هكذا الفرع بيننا وخشيناً أن يكون مجنوناً أو متوحشاً ، فصوبت الأسلحة نحوه تحسباً ، ولكننا وجدناه يسجد إلى الأرض كمن يشكر الله على شيء ما ، وراح يتحدث مع المرافقين ، وترجموا لنا ما يقوله لهم . وكان ماسمعناه شيئاً مثيراً للغاية ، فهو منذ ثلاثة أيام يعيش فوق هذه الشجرة ، لأنه خشي على حياته من هذا الأسد فقد كاد أن يلحق به ويفترسه ، لولا أنه قفز مسرعاً واعتلى هذه الشجرة لتكون ملجأ له . ويبدو أن إنسان الغابة هنا يعرف طبائع الحيوانات . وظل التحدى قائماً بين هذا الإنسان والأسد لمدة ثلاثة أيام ، فالأسد لا يستطيع تسلق الشجرة ، وظل باقياً تحتها ينتظر سقوط فريسته .. بينما ظل المسكين متحملاً العطش والجوع بانتظار الفرج من الله .

فهذا الرجل متوقع أنه ميت لاحالة فإذا بالخالق عز وجل يحياه ويميت الأسد ، فقد أرسلنا الله لإنقاذ هذا المسكين دون أن ندري .. إنه لا يحمل سوى عصا رقيقة طويلة لا تحميه من شيء ، أطعنا الرجل وسقيناه ، وتركناه ونحن في دهشة ، كيف يسير رجل هكذا في غابة كهذه دون خوف وهو عار ، ليس من الملابس فقط ، بل حتى من سلاح يدافع به عن نفسه ، ونحن مسلحون وكثيرو العدد ، ولم يجرؤ واحد منا أن ينزل من السيارة ليرى إن كان الأسد حياً أم ميتاً .

كانت فرحة الشيخ علي وسعاده بالفتين ، في حين راح حرس الصيد والطباخون والعمال المرافقون يرقصون على أصوات الطبول رقصة النصر ، لأن أهل الجنوب اعتادوا كلما قتلوا أسداً .. يحتفلون بذلك . وقد شاركناهم رقصتهم . بعدها بدأنا نصطاد الحيوانات العادية مثل الغزال والتيتل والجاموس . ووسط هذا الجمع أخذت السلاح لأجرب حظي ، فقد تعودت على الصيد بالخرطوش ، أما الرصاص

فلم أستعمله من قبل ، وأعطيت لى بندقية ذات عدسة مقربة ، وكان أمامنا قطيع من التيتل على مسافة ثلثمائة متر، لأن مثل هذا النوع من حيوان الغابة يهرب عادة من السيارات ولا يقترب منها لأن صوتها يخيفه . استعنت بعدسة البندقية المقربة وضبطت المؤشر على جانب التيتل الأيمن بين الذراع والقلب وأطلقت الرصاصة ، أصابته ، فانفصل عن القطيع وبدأ يسير ببطء ، فعرف الجميع أنه أصيب . وعندما أسرعنا نحوه واقتربنا منه ، حاول أن يجرى ولكن الدم كان يسيل منه ، فقد أصابته الرصاصة كما أردت . وبعد عشر دقائق ظهر قطيع آخر من نفس الفصيل ، فأطلقت النار من نفس المسافة ، فوقع له ماوقع للأول . واعتبروا ذلك ضربة حظ ، إلا إذا تمكنت من صيد ثالث وبنفس الطريقة ، وقد حصل .

عدنا إلى جوبا وأقام الشيخ ورفاقه مدة يومين ، وكنت فرحاً بهم ، لوجود إخوة من بلدى أتحدث معهم بنفس اللهجة الكويتية ، فهذه أول مرة منذ أن وصلت ، لا أجد نفسى الكويتى الوحيد فى جوبا . ورحنا نتسلى بلعب (الكوتشينة) بالطريقة الكويتية ، وقد أحدثت هذه الزيارة فى نفسى كثيراً من الإرتياح . وذهبت إلى مصلحة الصيد لأدفع الرسوم على الحيوانات التى تم صيدها ، فوجدت هناك تعليمات من السيد/أبيل أن يُعفى الصيد للشيخ مجاناً باستثناء رسوم الرخصة .

ثم ذهبنا معاً إلى السيد/أبيل فى مكتبه لشكره . وفى هذا اللقاء أبلغه الشيخ علي بأنه سيفادر فى صباح اليوم التالى ، فأصر أن يقيم له حفل عشاء فى منزله حضره كل الوزراء والمسؤولين ، وكانت فرصة طيبة لى فى هذا الحفل أن أتعرف على باقى المسؤولين والوزراء فى وقت واحد وفى ليلة واحدة ، فحمدت الله أن أراحتنى هذه المناسبة من التردد على الوزراء والانتظار فى مكاتبهم أياماً طويلة لأقابلهم . وسعدت كثيراً عندما دعانى وزير الزراعة أثناء حفل العشاء لأزوره فى مكتبه فى اليوم التالى .

غادر الشيخ ورفاقه جوبا . وتوجهت لزيارة وزير الزراعة الدكتور جاما حسن فى مكتبه ، ولم يكن قد حضر بعد ، وانتظرت قليلاً ، وإذا بى أسمع صوتاً عالياً

باللغة الانجليزية بمعنى (الوزير وصل) ، فوجدت كل من في مكاتبتهم والذين يسировون في دهاليز الوزارة قد وقفوا، إعلناً عن وصول الوزير. كنت جالساً في مكتب السكرتيرة التي وقفت لدخوله، فوقفت بدورى، حيّانا بإيماءة من رأسه.. قلت له صباح الخير فلم يرد ولم يكلمنى، وإنما دخل مكتبه بينما بقيت فى مكانى. ثم دخل إليّيه الذين كانوا جالسين معى وبعد نحو ساعة تقريباً دخلت لمقابلته، عرفنى بنفسه؛ شاب يبدو لمن لايعرفه متعالياً محباً لذاته، يمتدح نفسه كثيراً. ثم مع مرور الوقت أصبح من أغز أصدقائى الجنوبيين، وهو أكثرهم كرمًا لأنه دائماً يدعو أصدقاءه إلى تناول وجبة معه حتى لو لم تكن هناك مناسبة.

بعد ذلك علمت من الحكومة الإقليمية، أن حضرة صاحب السمو الأمير الشيخ صباح السالم الصباح سوف يصل إلى جوبا فى ١٥ مارس (آذار) عام ١٩٧٥، وسيحضر معه فى نفس الطائرة الرئيس جعفر محمد نيمرى، والوفد المرافق لهما على متن طائرة خاصة. وقبل وصول سمو الأمير بعشرة أيام، بدأت جوبا تستعد للإستقبال، وارتفعت الأعلام الكويتية والسودانية فى الميادين الرئيسية، ورفعت أقواس النصر واللافتات وعليها كلمات الترحيب بالضيف الكبير.

ذهبت إلى الأمين العام للمجلس لأعرف منه برنامج الزيارة، فعلمت أن الرئيس نيمرى وصاحب السمو الأمير سيحضران لمدة يوم واحد، يقومان بجولة ثم يتناولان الغداء فى منزل السيد ابييل، ويعودان بعدها إلى الخرطوم. ولم أجد فى برنامج الزيارة أن أكون من بين المستقبلين فى المطار، كما لم أجد برنامجاً لزيارة سموه لمكتب دولة الكويت، فأظهرت عدم ارتياحى إلى ذلك، وقلت له: —

إن هذا القادم هو حاكم الكويت، والمكتب الذى رأسه هنا هو لدولة الكويت، ومن الطبيعى أن أكون من بين المستقبلين، ليس فى صف المسؤولين، وإنما عند سلم الطائرة. فالقادم هو أميرى، ويجب أن أكون أول مستقبليه، بل يجب أن يكون لصاحب السمو برنامج لزيارة المكتب، ولو لمدة ربع ساعة كي أشرح لسموه سير العمل.

بعد جهود واتصالات استمرت يومين ، تم تعديل البرنامج كما طلبت . ووصلت الطائرة مطار جوبا ، وكان الجو غائماً وبقايا تَجْمَعُ ماء من المطر يملأ الأماكن المنخفضة على أرض المطار، وهذا له دلالة عند الجنوبيين فإذا ماسبق المطر وصول ضيف كبير بفترة قصيرة ، فعنى هذا أن الضيف قد أتى إليهم بقلب أبيض يحمل معه الخير والمحبة . وكان المطر قد هطل بين الساعة السادسة والسابعة والنصف ثم توقف قبل وصول الطائرة . وفي الثامنة والربع صباحاً اصطف جمهور المواطنين على جانبي الطريق ، واستقبل الزعيمان استقبالا حاراً ، وكان مع صاحب السمو من الوزراء الكويتيين ؛ عبدالرحمن سالم العتيقي وزير المالية ، والاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة ، وعدد من المسؤولين ، ومع الرئيس نمري بعض الوزراء المركزيين في حكومته . قام الرئيس والأمير بجولة في المدينة ، ثم توجهوا إلى المجلس التنفيذي العالي وعقد اجتماعاً رسمياً ، بعدها توجهوا إلى منزل السيد أبيل لتناول طعام الغداء ، فسبقتهما إلى منزلي ، الذي هو في نفس الوقت مكتبي ، لأكون في شرف استقبالهما في الثانية والنصف — حسب البرنامج — وصل الزعيمان ومعهما السيد أبيل وبعض الوزراء ، وانتظر الباقون في الخارج لضيق المكان ، وبعد أن جلسوا قدمت لهم الباباي — تلك الفاكهة المحلية في جنوب السودان — والأتناس ومع تناول الفاكهة سألتني صاحب السمو:

— هل أهلك معك ؟

فأجبتته إن كان قصد سموكم زوجتي وأولادى فهم في الكويت .. أما إذا كان سؤالكم عن أهلى ، فانظر إلى من حول سموكم ترون أهلى .. إن الشعب السوداني بأجمعه هم أهلى ، فلم يشعرونى بأنني غريب بينهم بل واحد منهم ، وأذكر أنني واصلت حديثي وقلت :

— أتمنى يا صاحب السمو أن يلقي هذا المكتب الصغير الرعاية والاهتمام من سموكم ، فشعب السودان الشقيق شعب طيب يقدر لأشقائه في الكويت هذه الخدمات البسيطة التى يقوم بها هذا المكتب .

— فرد العتيقي وزير المالية نيابة عن صاحب السمو وقال : —

— لن تكون أكرم منا ..

— فأجبت ضاحكاً :

هذا شيء طبيعي يامعالي الوزير، فأنا أحصل على الأموال من خزينتكم وعن طريق المفتاح الذي في يديكم .

في الطريق إلى المطار دعاني الأستاذ عبدالعزيز حسين أن أرافقه في سيارته ، وفي السيارة أعطاني مَلَقاً ، وقال : — إن هذه مجموعة مطالب تقدمت بها الحكومة الإقليمية لحضرة صاحب السمو ، وهي عبارة عن معدات وأجهزة لإصلاح الطرق في الاقليم الجنوبي ، وطلب مني أن أسافر إلى نيروبي بعد مغادرة صاحب السمو ، وأدرس إمكانية شراء هذه المعدات من هناك . وغادروا جميعاً إلى الخرطوم ..

تركزت هذه الزيارة أثراً كبيراً على العلاقات الكويتية السودانية وخاصة في جنوب السودان ، فقد مهّدت لتعاون ضخم ومشروعات في الجنوب ، كان علي أن أقوم بتنفيذها ، وأصبح الجهد الذي قمت به خلال وجودي في الجنوب موضع اهتمام المسؤولين في الكويت وتقديرهم . وقد انعكس ذلك في تصريح للأستاذ عبدالعزيز حسين نشرته مجلة التهضة الكويتية — بعد عودتهم — عندما قال : — إن عبدالله السريع هو الوجه العربي الأصيل في جنوب السودان .. وقد تأثرت كثيراً بهذا القول ، مما دفعني إلى بذل المزيد من الجهد والقدرة على الإحتمال .

وهكذا في شهر واحد حدثت عدة زيارات على مستوى المسؤولين ، زيارة الشيخ علي ، ثم على مستوى القمة زيارة صاحب السمو الأمير والرئيس فميري . وقد أتاح لي ذلك فرصة الاقتراب بكافة المسؤولين والتعرف عليهم ، فكان من السهل بعد ذلك أن ألتقي بهم في أي وقت . ولكي أؤكد عمق الصلة ورغبتني في توثيق العلاقة أقمت حفل عشاء في بيتي دعوت إليه كافة المسؤولين .



في الأسبوع الأخير من شهر مارس (أذار عام ١٩٧٥) غادرت إلى نيروبي على متن طائرة صغيرة ذات محركين ، وحرصت أن يكون عبدالكريم عكاشة مرافقي في

هذه الرحلة كما كان في الرحلات السابقة، وأعرب المقاول عن رغبته في السفر معي ليشتري بقية الأشياء التي لم يتمكن من شرائها في المرة السابقة. وهكذا ركبنا نحن الثلاثة تلك الطائرة سعة الخمسة ركاب، من تلك التي تؤجر في الرحلات بين نيروبي وجوبا. وكانت هذه أول مرة أركب فيها طائرة من هذا النوع وفي هذا الحجم، وكان معنا اثنان من الأوربيين.

نزلت في مطار ويلسون الكيني، وهو مطار خاص باستقبال الطائرات الصغيرة، وتوجد به ثلاثة مكاتب صغيرة متجاورة، للجوازات والصحة والجمارك، وكل مكتب به موظف واحد. انتهينا من الاجراءات الصحية وتقدمنا لموظف الجوازات لنهي اجراءاتنا، كان الأوربيان اللذان معنا على الطائرة قد أنيا اجراءاتها على الفور، وحصل المقاول وعبدالكريم على تأشيرة دخول من المطار، أما أنا فلم يوافق موظف الجوازات على منحى تأشيرة، لأنني لأحمل تأشيرة دخول (فيزا)، وأصر على عدم إعطائي التأشيرة بحجة أن التعليمات التي لديه تنص على عدم إعطاء تسهيلات لأي عربي. وكانت كينيا في ذلك الوقت قد شددت رقابتها على دخول أي مواطن عربي إلى أراضيها بعد كثرة حوادث خطف الطائرات، وظللت ساعتين في محاولة لإقناع الموظف بأنني أحمل جواز سفر خاصا.. وأن.. وأن.. دون فائدة. وهنا تدخل عبدالكريم عندما ألمح له مواطن كان يقف خارج مكتب الجوازات بما معناه (دبروا أموركم)، وفهمنا ما يقصد. فأخرجت مبلغ من الدولارات ووضعتها في جواز السفر، فطلب مني أن أذهب إلى فرع البنك لتغييرها إلى عملة كينية، بعد استبدالها بالشلل الكيني، أخذها الموظف، ووضع تأشيرة على جواز سفرى لمدة ثلاثة أشهر، وعلى الفور توجهنا إلى الفندق الذى أقمنا فيه من قبل.

وذهبت في اليوم التالي إلى سفارتنا حيث شرحت لهم الغرض الذى جئت من أجله هذه المرة. واستأجرنا سيارة ورحنا نطوف على كافة المصانع والشركات الكبرى، ومن بينها شركة المرسيدس، وعرفنا كم يكلف عشرة سيارة (مرسيدس قلاب نساف - من الحجم الكبير) وفي المنطقة الصناعية كم يكلف أسعار (الجريدرد) و(البلودوزر) وغيرها من معدات الطرق، وهكذا طفنا بكافة

المصانع والشركات، إلى أن تم التفاوض على الأسعار، واتفقنا على الشراء من حيث المبدأ. ثم أرسلت كشفاً بالأسعار إلى الكويت، وَحَوَّلَ المبلغ على الفور وبدأت أحرر الشيكات للشركات التي اتفقنا معها.

وأذكر أن أول شيك وقَّعته، هو دفعة أولى من ثمن ست عشرة سيارة مرسيدس نساف (فلاي) بمبلغ ثلاثة ملايين شلن كيني، ولم أكن أتخيل أنني سأكتب شيكاً يحمل رقم ٣ وأمامه ستة أصفار، إلى حد أنني شعرت بيدي ترتجف وأنا أوقع، فالمبلغ كبير، وما كنت أتصور ورقة كهذه تعادل ثلاثة ملايين شلن، ويبدو أن شعوري هذا انتقل إلى غيري، فعندما حررت الشيك لشركة دي تي دوبي.. وكلاء المرسيدس في كينيا، لم يصلق مديرها أن شخصاً واحداً يوقع بمفرده على شيك بهذا الرقم، فذهب به مسرعاً إلى البنك مستفسراً، فاتصل مدير عام البنك بسفارتنا في نيروبي، وتحدث مع القائم بالأعمال إن كان صاحب هذا التوقيع مُخَوَّلًا أن يصرف شيكاً بهذا الرقم، فكان رد السفارة: — طالما أن هذا التوقيع معتمد لديكم، وطالما يوجد حساب في البنك لصاحب التوقيع، فعليكم أن تصرفوا بدون تردد، ولما علم مدير شركة المرسيدس أنني جاد في شراء هذه الصفقة، وقد استلمت الدفعة الأولى من ثمنها، خصص لي سيارة مرسيدس بسائقها، تكون معي طوال الوقت تحت تصرفي لمدة أربع وعشرين ساعة. كنت قد اتفقت على شراء سيارات المرسيدس، على أن تقوم الشركة بتوصيلها إلى جوبا تحت مسئوليتها، كان مدير المبيعات الذي تفاوضت معه من أجل آسيوي، ويدعى اسماعيل، وهو شخص طويل القامة، ممتلئ الجسم، يزن أكثر من مائة وخمسين كجم. لم يخف دهشته عندما علم أنني أسكن في فندق متواضع من الدرجة الرابعة وأنا أحمل كل هذه المبالغ وأشتري كل هذه المعدات، قلت له: لا تندعش يا صاحبي، فَإِنَّ هذا المال الذي أدفعه هو مال حكومة الكويت ولاأملك منه سوى توقيعى عليه.



وهكذا انتهيت من شراء المعدات التى طلبتها الحكومة الإقليمية، وكان عبد العزيز حسين قد وافق على شراء سيارة مرسيدس صالون لاستعمالي بدلاً من الجيب، فاشتريتها من نفس الشركة.

ركبنا نحن الثلاثة السيارة الجديدة، وكانت هذه هي أول مرة أقود فيها سيارة بين دولتين أفريقييتين؛ كينيا ويوغندا فى طريقى إلى السودان.. فرحْتُ بالسيارة وبإنجاز المهمة التى كلفت بها، ذلك أن المعدات التى تعاقدنا على شرائها ستصل جوبا خلال خمسة عشر يوماً. وكان الطريق من نيروبي إلى كمبالا فى بدايته وعراً، فهو طريق جبلي، وكان علينا أن نصعد مرتفعات ونهبط منها، وهناك مواقف للسيارات الكبيرة للتزود بالوقود أو إصلاح عطب بها. والباعة منتشرون على جانبي الطريق، ومعظم معروضاتهم من جلود الحيوانات وخاصة فراء الخراف الكينية، التى تتميز بطول الشعر وكثافته، مصبوغة بألوان مختلفة تشجع على اقتناء بعض منها، فاشتريت منها ومن المصنوعات اليدوية الأخرى. وواصلنا السير حيث أصبح الطريق سهلاً ومنبسطاً، وقد أنستنى فرحتى بالسيارة ونجاح المهمة أن أنظر إلى عداد السرعة، فأنا متلهف للوصول إلى جوبا لإبلاغ الحكومة الإقليمية بموعد وصول المعدات التى طلبوها، ولم أنتبه إلا عندما عبرت مرتفعاً، وأثناء الهبوط كدنا نتعرض لحادث، حيث اختل توازن السيارة بسبب السرعة التى وصلت إلى مائة وثمانين (كم) فى الساعة، والحد الأقصى لسرعة السيارة هو مائتا (كم) فى الساعة، وحدث الله أن أنقذنا، فخففت السرعة إلى مائة وعشرين (كم)، وسرنا براحة تامة حتى وصلنا إلى منطقة الجوازات والجمارك الكينية. كانت هناك سيارات لوارى كبيرة متجهة إلى كينيا، ولا توجد سيارة فى طريقها إلى يوغندا سوى سيارتنا، وبقية السيارات الصغيرة المحلية، ورغم ذلك انصرف عثاً ضابط الجوازات متعمداً، وأهملنا لمدة تزيد على نصف ساعة، وعبد الكريم يتابعه أينما ذهب، ثم تنبه وأخرج من جيبه مبلغاً من المال وأعطاه للضابط، الذى أنهى إجراءات سفرنا على الفور، بعد أن ترك السيارات الأخرى، وبعدها ذهبنا إلى مندوب الجمارك الذى فتح الحقائق، وفجأة وجدته يخرج من حقيبتي قميصاً

وبنطلوئاً وحذاء ويضعهم إلى جواره ، ثم أغلق الحقيبة ، فسأله عن السبب في ذلك .

فقال ببساطة :- « أحتاج إليها » فشرح له عبدالكريم أن هذه الأشياء تخص صاحب السيارة ، ثم أنها لاتناسب مقاسه ، فقال :- إن هذه ليست مشكلة ، فالخياط يستطيع ضبطها ، فسأله :- ولماذا تأخذها قال ولم لا .. إذا لم أحصل وأنا هنا على الحدود على مثل هذه الأشياء ، فكيف أعيش ؟ أخرجت له مائتي شلن ، فأعاد الملابس إلى الحقيبة ، ولم يكن الأمر يختلف كثيراً عندما دخلنا الأراضي اليوغندية ، فالفرق الوحيد هو أن الأوغندي لا يأخذ مباشرة وإنما ينتظر أن تبادر فتعطيه ، وإلا فإن المضايقة والمحاولة في إنهاء الإجراءات ستكون هي السلوك الملائم ، فدفعنا بمجرد وقوفنا أمام مبنى الجمارك والجوازات ، فأنهينا الإجراءات دون إبطاء . ودخلنا كمبالا في المساء ، وذهبنا إلى الفندق الكبير للإقامة فيه تلك الليلة ، فقد أعدنا أنفسنا لمواصلة السفر إلى جوبا صباح الغد ، وكان علينا أن نشدبر حلّ مشكلة واجهتنا ، هي كيف نحصل على بنزين للسيارة كي نواصل السفر غداً ، فمحطات البنزين في كمبالا لاتبيع البنزين لأي سيارة أجنبية ، وذهبت إلى السفير السوداني في منزله لنحصل منه على بنزين ، اعتذر بأنه لا يملك منه شيئاً ، فذهبنا لشخص نعرفه ، فتصحنا أن نلجأ إلى السوق السوداء ولا حل غير ذلك ، وإزاء هذا الموقف ذهب عبدالكريم إلى بعض أصدقائه الذين عرّفوه على ضابط يوغندي من تجار السوق السوداء ، ووعدنا بأن يحضر لنا كمية من البنزين ، وعاد بعد ساعة بسيارته العسكرية الجيب ، وراح يملأ خزان سيارتنا علانيةً وأمام الناس ، بسعر للجالون الواحد يعادل عشرين ضعف سعره في محطات البنزين ، فدفعنا مائتي وخمسين دولاراً ثمناً لعشرين جالوناً .

وغادرنا كمبالا في الصباح ووصلنا جوبا في المساء ، وفي اليوم التالي قمت بتسليم سيارتي إلى الجمارك لتحويلها الى سيارة تحمل أرقاماً سودانية .

وبدأت المعدات التي اشتريناها تصل تباعاً في أول شهر مايو ، وخلال عشرة أيام كانت هناك ست عشرة (مرسيدس قلاب) تقف أمام مكتب الكويت في

الشارع العام، وبجانبيها المعدات الأخرى، وقد كتب عليها بالإنجليزية والعربية «هدية دولة الكويت». وجاء الناس لمشاهدتها حتى أبيل والوزراء والمسؤولون، والكّل سعيد بوصول هذه الكمية الهائلة من المعدات.

جرت العادة أن يحتفل السودان بعيد ثورته في ٢٥ مايو من كلّ عام. وكانت الإستعدادات للاحتفال بهذه المناسبة تجري على قدم وساق، وظهرت فكرة أن يتم تسليم هذه المعدات خلال الاحتفالات كمظهر للتعاون والإخاء بين الشعبين الكويتي والسوداني.

اتصلت بسفيرنا في الخرطوم محمد البلهان، وطلبت منه الحضور ليشهد حفل تسليم المعدات إلى الحكومة الإقليمية: وفي هذا اليوم جاء السائقون الذين تدربوا على أيدي السائقين الكينيين—الذين أحضروا هذه المعدات من كينيا—على كيفية استخدامها وقيادتها. وتحول يوم ٢٥ مايو (آيار) عام ٧٥ في جوبا إلى إحتفال كويتي سوداني. وبدأت السيارات كما لو كانت جزءاً من عرض عسكري، حيث كانت تدخل إلى المكان المخصص للاحتفال والذي شارك فيه أبيل وسائر أعضاء الحكومة، وكان السائقون يحرسون على تشغيل الصناديق الخلفية لهذه السيارات، وهي ترتفع وتنخفض أوتوماتيكياً أمام الجمهور الذي راح يصفق والنساء تزغرد، ثم اصطفت كل السيارات ومعدات الطرق أمام المنصة الرئيسية للاحتفال. وألقى سفيرنا كلمة بهذه المناسبة، أعقبه السيد أزبوني منديري وزير المواصلات في الحكومة الإقليمية بكلمة أخرى، ثم قمت بتسليم المفاتيح إلى السيد أبيل وسط هذا الإحتفال الرائع والمهرجان الكبير.



فصل الخامس

وجهاً لوجه مع الأسد

لقد راقبت لى الحياة بعد مرور عشرة أشهر بعيداً عن الأسرة، فأهل جنوب السودان يتميزون بالود والبساطة والصدق في المشاعر. وهم يحسنون معاملة من يتعامل معهم بحسن نية وصدق، ومن لا يشعرون نحوه يود فهم لا يظهرون له جفاءهم، ولكنهم يتعاملون معه بتحفظ، ويرصدون تحركه بحذر. وبما أنني بتوفيق من الله أشعرتهم جميعاً بحسن المعاملة وصدق المشاعر، فقد بدأت أكسب ثقتهم وأكون موضع احترامهم في أقل من سنة، مما شدني إلى حب عملي أكثر. وبما أن المدارس في الكويت قد انتهت امتحانات طلابها وطالباتها، فقد أعددت نفسي والفرحة تملأ جوانحي لاستقبال والدتي وزوجتي وأولادي الذين سيحضرون إلى جوبا لأول مرة بعد الخامس عشر من شهر يونيو «حزيران» عام ١٩٧٥. ولم أكن أتصور كيف سيرون مدينة جوبا وجنوب السودان، وهل سيألفونها كما ألفتها؟ وبدأت أعد المنزل لاستقبالهم، فقد قمت بتنظيف المنزل وطلاء جدرانه، وغيّرت ما يمكن تغييره من أثاث حسب الإمكانيات المتوفرة في السوق المحلي. ثم توجهت إلى الخرطوم لأكون في استقبالهم، ووصلت أسرتي وأنا سعيد بوجودها. وبعد أن أمضينا يومين في الخرطوم، سافرنا بالطائرة إلى جوبا حيث هبطنا في مطارها حوالى العاشرة صباحاً، وكان الطقس يميل إلى البرودة فدرجة الحرارة لا تزيد على عشرين درجة مئوية، ذلك لأن جوبا تقع ضمن منطقة خط الاستواء، التي تتكاثر فيها الأمطار ابتداء من مطلع الشهر الرابع من كل عام وحتى نهاية شهر سبتمبر، وأحياناً يصاحب هطول الأمطار صواعق تزلزل الأرض، وتحرق بعض أشجار الغابة، أو أي شيء يقع في طريقها، لأن القوة أو الشحنة الكهربائية التي تنبعث من تلك الصاعقة تحول أي شيء تضربه إلى كتلة من الرماد في لحظات، بعكس الخرطوم فطقسه في مثل هذا الشهر لا يختلف عن طقس

الكويت ، في حرارته المرتفعة والأتربة التي نسميها (الطُّوز أو الغبار) بينما تسمى في الخرطوم (الهَبُوب). لم يصدق أبنائى أنهم سيرون جواً جيلاً كهذا وأرضاً مخضرة من حولهم وجبالاً متباعدة تحيط بالمدينة ، وما إن وصلنا البيت حتى قال ابني الكبير صالح الآن وقبل أن ينتصف النهار أرجوك يا والدى أن تعد لنا سيارة لأذهب للغابة ، فإنى متشوق للصيد الذى حدثتنا عنه فى رسائلك ، وأتمنى أن أراه اليوم بأم عيني قبل مغيب الشمس .

وكان له ما أراد فقد ذهب هو وشقيقاه الأصغر منه ، رياض وعصام ، وعادوا مستمتعين بما رأوا ، حيث ذهب معهم هواة الصيد من أصدقائى حبيب والدكتور زاهر. ثم بعد ذلك تعودوا على الذهاب إلى الصيد مع حبيب بعد غروب الشمس إلى المنطقة القريبة من جوبا ، ويعودون معهم غزالان أو ثلاثة ، وقد أمضت والدتى وزوجتى وأبنائى شهرين سعدوا فيها كثيراً ، وخلال تلك الفترة زارنا سفيرنا فى الخرطوم وزوجته وأولاده وأمضوا معنا عدة أيام ، وامتلاً المنزل مما اضطررنى والسفير أن نستأجر غرفة فى فندق جوبا لنبيت فيها . وعندما اقترب موعد افتتاح المدارس رافقت الأسرة إلى الخرطوم ثم إلى القاهرة ، لأنه لا يوجد خط مباشر بين الكويت والخرطوم ، وعدت بعدها إلى جوبا .

كانت معدات البناء التى اشتريتها للمقاول من نيروبي ومباسا قد وصلت ، وبدأ العمل وارتفع البناء ، وما إن عدت حتى بدأت أتابعه يومياً ، وأوشك العمل على الإنتهاء فى أواخر عام ١٩٧٥ ، واكتمل تماماً فى أوائل عام ١٩٧٦ ، وهو عبارة عن مدرستين ومركز صحى . وتقرر أن يتم تسليم هذه الثلاثة مباني إلى الحكومة الإقليمية فى احتفالات أعياد السودان فى مايو .

فى أبريل وقبل احتفالات مايو ، احتفلت القوات المسلحة السودانية بيوم أطلقوا عليه «يوم ضرب النار» ، شاركت فيه كافة فصائل قوات الإقليم الجنوبى .

ودعا قائد الفرقة العسكرية هناك اللواء جوزيف لاقوب بعض القادة من البلاد العربية والأفريقية المجاورة ، ليشاركوا فى تلك الاحتفالات . وقد حضر عن الجيش الكويتى اللواء الشيخ مبارك العبدالله الجابر الصباح رئيس الأركان فى منتصف

أبريل عام ١٩٧٦ ، وحضر معه العقيد محمد البدر والعقيد طيار عبدالله التميمي والمقدم طيار بدر الصايغ ، ومن يوغندا وزير الدفاع ، ومن دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب القائد العام ، وتبارت كل الفرق من قوات الشعب المسلحة لإصابة الهدف .

في اليوم التالي أعدت القيادة سيارات وحرسا لمراقبة الشيخ مبارك ، ليقوم برحلة صيد في الغابة ، وخرجت معهم ، وتمنى أن يصطاد جاموساً وحشياً ، وقد أعد تصوراً لذلك ، هو أن يُطلق النار على جاموس بحيث يعوقه عن سرعة الحركة ، ثم ينزل هو من السيارة ويقف في مواجهته ، ويصوب عليه نار مسدسه حتى يريده قتيلاً . كان كل مانراه أمامنا غزلاناً كثيرة وحيوانات أخرى مختلفة ، وبعد فترة ظهر قطيع من الجاموس ، وهنا استعد الشيخ ليحقق رغبته ، إلا أن الجاموس تمكن بعد مطاردته من أن يدخل منطقة وعرة تسمى «الدقداق» ، وتعذر علينا الاستمرار في ملاحقته ، وكان الشيخ يركب في السيارة التي كنت أقودها ، والسيارة الأخرى تحمل المرافقين للحراسة ، وبعد فترة أخرى ظهر قطيع آخر من الجاموس أكثر عدداً ، ورحنا نحاول اللحاق به ، وكنت أقود السيارة بحذر ، بالمنطقة مليئة بالحفر والأعشاب وأغصان الشجر ، وخشيت أن تصطدم بحجر غير مرئي وسط كثافة الأعشاب ، أو تقع في حفرة غير ظاهرة . وكان هو يطالبني بالسرعة ويصر على أن نلحق بقطيع الجاموس . وأمام حرصى على القيادة ، غضب وترك السيارة وركب السيارة الأخرى مع المرافقين الذين انطلقوا وراء القطيع وأنا وراءهم ، وقد تأخرت عنهم لأن سيارتى تعثرت في حفرتين . أصابوا جاموساً ضخماً في فخذه الأيمن فعجز عن الجرى ، وانفصل عن القطيع كمادة حيوان الغابة ، ووقف الجاموس المصاب ينظر ، كأنه يريد أن ينتقم رغم جراحه ، عند ذلك قفز الشيخ واقترب من الجاموس ، فأطلق أحد حاملي البنادق رصاصة على الجاموس ، خوفاً على الشيخ ، فأصابه في صدره ، وعند ذلك وقف غاضباً مزيجراً وقد احترت عيناه ، وبدأ الزبد المختلط بالدم ينزف من فمه ، وهو يضرب بحافريه الأماميتين الأرض استعداداً للهجوم ، في حين كان مبارك يطلق على رأس الجاموس رصاص مسدسه ، فأعددت سيارتى في مواجهة الجاموس لأصدمه لو حاول الهجوم ، أما الشيخ فقد كان في

موقف أنساه كل ماحوله وهو يواصل ضرب النار، حتى أفرغ في رأسه تسع رصاصات، والجاموس لم يسقط أو يضعف، ولم يهجم وإنما بقي يرغى ويزبد. وعندما فرغ مسدس الشيخ، أدركنا أن الخطوة التالية أنه سيهجم، فبادره المرافقون بإطلاق الرصاص فسقط صريعاً. كانت معركة بين رئيس الأركان وأشرس حيوان في الغابة، وحمدنا الله أن تمت الرحلة بسلام..

بدأ الشيخ وصحبه يعدون أنفسهم للسفر، فتذكرت المثل الذي يقول « كل غريب يتذكر بلاده ». لقد ألفتهم وشعرت بوجودهم معي وكأني في الكويت ولكن ماحيلتي .

فسألني الشيخ منذ متى لم تسافر إلى الكويت ؟

قلت له :

— منذ خمسة أشهر.

— فقال على الفور:

— إذن استعد للسفر معنا.

— قلت :

— ولكني لم أستاذن الهيئة وليس لي الحق في إجازة.

— فرد المرافقون :

أترك هذا الموضوع لنا .

وملأني الفرحة بهذا القرار المفاجيء فسأسافر إلى الكويت وسأرى أبنائي .

سافرنا إلى الخرطوم، وغادرناها في وداع رسمي شارك فيه رئيس الأركان وكبار ضباط القوات المسلحة السودانية. وفي اليوم التالي من وصولنا، أقام لي الشيخ مبارك حفل عشاء في منزله، دعا إليه وكيل وزارة الخارجية ووكيل وزارة الاعلام والعضو المنتدب للهيئة العامة وكبار المسؤولين فيها، وحدثهم عن جوبا، وأثنى علي كثيرأ، فكان ذلك دافعاً جديداً أضاف لي عزماً وإصراراً على مضاعفة الجهد والاحتمال بنفس الدرجة التي قابلت فيها تصريح الأستاذ عبدالعزيز حسين

عنى بعد زيارته جوبا، فأدركت أنها الأقدار التي وضعتني في هذه المهمة، من أجل الكويت ومن أجل السودان الذي أحبيته .

لم تطل إقامتي في الكويت، حيث عدت لأتابع مع المقاول التحضير لتسليم المشروع .

وفي اليوم المحدد للتسليم حضر الرئيس نميري وأبيل والمسؤولون في الحكومتين، المركزية والإقليمية، حيث قام بقص الشريط لكل مشروع على حدة، لأنها في أماكن مختلفة. وبعد أن طاف بداخلها وتفقدتها انصرف، وتأخر السيد أبيل وأعضاء حكومته الإقليمية، وجلسنا جميعاً في فناء إحدى المدرستين، وقد حضر هذه المناسبة سفيرنا في الخرطوم. كان السيد أبيل يبدو سعيداً جداً وقد تسلم مفاتيح هذه المباني لأنه اعتبرها الخطوة الأولى في مجال التنمية بعد اتفاقية أديس أبابا عام ٧٢ التي حققت السلام، فالتفت إليّ وقال :- إسمع لقد عرفناك باسم عبدالله الكويتي ولكن من اليوم سنطلق عليك اسم عبدالله جوبا .

كان مندوبو وسائل الإعلام السودانية من صحف وإذاعة حاضرين، فنُقلت هذه العبارة وأذاعها راديو جوبا ونشرت في الصحف المحلية، وهكذا عرفت من يومها باسم عبدالله جوبا، وقد وصل هذا اللقب إلى الكويت وبدأت أُنَادى به أينما ذهبت حتى اليوم .

أصبحت معروفاً للجميع من مواطنين ومسؤولين، وأزلت كل الحواجز، ورحت أتبادل الزيارات بلا مواعيد مع كافة المسؤولين في منازلهم، ومن يمرض منهم أدخل إليه حتى في غرفة نومه، ثم بدأوا يدعونني إلى كافة الحفلات الرسمية وخاصة تلك التي يحضرها رئيس المجلس التنفيذي العالي، الذي كان يحرص على أن أجلس إلى جواره، حول الطاولة المخصصة لجلوسه هو وثلاثة أو أربعة من كبار المسؤولين، وكان من بين من توثقت علاقتي بهم اللواء جوزيف لاقوقائد الفرقة الأولى أو كما يسمونها القيادة الجنوبية، الذي أصبح من أصدقائي المقربين، يزورني في أكثر الأيام هو وزوجته وأولاده أو بمفرده قبل غروب الشمس، نتناول الشاي معاً في

فناء المنزل . وهكذا مع مرور الأيام بدأت أشعر أنني واحد أو فرد في عائلة كل مسئول ومواطن في جوبا .

في منتصف عام ١٩٧٦ طلبت من الهيئة الموافقة لى لقضاء إجازتى في الكويت مع العائلة ، ووافقت الهيئة ، وانتدبت السيد علي المنصور مدير الهيئة لينوب عنى خلال إجازتى والتي تستمر ثلاثة أشهر، وسافرت إلى الكويت ، ولكنى بعد أيام من وصولى شعرت ببرودة في جسمى واعتقدت أنها من جهاز المكيف ، لكن البرودة استمرت حتى بعد أن أبطل ، وتطورت البرودة إلى قشعريرة لم تفلح في تهدئتها الأغذية الثقيلة ، ولم يكن أمامى سوى أن أنقل إلى المستشفى ، فقد أدركت أن هذه أعراض الملاريا ، أخذنى شقيق زوجتى وابنى الأكبر وزوجتى إلى مستشفى الحميات ، الذى يبعد عن السالمية بنحو ثلاثين كيلومتراً ، وهو مستشفى منعزل يسمى مستشفى الأمراض السارية (المعدية) ، وما إن وصلت المستشفى حتى قاموا بتحليل دمي ، وفي دقائق كنت على سرير المرض وإبرة الجلوكوز مغروزة في كف يدي وأنا في حالة حمى شديدة أهلوس معها وأنفص وأرتجف وحرارتى مرة ترتفع وتارة تنخفض .

وطلب الطبيب من النين أتوا بي أن يغادروا المستشفى ، لأنني سأبقى فيه عدة أيام ، بعد أن تأكد أنني مصاب بالملاريا . أما أنا فقد رحمت في غيبوبة لم أفق منها إلا في صباح اليوم التالي ، وشعرت أنني أفضل حالاً من ليلة البارحة ، ومنعوا عنى الطعام مكثفين بالأدوية وسائل الجلوكوز .

خلال هذه الأيام وأنا في المستشفى ، لم يزرنى أي صديق باستثناء زوجتى وأولادى ، وعلمت منهم أن وزارة الصحة قامت بعمل كرنطينا على منزلى ورشته بالمبيدات ، وقامت بعمليات فحص كاملة لكل من في البيت ، خاصة عندما علموا أنهم كانوا معى في جوبا العام الماضى ، وانقطع الأصدقاء والمعارف عن زيارتى ، ولم يتصل أحد باستثناء (بوكيات) الورد التي كانوا يرسلونها إلى غرفتى ومعها كرت يحمل اسم المرسل وأمنيته الطيبة لى بسرعة الشفاء .

وبقيت بالمستشفى، ستة أيام، خرجت بعدها سليماً معافى وحمدت الله .
وكان أول مافعلته أن توجهت في اليوم التالي إلى زملائي وأصدقائي في الهيئة
ومجلس التخطيط، فوجدت أن كل واحد يشيح بوجهه عني، ويتعد ولا يريد أن
يصافحني، ومن يريد أن يجاملني يقول حمداً لله على السلامة من بعيد، وأدركت
سر ذلك عندما تحدث معي أحد الأصدقاء صراحةً وقال:—

— إذا كنت توذّنا حقيقةً، وتعتبر نفسك صديقاً غلصاً، فلا تدخل مكاتبنا
ولا تزورنا.. لأن عندك ملاريا، ونحن على غير استعداد لمجاملتك على حساب
صحتنا .

واضطرت إزاء ذلك أن أبقى في البيت لمدة أسبوعين، وأكتفى بالإتصال
معهم هاتفياً حتى أطمئن الجميع أنني بخير، مؤكداً لهم أن الملاريا مرض غير
معد، لأنه ينتقل إلى الإنسان بواسطة أنثى البعوض التي تتكاثر في جوبا، وهي
لا توجد في الكويت .

أكثر الأصدقاء لم يصدقوا حتى سألوا الأطباء.. ذلك أن كلمة (ملاريا)
حتى الآن تعتبر مرضاً معدياً خطيراً وخبيثاً.. وهكذا أصبحت أول كويتي من
كل أفراد الشعب مسجلاً بوزارة الصحة الكويتية مصاباً بالملاريا، وحتى الآن
لا تزال تزورني في العام مرة أو مرتين، لأنها استقرت في دمي، وتظهر عليّ أو
تطيح بي على الفراش كلما أرهقت نفسي أو زاد انفعالي .

بعد إنقضاء الإجازة عدت إلى الخرطوم ومنها إلى جوبا، ومعى موافقة الهيئة
العامة لإنشاء أربعين وحدة سكنية للمدرسين والمدرسات، حيث أنهم يفتقرون إلى
مثل هذه المنازل، وكان هذا بناء على اقتراح تقدم به السيد جوزيف أدوهو وزير
الإسكان نيابة عن الحكومة الإقليمية، وكذلك الموافقة أيضاً على تعيين طبّاع^(١)
يقوم بأعمال السكرتارية، بالإضافة إلى محاسب بعثت به الهيئة من الكويت إلى
جوبا، فأصبحنا ثلاثة زملاء . وبعد أن ودعت علي المنصور مدير الهيئة الذي ناب

(١) هو الذي يقوم بأعمال الطباعة على الآلة الكاتبة .

عنى خلال فترة إجازتى أجريت تغييراً فى المكتب ، فقد أخليت الغرفة التى كانت كمخزن ونقلت مافيا إلى مكان آخر، واشترت ثلاثة مكاتب خشبية صناعة محلية، وفى الوقت نفسه زودتنا وزارة الإسكان الإقليمية بمخططات للمساكن الشعبية، فطرحنا مشروع الأربعين وحدة سكنية فى مناقصة رست على مجموعة من المقاولين اشتركوا سويًا فى العطاء، لأن المشروع أكبر من قدرة كل منهم المالية، حيث باشروا العمل فوراً.

كانت زيارة الكويتيين إلى جوبا زيارات رسمية، ولم أكن ألتقي بشخصيات عربية إلا قليلاً... إلا أنه تقرر أن تقام احتفالات السودان بمناسبة عيد الوحدة الذى يصادف ٣ مارس (آذار) عام ١٩٧٧ فى جوبا. وفى ذلك اليوم اتصل بي مدير الفندق محمد سليمان - وهو الفندق الوحيد - وقال لي: - إنه يوجد هنا إخوة عرب ولا توجد غرف خالية، وهم الآن جالسون مع زوجاتهم تحت أشجار المانجو، فطلبت منه أن يبلغهم بأننى قادم فوراً، وتوجهت إليهم ووجدت ثلاثة رجال وسيدتين، قدمت نفسى لهم ودعوتهم للإقامة عندى؛ فى البيت تسعة أسرة وأنا بمفردى، ومن واجبى أن أشارك بمجهود ما فى هذه الظروف، فالأماكن محدودة فى الفندق، والمدينة صغيرة لا تتسع لكل الضيوف، فأعربوا عن شكرهم واعتذروا عن تلبية الدعوة، لأنهم قرروا العودة على الطائرة التى تنتظر الآن فى المطار وستقلع فى الرابعة بعد الظهر. ألححت عليهم فلم يغيروا رأيهم وأصرروا على السفر، وأنه لا داعى للمبيت طالما جاءوا وشاهدوا جوبا وشاركوا فى الاحتفال، وإزاء إصرارهم دعوتهم إلى البيت كى يقضوا الوقت المتبقى حتى موعد إقلاع الطائرة، فوافقوا وجاءوا معى. قدمت لهم الشاى وبعضاً من فاكهة جوبا مثل الأناس والباباي، وراحوا يسألوننى عن مكتب دولة الكويت فى جوبا ومهمته، فشرحت لهم كل شىء.

— سألتى أحدهم وكان بديناً.

— أتعرفنا؟

— قلت:

— حتى الآن لم أتشرف بمعرفتكم ولكن يكفي أنكم عرب .
— فعرفّنى على نفسه قائلاً :

— اسمى صلاح عبد القادر الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية لشئون الإعلام من جمهورية مصر العربية .
ثم عرفّنى على من معه ، وكانوا زوجته وشابا مصرياً وآخر سورياً يعمل معه فى نفس الجامعة ومعه زوجته .

وواصل حديثه معى وقال إنه منذ شهرين كان مدعواً لإلقاء محاضرة عن دور العرب فى أفريقيا ، وإنه أرهق نفسه كي يجد مادة مدعمة موثقة ليتحدث عنها ، وقال إنه لو كان يعلم أن دولة الكويت موجودة بهذا النشاط فى هذا الجزء الثانى من الوطن العربى ، لكانت لديه مادة خصبة يتحدث عنها .

بعدها رافقتهم فى جولة بمدينة جوبا ، وأطلعتهم على المنشآت التى قام المكتب بتنفيذها أو التى يجري إنشاؤها ، ثم رافقتهم إلى المطار وغادروا فى الساعة الرابعة .

وما إن انتهت الاحتفالات ، حتى غادر كل ضيف إلى وطنه ، وعاد الموظفون إلى مكاتبهم ، وبما أن أجل أشهر الصيد هما مارس وأبريل حيث لا تهطل الأمطار وتجف الأعشاب العالية فى الغابة أو تحرق بواسطة الأهالى ، فقد ذهبت فى عطلة الأسبوع مع بعض الأصدقاء للصيد . وكنت أقود السيارة . وفيما كنت أطارد قطعياً من التيتل (حوالى اثني عشر) وبسرعة ثمانين كيلومتراً فى الساعة ، إذ بذلك القطيع تنقله قوة مغناطيسية انحرف فيها عن خط سيره عشرين متراً يميناً (زاوية قائمة) ثم واصل جريه . وقبل أن أفيق من دهشتى هذه ، إذا أنا وجهاً لوجه مع أسد ولبوءته وقفا ينظران دون أن يفرا كسائر حيوانات الغابة ..

والأسد عادة إذا ما أراد أن يتزاوج ينفصل عن بقية الأسود ليأخذ مكاناً نائباً مع لبوءته ، وكان المشهد الذى أمامنا أن رأينا اللبوءة وهى تحك جانبها بجانب الأسد كما لو كانا يتداعبان . فأوقفت السيارة وأبطلت محركها ووضعت المفتاح فى جيبى وطلبت إعطائى البندقية ، حاول الأصدقاء إقناعى بالانخاطر بأنفسنا لأننا فى سيارة مكشوفة ولانبعد عنها أكثر من خمسين متراً ، واغضابها قد يقضي علينا ،

فأجبت: وهل من السهل أن نجد أسداً، فهذه فرصتي فلا تضيعوها.. إعطوني السلاح.

— مجاملة منهم — سلموني البندقية، فوضعت فيها رصاصة، ثم — وأنا جالس خلف مقود السيارة — صوبتها نحو الأسد الذي لا يزال يتمشى ببطء أمامنا، وأطلقت الرصاصة فإذا هي على ارتفاع عشرين متراً عنه.

كيف؟؟!! وأنا الذي اعتبر نفسي هدافاً.. ذلك لأن الذي أمامي أسداً، فبرغم شعوري بأننا نحمل سلاحاً، وفي سيارة، إلا أن للأسد هيئته. فطلبت رصاصة أخرى فحاولوا إثنائي مُصَّرين ألا أحاول ثانية، ومع هذا فالأسد لم يفزعه صوت الطلقة الأولى، ولم يفر بل ابتعدت عنه لبوئه مسافة عشرين متراً، في حين بدا الأسد كما لو كان متحدياً. وضعت الرصاصة الثانية فأطلقتها فإذا هي كسابقتها، هنا زاد إنفعالي وبخالة لاشعورية وجدت نفسي أفتح باب السيارة وأقف على قدمي على الأرض.

وطلبت رصاصة ثالثة، فردوا بغضب: — «إطلع العربية ماتودي نفسك في داهية» ولكني أصررت على الرصاصة. فقالوا: «يا أخي نحن عندنا أولاد لا نريد أن نكون طعاماً لهذين الوحشين»، فرددت بغضب: وهل أبنائي أرايب؟.. لا تضيعوا الوقت.. أعطوني رصاصة. فوقفت وأسندت البندقية على باب السيارة، وثبتت قدمي على الأرض، شددت البندقية إلى كتفي بقوة، كيلا تهتز، وأطلقت الرصاصة، فاخترقت بطن الأسد. وخرجت من الناحية الثانية. قفز معها حوالى مترين إلى أعلى ونزل على قوائمه الأربعة ثابتاً، وزار زارة اهتزت معها السيارة وقبلها قلوبنا، وفرت لبوئه حوالى مائتي متراً وقفت لتشهد المنظر القادم. هنا قفزت إلى السيارة مسرعاً وأدريت محركها، وابتعدت عن الأسد لأرى كيف سيكون الموقف.

لم يقع الأسد في حين الدم بدأ يسيل من جانبيه. هنا تشجع أصدقائي وبدأوا يعدون أسلحتهم... ولكن حدث ما لم يكن متوقفاً، ففي تفتيشهم لحقيبة الذخيرة لم يجدوا رصاصاً.. فقد نسوه في جوبا. وكل ما وجدوه طلقات لبندقية صغيرة تسمى

موريس ٢٢٢، أي بحجم طلقات المسدس . كل مشط يتسع لإحدى عشرة طلقة ، وتنطلق من فوهة البندقية أتوماتيكياً ، بمجرد الضغط على الزناد ، فبدأت أقود السيارة ببطء لأجعل جسم الأسد في اتجاه الهدف ليسهل ضربه ، فانطلقت الرصاصات متتالية ، فإذا بالأسد يدور حول نفسه كالمروحة .. انتهى المشط الأول فابتعدت عنه كي نُعَبِّئُها ثانية ، وفي هذه الأثناء خرجت بمعلومة جديدة فبسؤالى لماذا كان الأسد يدور حول نفسه ؟ ! قيل إن هذا الحيوان عادة إذا شعر أن شيئاً انغرس في جسمه يحاول أن ينتشله قبل أن يتولى الدفاع عن نفسه ، وبما أن الطلقات كانت سريعة ، فإنه كان يضع موضع الإصابة لينتشل ما انغرس في جسمه ، لهذا كان يدور حول نفسه من حيث لا يشعر . وبعد أن تمت تعبئة المشط بالطلقات اقتربت منه ، وانتهت الإحدى عشرة طلقة كسابقتها ، وبنفس الحركة ولم يقع الأسد . ثم عُبِّئُ المشط للمرة الثالثة وانتهى كما انتهى سابقه ولم يقع ، وكلما نبتعد عنه يتمشى في طريقه إلى لبوءته ، التي أصرت أن تقف حيث هي فتلك الزأرة لازالت تفزعها . وانتهى المشط الرابع أيضاً فثقلت هنا حركة الأسد . إننا نرى الدم يخرج كالنوافير من جسمه ، ولكن واحدة لم تصبه في الرأس لذلك كان متحملاً ، وبعد خمس طلقات من المشط الخامس وقع وأخذ يرفع ذراعه ويضرب بها على الأرض ، كما لو كان يعاتبنا بأننا عملناها فيه وقطعنا عليه خلوته .. اندفعت مسرعاً نحوه بالسيارة فليل لى إيتاك فقد يقفز علينا ، دعنا نقرب ببطء ، وكلما اقتربنا كانت الطلقات تتقاذف عليه ، فأفرغنا فيه باقى المشط ومشطاً آخر ، ولكن من يجرو لينزل من السيارة ؟ .. وأخيراً تشجعنا ونزلنا ، فقسته بقدمى فإذا بطول جسمه ستة أقدام ، وارتفاعه من على جنبه نائماً قدم ونصف القدم ، وذيله قرابة المتر . كنا نتفرج عليه ، والذين كانوا في قلق قبل ساعة من الآن أخذوا يتعاونون في رفع رأسه عن الأرض لكي يلتقطوا معه صوراً تذكارية ، (١) وبقي واحد مِنَّا واقفاً على السيارة ويده على الزناد ، وذلك ليس خوفاً من الذى بين يدينا ، بل من لبوءته التى كانت قد اختفت بجسدها خلف أعشاب عالية ترقب ما حدث لزوجها ، والخشية هنا أن اللبوءة أخطر من الأسد

(١) لم أوفق في إيجاد صورة واحدة لأضمنها هذا الكتاب .

فهي إن غضبت لا ترحم ، قطعنا أطراف الأسد لنحصل على مخالبه ، وكسرنا نصف مقدمة الرأس لنقتني أنيابه ، ثم فتحت جنبه بسكين حادة فإذا بطبقات الشحم أكثر من بوصة تحت الجلد . وعدنا .

خلال اليومين التاليين لم يغب هذا المشهد عن بالي ، وكنت كلما خلوت إلى نفسي أعاتبها عتاباً شديداً على ذلك التصرف .

إنني أجزى لنفسي أن أسميه تصرفاً متهوراً ، ذلك لأنني لم أعرض حياتي فقط لذلك الوحش ولبوءته ، بل حياة أربعة آخرين معي .

وبدأت أقارن بين ما فعلته أنا وما فعله مبارك أمام الجاموس ، فوجدت أن الموقفين أسوأ من بعضهما .



افضل استادس

مع جاری الاورب

في صيف عام ٧٧ حضرت أسرتي من الكويت ، فاعتبرتها مناسبة لأحصل من السيد أبيل على رخصة لاصطياد فيل ، لأن صيده ممنوع إلا بتصديق رسمي من حاكم الإقليم ، فلم يتردد بمنحى رخصة مجانية وقال : «إذا غرضك سن فيل لا تتعب نفسك في البحث عن فيل في الغابة ، يمكن أن نأمر بإعطائك سيئين كبيرين ..» شكرته وفضلت اصطياد الفيل لأن في ذلك متعة للأولاد... وهكذا وبعد يومين أخذنا كل ما يلزم من أكل وماء ووقود وعدد من الشرطة وحرس الصيد الذين سيكونون بمثابة أدلاء لنا في الغابة ، ثم ركبنا جميعاً ؛ الوالدة والزوجة والأولاد وحراسنا في سيارتين ، وتوجهنا إلى الغابة وعلى بُعد حوالي سبعين كيلومتراً في طريق مدينة يسي شمال غرب مدينة جوبا . طلب حراس الصيد منا الخروج من الطريق الرئيسي والدخول شمالاً في طريق سيارات لم يستخدم منذ سنوات طويلة ، وكلما ابتعدنا إلى الداخل كلما واجهتنا صعوبة ووعورة في الطريق ذات الأحجار الحادة والحفر الكبيرة ، وبسؤالنا لماذا أثني بنا في هذا المكان الوعر؟ قالوا : إن الأفيال لا تتكاثر إلا في مثل هذه المناطق ، وفعلاً كنا نرى آثار أقدامها واضحة على الأرض ، فالعُشْبُ سييء الحظ الذي تطأه تحت أقدامها الثقيلة لا يقوم ولا يرتفع ثانية ، والأرض المشه تنزل القدم فيها إلى عشرة سنتيمترات أو أكثر .

إرتفعت الشمس وتوسطت السماء ونحن لم نقطع من هذه الأرض الوعرة أكثر من عشرة كيلومترات ، تعبنا والدتي وزوجتي ، وحتى الأولاد الذين كانوا متشوقين لرؤية الفيل بدأ التعب يظهر على وجوههم ، وأنا بطبيعة الحال لست أحسن حالاً ، فأوقفت السيارة تحت شجرة كبيرة ثم وقفت السيارة الثانية ، وطلبت من مرافقيننا أن ينزلوا السجاد لنستريح ، ويقوم الطبايح بإعداد طعام الغداء ،

وحرس الصيد عليهم أن يتجولوا بالقرب منا لعلهم يرون أفيالاً ، خاصةً أن مرافقينا أفادوا أن صيد الفيلة إنما يتم بالتجوال على الأقدام وفي حذرتام ، وأن على الصياد بمجرد أن يرى فيلاً أو قطيعاً منها ، عليه أن يغير اتجاه سيره بحيث يكون عكس الريح كي لا تحمل رائحته إلى الفيل فيهاجه .. ذلك أن الفيل يعتمد على حاسة شمه أكثر من نظره الذي لا يمتد أكثر من مائة متر.

وبعد حوالي ساعتين سمعنا إطلاق نار بعيد ثم توقف .. تغدينا وبدأت الشمس تميل نحو المغرب ، فبدأ الملل يتسرب إلينا ، خاصةً أن أولئك الذين ذهبوا للبحث عن فيل لم يعودوا . والطريق إلى جوبا بعيد . فقررنا أن نترك ماء وطعاما وشرطيا بسلاحه ينتظر حرس الصيد ، على أن نعود لهم صباح اليوم التالي .

وصلنا جوبا بعد الساعة التاسعة ليلاً وسط ظلام دامس إلا أن ضوء السيَّارتين ، وقد أصاب منا التعب ما أصاب ، فلم تصدق الأسرة أنها وصلت حتى رمى كل منهم جسده على الأرض ، دون أن يستحم ليزيل الغبار الذي علق بجسمه وبلا أكل وراح يغط في نوم عميق .

في الثامنة صباحاً استأنفنا العودة ، وما إن دخلنا طريق الغابة وقبل أن نصل إلى حيث تركنا الشرطي يوم أمس ، إذا بحرس الصيد يستقبلوننا مستبشرين مهللين فرحين وهم يرددون . « أبشر .. أبشر يا سيادتك » فقد ضربنا فيلاً كبيراً وآخر هاجنا فأردينا قتيلاً .

شعر ابني صالح بالأسف بل وفاضت عيناه بالدموع لأنه لم يضربه بنفسه . ولم يشاهده حياً .

ضحكت من منظره هذا وقلت له : ماذا يا صالح ؟ هل كنت تتوقع أن يربطوه لك إلى جذع شجرة حتى تأتي وتطلق عليه رصاصاً ؟ .

قفز الحراس إلى السيارة الثانية وتقدمونا ليرشدونا إلى الفيلين .. في الطريق رأينا جمعاً من الأهالي يسировون حفاة إلى حيث نريد .. بعض التسوة يحملن أطفالهن وبعضهن يحملن أواني طبخ ، وعلى طول الطريق كنا نشاهدهم أفراداً وجماعات .

وصلنا إلى الفيل الأول.. فقال الحراس إنه الصغير الذى هاجهم . قاموا باستخلاص نابيته من الرأس ، بينما كان الأهالى يقطعون من اللحم وآخرون يوقدون النار..

وما هي إلا دقائق وقبل استخلاص النابين ، حتى كان الأهالى قد وضعوا شرائح اللحم على النار المتأججة .

توجهنا بعد رفع النابين إلى الفيل الكبير، فوجدنا الأهالى قد سبقونا إليه وبدأوا بشوي اللحم .

الفيل ضخيم ، أوقفت السيارة الجيب اللاندروفر على يمينه ، ونزلت فوقفت على يساره فحجب جسمه عنى رؤية السيارة .

إنه يزن أكثر من ثلاثة أطنان ، وأحد نابيه قد انغرس فى الأرض أكثر من نصف متر، لأن الفيل اتكأ عليه وهو يهوى بجسمه الثقيل على الأرض بعد ضربه .

إن استخراج النابين من رأسه استغرق أكثر من ساعتين . كان طبائنا خلالها يعد لنا طعام الغداء ، أما الشرطة وحرس القيد والأهالى — رغم إنشغالهم جميعاً فى فصل السنين من الرأس — فقد كانوا يقومون أيضاً بتقطيع شرائح مستطيلة من لحم الفيل ويضعونها على النار لمدة نصف ساعة حتى تنضج ، ثم يقطعونها بالسكاكين ليأكلوها .. تناولت منهم قطعة صغيرة ووضعتها فى فى فإذا بى كأنى أمضغ قطعة من عجلة سيارة .. وطعمها مُر فرميتها من فى .. وسألتهم أى جزء فى لحم الفيل أترف ويمكن تقطيعه بسهولة ؟ فقالوا .. إن لحم خرطوم الفيل هو ألد جزء فيه وأطيب ، فطلبت منهم أن يُقَطِّعُوهُ ويرفعوه فى السيارة .. إن طول مقدمة الفيل هذه (الخرطوم) حوالى مترين ونصف ، فقطعوها قطعاً صغيرة كل قطعة بطول حوالى ٣٠ سم ، ولكن لكي يرفعوها إلى السيارة ، كان اثنان يتعاونان على رفعها بواسطة جذع شجرة سميكة يدخلونه فى أنفه ، واثنان آخران يدفعانها إلى صندوق السيارة .

إننى سعيد بسنّتي الفيل .. إن طول كل منها حوالى متر وربع المتر، ويزن أكثر من خمسين رطلاً ، وهذا اللحم الذى رفعوه فى السيارة سوف أوزعه على

الأصدقاء في جوبا .. أما أقدامه الأربعة فقد طلبت من الأهالي تقطيعها من عند المفصل (الركب) ، واستخراج العظم واللحم منها والإبقاء على الجلد والخنف ، على أن أعود لهم في اليوم التالي لاستلامها وأعطيهم مقابل ذلك بعض المال ومواد غذائية .

في جوبا وزعت ما حملته من لحم على بعض الأصدقاء من الوزراء والجيران من حولي ، الذين ما إن وصلهم اللحم حتى توافدوا عليّ يشكرون وهنئون لأنني تمكنت من صيد فيل في يوم واحد ، لأنها تعتبر فترة قياسية .. ذلك أن صيد الفيل يحتاج إلى معسكر في الغابة لعدة أيام حتى ، يتمكنوا من صيد فيل يحمل سنين كبيرتين كاللتين حصلنا عليهما .

أما أنا فقد أبقيت لنفسى قطعة من ذلك اللحم تزن حوالى كيلو جراماً واحداً وأخذت بتقطيعها قطعاً صغيرة ، وضعت منها أربع قطع في مفرمة اللحم الكهربائية لأطحنها .. وما إن دارت الماكينة حتى انكسرت سكينتها الداخلية ، عجباً !!! أربع قطع صغيرة لم تتحملها السكينة الكهربائية .. ! ولم أعلق واكتفيت بأن هزرت رأسى معلناً استسلامى ، وقلت للطباخ والعاملين الذين كانوا ينظرون إليّ : أطبخوها وكلوها أنتم هنيئاً مريئاً .

في اليوم التالي حملت (جوالين) من الذرة ومبلغاً من المال وذهبت إلى الأهالي مع سائق وحارس واحد فقط ، وأنا أمشي نفسى بأني سأمتلك أربعة أقدام فيل كبيرة ، قطر كل واحدة لا يقل عن أربعين سنتيمتراً وأني سوف أزيّن بها صالون منزلى كطاولات صغيرة ، إلا أن فرحتى تبددت عندما علمت من الأهالي أنهم حتى الجلد لم يبقوه .. فقد أكلوه .. كيف .. ؟ .. الله وحده يعلم أن سُمك جلد هذا الحيوان الضخم حوالى ثلاثة أرباع البوصة .. خشن .. قاسٍ وله وبر حاد كالديبايس .. سألتهم مستغرباً (كيف أكلتوه ؟) !!!

رد أحدهم ببساطة .. ناكلوه (أى نأكله) .

لكن هذا جلد وقد تركت لكم لحم فيلين . !!! ؟

وعدت إلى جوبا أجرمى خيبة الأمل .

أما سيّنا الفيل فقد بعثت بها إلى نيروبي حيث تم تلمييعها وعمل قاعدتين جميلتين لها .

بعدها قررت أن أعود مع الأسرة إلى الكويت في إجازة، وقد حل مكاني مرة أخرى علي المنصور مدير الهيئة، لأنه كما قال استلطف جوجوبا المطر في مثل هذا الفصل من كلّ عام .

بعد انقضاء الإجازة عدت إلى الخرطوم في طريقى إلى جوبا، فعلمت من بعض الأصدقاء أنّ السفر إلى جوبا ممنوع، وهناك خطر على من يسافر لأنه يوجد مرض خطير ظهر في مديرية غرب الإستوائية في منطقة الزاندي، يسمى مرض «القرد الأخضر». وأنه مرض لا يرحم ضحيته ويقضي عليها في ساعات قليلة، ولهذا وضع الإقليم الجنوبي في «كرنيتينا» ومنع السفر منه وإليه .

إن إقامتى في الخرطوم لن تفيدنى، وعودتى إلى الكويت لن تفيد الهيئة، وعلي المنصور والمهندس عبدالمنعم عرفه، الذى لحق به ليطلع على سير العمل في مساكن المدرسين والمدرسات معه في جوبا وأن الحاجة لها في الكويت ملحة .. إذا عليّ أن أسافر إلى جوبا بأية وسيلة، وأنه إذا كان مقدراً لى أن أموت في السودان فالبقاء لله وحده .

في اليوم التالى سافرت على متن طائرة كانت تقوم بنقل مواد طبية إلى الإقليم، فكانت عودتى مصدر سعادة ومفاجأة لكلّ من علي المنصور والمهندس عرفة، اللذين لم ينتظرا طويلاً معى وعادا إلى الخرطوم على متن أول طائرة .

وبدأت أقوم كالمعتاد باتصالات مع الأصدقاء، وكان من بينهم الدكتور زاهر الذى كان يحرص أن يزورنى كل ليلة، بعد أن يقضي طوال النهار في المستشفى يعالج حالات ذلك المرض، ولم يضايقنى وجوده فقد أصبت بمرض الملاريا وعانيت منها .

بعد فترة إنقشع المرض، مات به من مات، وشُفي منه من شُفي، ورفع الحظر عن جوبا، واستأنفت الطائرات رحلاتها .



أوشكت انتخابات عام ١٩٧٨ . وهي تُجرى عادة كل أربع سنوات ، وأذكر وقتها أنه دار حوار بينى وبين البروفيسور السّماني عبد الله يعقوب مدير جامعة جوبا ، وكنت قد تعرفت عليه عام ١٩٧٦ وتوثقت علاقتى به . وفى هذا الحوار قال إن الانتخابات ستجرى بعد أسبوعين وطلب أن يعرف موقفى ، فقلت له إن هذه الانتخابات لاتعنينى فى شيء ، ولاأعتقد أن هناك جديداً سوف يحدث . أما هو فقال إنه سيفادر جوبا خلال فترة الانتخابات ، فهو لا يريد أن يزج بالجامعة فى المعارك الانتخابية ، حتى لا يحسب على أحد خلال فترة الانتخابات أو يفهم أنه مع فريق ضد آخر ، فاستحسن رأيه وراقب لى كذلك فكرة الابتعاد عن جوبا ، وقلت إن كل السياسيين هنا أصدقاؤى ، فجوزيف لاقو صديق يزورنى كثيراً فى بيتى ، وأبيل صديق وجدت منه كل تعاون . وغادر البروفيسور السّماني جوبا وأنا بعده .

وما عدت إلا بعد أن تشكلت الحكومة الإقليمية برئاسة جوزيف لاقو فذهبت وشكرت الحكومة السابقة على تعاونها معى خلال السنوات الماضية أثناء توليها السلطة ، كما هنأت جوزيف لاقو والحكومة الجديدة وتمنيت لهم التوفيق ومزيداً من التعاون مع مكتب دولة الكويت .

فى منتصف عام ١٩٧٨ ، وبينما كنت جالساً بعد الظهر تحت شجرة التيم فى المنزل ، دخل عليّ خمسة من الشباب وسلمونى خطاباً ، وكان الخطاب من أسرة نادي الهلال بجوبا ، وقد أخطرُونى فيه أنه وقع اختيارهم عليّ لأكون رئيساً فخرياً للنادي خلفاً للسيد/جوزيف لاقو الذى كان هو الرئيس الفخرى ، وبعد انتخابه رئيساً للحكومة أصبح راعياً لكل الأندية فى الإقليم ، ولا يجوز أن يكون راعياً لناد واحد فقط ، فأعربت لهم عن شكرى ، وبعد أيام أقيم حفل حضره السيد جوزيف لاقو وبعض الوزراء والمهتمين بشئون الرياضة ، وألقيت كلمة بوصفى رئيساً فخرياً للنادي وسألتهم عما إذا كان اختيارهم لى جاء لمعرفة سابقة بنشاطى الرياضى فى الكويت أم مجرد تكريم باعتبارى مواطناً مقيماً بينهم ؟ وفى كلتا الحالتين اعتبرت أن اختيارهم لى هو بمثابة تكريم للرياضيين الكويتيين ،

ووجهت لهم الشكر، وتحدثت عن تجربتي في المجالات الرياضية قبل مجيئي إلى جوبا .

خلال تلك الفترة أنجز مشروع الوحدات السكنية وكان ذلك عام ٧٨ ، وجرى إفتتاح كبير شارك فيه السيد جوزيف لاقو حاكم الإقليم وحضره المسؤولون في الحكومة الإقليمية وكل من سفيري دولة الإمارات والكويت في الخرطوم ، وفي هذا الاحتفال تحدث السيد/ لاقو فشكر دولة الكويت على ماتقدمه من خدمات ، وقال إنه لا يستطيع أن يفى شعب الكويت حقه أو يعبر عن مدى تقدير الشعب السوداني في الإقليم الجنوبي للشعب الكويتي ، لذا قرر إطلاق اسم الكويت على أحد الشوارع الرئيسية في جوبا ، ثم وجه حديثه لى قائلاً : أما أنت فلا أستطيع أن أوفيك حقك بالكلمات .

علم الرئيس نمري بذلك ، فقرر في نفس الشهر منحى وسام التيلين من الطبقة الثانية ..

وكانت المرحلة الجديدة هي إنشاء مستشفى للأطفال .. فلقد طلب الدكتور باسفيكو- وزير الصحة في حكومة لاقو- إنشاء هذا المستشفى لأنه لا يوجد مستشفى متخصص للأطفال ، وأبلغت الهيئة في الكويت بهذا الطلب . فوافقت واعتمدت الميزانية اللازمة لإنشائه .

بعدها تعرفت على مواطن أوروبى ، فقد كان الأوربيون يتوافدون بكثرة ولفترات طويلة ؛ منهم من جاء ليعمل في مشروعات تقوم بها دولهم ، ومنهم رجال كنائس ينتشرون في مراكز الإرساليات التبشيرية ، وهذه الإرساليات لا تقتصر مهمتها فقط على الناحية الدينية ، وإنما تُعَلِّم أبناء الجنوب أساليب الزراعة والحرف الصناعية واليدوية واللغات الأجنبية وأكثرها إنتشاراً اللغة الإنجليزية .

وهذا الأوروبى الذى تعرفت عليه ، لم يكن قادماً في زيارة سريعة ولم يكن لقائى به مصادفة ، وإنما كان جاراً لى . فقد كانت المنازل التى تجاور بيتى ومكتبى هي (بيوت جاهزة) يسكنها أورييون ، معظمهم من المؤسسات الدينية ، وهؤلاء يعرفون هنا باسم « الخواجات » ، ورغم أن هذه المنازل كان عددها ستة

ويسكن كل واحد منها أكثر من شخص، إلا أنه لم تكن هناك بينى وبينهم علاقة إلا إشارة باليد علامة التحية، إلى أن سكن بجوارى رجل فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره، ولازلت أتذكر ملاحه؛ له ذقن شقراء قصيرة، ونظارة طبية، نحيف الجسم، طوله حوالى مائة وسبعين سنتيمترا، جاء هذا الأوربى ليعمل بمجلس الكنائس العالمى وليس قساً، ولم يكن يفصلنى عنه سوى سلك شائك ومسافة ثمانية أمتار هي المسافة بين منزلى ومنزله، ومن السهل أن يرانى كل يوم أتناول الشاي فى المساء فى فناء المنزل (الحوش) وأراه وهو يعمل فى حديقة منزله الصغيرة، وكان لابد أن تنتهى هذه المشاهدة المتبادلة يومياً إلى دعوته لتناول الشاي معى، وأصبحنا بعد ذلك فى أكثر الأيام نتناوله سوياً.

كان حديثه معى عن الدين بشكل عام، وانتشاره فى الجنوب، وعن الإسلام، وكان يتساءل عما إذا كنا قد جئنا إلى هنا لنشر الدعوة الإسلامية؟ ثم توثقت علاقتنا فبدأ يطرح أسئلة متعمقة حول الدين. كان لا يتكلم اللغة العربية وكنت أتحدث معه بالإنجليزية، وقد أفادنى الحديث معه بتحسّن لغتى، حتى أصبحت أتحدث بها مع الجنوبيين فى الوقت الذى بدأوا يتحدثون معى فيه بالعربية.

ازدادت علاقتى بهذا السيد الأوربى، فراح يُمَدُّنى بالكتب؛ الإنجيل، والثرانيم وغيرها من كتب دينية، وكنت حريصاً ألا أخيب ظنه، واعتاد أن يسألنى عن الكتب التى يحضرها لى ويعيد شرح محتوياتها، ولم يجد منى أية غضاضة فى قراءة هذه الكتب أو رفضها، وقلت له إنى قرأت الإنجيل من قبل، والمسلم لا يكتمل إسلامه إلا بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والمسيحيون هم من أهل الكتاب.

ومع مرور الأيام توثقت علاقتنا إلى حد يسمح له بالآتيحرج من قول ما يريد، فسألنى ذات يوم بشكل مباشر: لماذا اخترت جنوب السودان للعمل فيه، وليس فيه أية وسيلة من وسائل الحياة الموجودة فى الكويت؟ وكيف رضيت أن أتخلّى عن تلك الحياة المريحة فى الدولة الغنية المتقدمة وأعيش فى هذه المنطقة المتخلفة؟ فأجبتة بمثل ما سأل، لماذا هو الآخر ترك أوروبا المتحضرة المليئة بكل وسائل

الرفاهية والراحة وجاء ليعيش هنا؟ فقال إنه في مهمة، فأجبت: وأنا موظف حكومي عليّ أن أعمل في أيّ موقع، فلم يقنعه جوابي، ونظر إلى الأمر من زاوية مالية فلا بد أن حكومتى تمنحني حوافز مالية أكثر لكي أترك بلدى لأعمل في هذه المنطقة الصعبة، ولم أعترض على رأيه، وقلت له ربما يكون هذا سبباً أيضاً، المهم أن نقوم معاً— نحن وأنتم— بعمل من أجل هؤلاء الناس الذين نعيش معهم الآن..

كان الحديث يدور بينى وبينه هكذا قرابة ثلاثة أشهر. واعتبرته حديثاً عادياً بين جارين ابتعد كلّ منهما عن موطنه ونجعت بينهما الغربة، لكن يبدو أنه كان يعدّ لشيء آخر، عندما تصوّر أن مشكلتى مالية وأنه يستطيع أن يجد لها حلاً دون أن يذكر الوسيلة لتحقيق ذلك ولكنى أذكر أنه قال بالحرف: إذا كانت مشكلتك مالية نستطيع أن نجد لها حلاً!

ومرة أخرى أكد ما يعنيه عندما قال: المشكلة ليست بوجود مكتب دولة الكويت ولكن المشكلة أنت شخصك، ونحن على استعداد أن نعطيك مايكفيك من مال حتى لو كان مليون دولار.. هكذا فهمت منه.. إن وجود مكتب الكويت غير مهم.. والمهم هو أن أغادر أنا وأطلب ماأشاء.

وبما أن بيتى لا يخلو في أيّ يوم من الأصدقاء ولا سبياً المسؤولين، فقد اعتقد جارى أنني أسعى بتكليف من حكومتى لإدخالهم في الدين الإسلامى، وأني على وشك تحقيق ذلك.

وليته علّم أن هذا ما كان هدفى ولا غايتى، ولا هو تفكير حكومتى، ولم أحاول يوماً أن أتكلّم مع أحد في السياسة أو في الدين، فكل ما كنت أقوم به لا يعدو عن كونه تقليداً عربياً في حب الناس واستضافتهم.

كان إخلاصى في العمل وصداقتى مع السودانيين؛ من مسئولين ومواطنين في الشمال والجنوب هو غايتى وقناعتى، وقد تحققت ثمار ذلك وحصلت على أوسمة الحب والوفاء، لكن صديقى (الخواجة) لم يستوعب ذلك فعرض عليّ ترك مكتب الكويت، وكان الموضوع بالنسبة لى بمثابة نكتة فقلت له— بجمالة— دعنى أفكر

هل أقبل أم لا ، لأنني اعتبرت عرضه هذا مجرد أمنية يتمناها جار لجاره ، أو أنه قالها باعتبارنا صديقين جمعتنا الغربة ، ولكنني لمست جليته عندما كرر ذلك ولمدة أربعة أيام متتالية ، إنه ينتظر ردى ، فقلت له : — إنني أعتذر عن قبول عرضه وسوف أستمري في عملي .

أحسست أنه فقد الأمل تماماً .. وخاب ظنه في صديقه العربي القادم من الكويت . فبدأت زيارته لى ثقل ، وكان قد مضى على معرفتى به ستة أشهر .. وذات يوم حضر لزيارتي وقال : — إنه جاء ليودعنى لأنه سيعود إلى بلاده بعد أن فشلت مهمته .

كانت دهشتى كبيرة .. لأن صديقى الأوربى لم يستوعب موقفى وأنّ وجودى فى جنوبا لم يكن لأي غرض سياسى أو دينى ، وإنما من أجل السودان الذى له حق علينا كبلد عربى شقيق .

وسافر صديقى الأوربى .. الذى حفزنى موقفه على أن أقدم المزيد من العمل والجهد من أجل السودان وسمعة الكويت .



افصل استابع

مع الأمير وولى العهد

اكتشفت بعد فترة أن صديقي الأوربي لم يكن وحده الذى تساوره الشكوك حول مهمة عمل مكتب دولة الكويت فى جوبا، بل إن هناك آخرين يظنون ظنوناً شتى، لكن الذى يجب أن أسجله هنا، هو أنني قد وجدت كل تعاون من المسؤولين على اختلاف إتجاهاتهم، ومن كل الحكومات التى تعاقبت (ست حكومات) خلال فترة وجودى فى الجنوب، ولعل استمرار عمل المكتب مع تغيير الحكومات أثار الكثير من التساؤلات، والواقع إنني لم أضع فى اعتبارى مثل هذه أو تلك، وحتى موقف الصديق الأوربي اعتبرته مسألة فردية، إلى أن حدث ذات يوم أن زارنى صحفى من أبناء إقليم الإستوائية، وكان ذلك عام ١٩٨٣ وطلب مني الإدلاء بمحديث حول خدمات المكتب ومشروعاته المستقبلية، ووضع أمامي أسئلة مكتوبة وأخرى غير مكتوبة وفوجئت بسؤال منه غير مكتوب يطرحه باللغة الانجليزية بما معناه:

لقد تغيرت حكومات كثيرة فى الجنوب، ومكتب الكويت مازال مستمراً..

لماذا؟

دهشت من صيغة السؤال، وأجبت بأن حكومة وشعب الكويت لا تقدم خدماتها للحكومة معينة، وإنما للشعب، فالشعب هو الباقي، ونحن لانتعامل مع الحكومة إلا من خلال موقعها كسلطة توجه سياسة الإقليم وتحدد إحتياجاته، وتطلب منا ما تريد من خدمات، ونحن نتعامل بوصفنا واجهة الحكومة أخرى هي دولة الكويت.

وأضفت:

وأرجو أن تسجل ما أقول على لسانى كمسئول، وهو أنه لم يحدث أن قدم

المكتب أية خدمات خاصة لأي مسئول على أي مستوى ، ولم يحدث أن حصل أي شخص حتى على (جوال) أسمنت لنفسه ، فالمكتب مكتب خدمات للشعب السوداني ، ولا يرجو من ذلك الحصول على مكاسب سياسية أو تبشيرية ، وإنما هو تعبير عن محبة أخوية من الشعب الكويتي إلى أشقائه في السودان .

ثم طرح الصحفي سؤالاً آخر، لم يكن من الأسئلة المكتوبة أيضاً بما معناه :
إن البقرة لا تعطيك لبناً ما لم تطعمها ، فإذا أعطى جنوب السودان للكويت ؟
أزعبجني السؤال فدعوت موظفي المكتب ، وكانوا خمسة أشخاص هم المهندس والمحاسب والطبايع والسكرتيرة ، وقلت لهم : — اسمعوا هذا السؤال ، وقرأته عليهم ، ثم أجبته منفعلاً :

— الخواجبا (١) معكم منذ أكثر من ستين عاماً فإذا أعطيتموه كي يستمر؟
ونحن لسنا واجهة لمنظمة بل نحن واجهة لدولة ، والعلاقة بين السودان ودولة الكويت علاقة الأخ بأخيه ، ولا تنتظر دولة من الأخرى أن تقدم لها شيئاً مقابل عمل تقوم به .

ثم أضفت :

وهذا المكتب ليس شركة تبحث عن الربح المادي أو السياسي ، ولكنه لتوثيق العلاقات بين الشعبين الشقيقين وليس بين الأشقاء حساب .. هذا ، ماذا قدم .. ، وذلك ماذا أعطى ؟ .

وحتى الإعلاميين الآخرين لمست عندهم ذات الشعور، ففي عام ١٩٨٣ أعلن الرئيس نميري تقسيم الجنوب إلى ثلاثة أقاليم ، وكنت يومها في إجازة خارج السودان ، وعندما عدت ، استقبلني في المطار مندوب إذاعة جوبا وسألني عن رأيي بعد التقسيم وهل دولة الكويت مع أم ضد التقسيم ؟

ضحكت وقلت : تأكد يا صاحبي أن دولة الكويت لا يعنينا هذا الموضوع في شيء من قريب أو من بعيد ، فالبلد بلدكم وأنتم أصحاب القرار. فهي مسألة

(١) أي الأوربي .

تخص أهل السودان وحدهم ، ولكن ما يهم الكويت هو أن مكتبها سيستمر في تقديم خدماته طالما أن حكومة السودان تريد ذلك .

أكثر هؤلاء غرابة ، وزير أثنى في نهاية عام ١٩٨١ قبل تقسيم الجنوب وقال :— إننا— أتي هو ومجموعته من فئة معينة في تلك الحكومة— قررنا أن ننافس في الانتخابات القادمة وأنه يرجو مني باعتباري صديقاً أن أطلب من النواب الذين نهم بهم (أي الذين ندعمهم لينجحوا ولنا تأثير عليهم) أن يُصوتوا لهم .

أجبتة : أنت عضو في الحكومة ، هل سمعت أو لمست أن مكتب الكويت أو عبدالله شخصياً وقف إلى جانب أحد في أي انتخابات .. ؟ ولم أنتظر منه رداً فواصلت : إنني أعذرك فأنت جديد في جوبا ولكي أطمئنك والآخرين معك .. إنني مسافر غداً حتى تنتهي انتخاباتكم .

كذلك عندما زارني مسئول في مكتبي وقد أعفني من منصبه ومعه اثنان من الوزراء حيث قال :

ماذا يقول المسئولون في الكويت عن هذا التغيير الذي حصل ، وهل يرضيهم ذلك ؟

أجبتة بابتسامة :

لو سمعتم أنتم أن الحكومة الكويتية أقيمت بكامل أعضائها ، فهل ستخذون موقفاً ؟

فهم ما أعنى وقال .. أنت على حق .

ومثل هذه التساؤلات لا تزال قائمة تُطرح بين الحين والآخر ، وهي تعكس حاجز العزلة بين جنوب السودان وسائر البلاد العربية ، نتيجة لسوء الفهم الذي أوجدته الحرب الأهلية بين شمال السودان وجنوبه ، على امتداد سبعة عشر عاماً ، وكان الرد على هذه التساؤلات هو الاستمرار من أجل تقديم الخدمات غير المشروطة ، وهذا في رأيي أفضل السبل لإزالة هذه الحواجز وهو ما شعرت به أثناء وجودي هناك ، فلم أشعر في يوم من الأيام أنني بعيد عن أي بلد عربي .. وازداد اقترابي من الجنوبيين عاماً بعد عام .

ورغم أنهم يصفون أنفسهم بأنهم أفارقة زنوج وليسوا أفارقة عربا ، فبعضهم يرى أن تسعين بالمائة منهم ينتمون إلى أفريقيا ، وعشرة بالمائة إلى العرب ، وآخرون يرون أن ٦٠% إلى أفريقيا ، و٤٠% إلى العرب ، وفي كلتا الحالتين فإن نسبة الانتماء إلى أفريقيا الزنجية تغلب على نسبة إنتمائهم إلى أفريقيا العربية .

وهذا الاختلاف في نسبة الانتماء يعكس أيضا اختلافاً في الآراء والاتجاهات ، نظراً لتعدد القبائل وتعدد اللغات واختلاف في بعض العادات ، وربما كانت هذه التعددية سبباً من أسباب التزايدات التي تحدث بينهم بين الحين والآخر ، وقد كنت حريصاً طوال فترة إقامتي ألا أتدخل في قضاياهم السياسية أو أعاطف مع فريق ضد آخر ، فكنت أتعامل معهم على أساس مجتمع واحد ، أما خلافاتهم السياسية فهذا أمر يخصهم وحدهم ، والأمر الذي لا تعلمه الهيئة التي كنت أعمل لديها في تلك الفترة وحتى الآن ، أنني كنت أوقفت دائماً لإجازاتي مع فترة الانتخابات الإقليمية إلى أن تنتهي وتشكل الحكومة ، حتى لا يفسر بقاىي أنني محسوب على فئة دون الأخرى ، لأن كل الذين يتنافسون على السلطة والانتخابات هم أصدقاء شخصيون لى . لهذا أتجنب إحراجهم وإحراج نفسى خلال فترة وجودى خشية أن أزور واحداً منهم خلال هذه الفترة ، فيظن الطرف الآخر أنني مؤيد لهذا وأدعمه ، وحتى التجار الذين كنت على معرفة بهم جميعاً لم أحاول خلال فترة إقامتي في جوبا أن أوثق علاقتى بأى منهم ، ذلك أن كل واحد منهم له مصالحه مع السياسيين ، ويدعمهم وفق مصالحه أثناء الانتخابات ، ولهذا آثرت الابتعاد عنهم ، كي لا يفسر الإخوة الذين يتنافسون على السلطة ، أنني أمول ذلك التاجر وهو بدوره يمول ذلك السياسى ، فقد كان بيتى مفتوحاً دائماً لكل الشخصيات السياسية في الجنوب ، ولم يكن يدور أبداً حوار حول أية أمور سياسية ، ولذلك كان شيئاً عادياً أن تلتقى جميع الأطراف في بيتى ، وذلك لعلمهم أن واحداً لن يتحدث في شئون سياسية ، وأسعدنى أن سمعت تعليقا من أحد الوزراء ذات مرة حين قال :

— إننا في بيتك عندما نلتقى يتشكل منا مجلس وزراء كامل النصاب ، لكن بدون أجندة أو لائحة موضوعات .

أعود إلى أوراقى عام ١٩٨٠ وقرار الرئيس غيرى بتغيير حكومة جوزيف لاقو بحكومة أبيل . فقد قامت هذه الحكومة بوضع خطة للتنمية شملت تصور الحكومة لمشروعات الإقليم فى المستقبل ، وزارنى السيد بوناملوال وزير الصناعة الإقليمى فى ذلك الوقت ، وأحضر لى تقريراً عن المشروعات فى شكل كتيب ، وأبلغنى أنه سيقوم بجولة إلى دول الخليج العربى للحصول على مساعدات وقروض لتمويل هذه المشروعات . وبالفعل قام السيد/ملوال^(١) بزيارة لهذه الدول ، وفى الكويت إلتقى بمحضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح ، وأطلع سموه على تقرير المشروعات التى تحتاج إلى دعم من الكويت ، فطلب منه الأمير أن يسلمنى هذا التقرير ليناقشنى فيه .

عاد السيد / ملوال من الكويت وأطلعنى على تفاصيل ماحدث ، وسلمنى التقرير .

وفى طريقى إلى الكويت توقفت فى الخرطوم ، حيث أصدر مجلس إدارة الشركة الكويتية للاستثمارات الخارجية للتجارة والمقاولات قراراً بتعيينى مديراً للشركة بالخرطوم ، بعد أن ترك مديرها السابق منصبه ، على أن أتسلم عملى الجديد إعتباراً من ١٩٨١/١/١ ، فوافقتُ ووقعت عقداً مع رئيس مجلس الإدارة الذى تصادف وجوده فى ذلك الوقت فى الخرطوم وتسلمت قرار التعيين .

هكذا سافرت إلى الكويت فى عمل حكومى ، وفى جيبى عقد عمل أباشره بعد ثلاثة أشهر من الآن .

تشرفت بمقابلة صاحب السمو الأمير ، وكان بادياً عليه الاهتمام الجاد ورغبته فى معرفة احتياجات الأشقاء فى الجنوب .

وراح يسألنى عن تفاصيل المشروعات التى يقوم المكتب بتنفيذها والتى سيقوم بها مستقبلاً ، فأجبتته بالصراحة والصدق التى اعتدنا عليها فى الكويت :—

(١) من قبيلة الدينكا وكان يشغل من قبل منصب وزير الإعلام فى الحكومة المركزية والناطق الرسمى للحكومة السودانية ومن مؤيدى حكومة أبيل الير .

— طالما أنني الآن في حضرة سموكم بدعوة شرفتموني بها ، فأرجو
أن أستأذن سموكم السماح لى بالتقاعد .

كان سموه جالساً إلى مقعده ، وعندما ذكرت كلمة (التقاعد)
أسند ظهره إلى الوراء ، وسألنى بلهجة جادة :
— لماذا ؟ .. الآن وقد أسماك إخوانك هناك (عبدالله جوبا)
تتركهم ؟ ..

أجبت : —

— إنني لن أترك السودان ، فعملى الجديد لازال فيه ، وآمل أن يُنمَّ
من سيخلفنى هناك مابدأته ، ذلك أنني تعاقدت مع شركة كويتية
للعمل مديراً لمشاريعها فى الخرطوم ، وهذه فرصة لأجرب العمل فى
القطاع الخاص بعد أن خدمت الحكومة بما فيه الكفاية ، ثم إن آخر
مشروع أنفذه أوشك على الإنتهاء وهو مستشفى الصّباح للأطفال .
— إبتسم سموه وقال :

— عد إلى مكتبك .

— قلت ، وقد عوّدنا سموه عدم التلق وتصبح الحديث : —

— هل هى رغبة سموكم ؟

اكتفى بابتسامة ، فشكرته ، وتوجهت على الفور إلى مقر الشركة
الرئيسى ، وقابلت مديرها وسلمته خطاباً رسمياً باعتذارى عن قبول
المنصب كمدير لفرعها فى الخرطوم .

كان حديثى مع صاحب السمو الأمير يوم الأربعاء ، ومجلس الوزراء يجتمع عادة
كل يوم أحد . وفى صباح يوم الاثنين إتصل بى مسئول بمجلس الوزراء وطلب منى
الحضور إلى هناك ، حيث أبلغنى أن الحكومة اعتمدت مبلغ ثلاثة ملايين دولار
لإنشاء وحدات سكنية فى جوبا ، وهى من بين المشروعات التى كانت الحكومة
الإقليمية قد وضعتها فى برنامج التنمية ، كما أبلغنى أن سمو ولي العهد يطلبنى
لأقابه .

أعرف أن سمو ولي العهد لا يختلف عن صاحب السمو الأمير في تواضعه وبساطته وصراحته مع الآخرين وعندما دخلت إلى مكتبه .

— بادرني بقوله :

— مبروك .

— قلت : — أشكر سموكم ولكنني أتمنى أن أخرج بشيء منكم .

— قال : — وما ذاك ؟ .

— قلت : —

— قبل قيامي بهذه المهمة تحدث معي السيد/أبيل ، وقال إن دولة الكويت قدمت مشكورة الكثير لجنوب السودان ، ولكنها حتى الآن لم تقم بإنشاء مشروع للمسلمين .

— قال سموه :

— وماذا تريد ؟

— قلت :

— طالما أن هذه الرغبة أتت من الحكومة الإقليمية ، فأرجو أن نقوم بإنشاء مسجد متعدد الأغراض ليقدم إلى جانب العبادة أغراضاً أخرى .

فطلب مني أن أعد تقريراً حول هذا المشروع مع ذكر التقديرات اللازمة له ، وكتبت تقريراً ضمنتته تصوري لهذا المسجد ، بأن يكون متسعاً ويستوعب أكثر من ألف مصلي ، وبه مكتبة دينية وقاعة محاضرات ومنزلان ؛ أحدهما للإمام والآخر للمؤذن ، وأن يضم اثني عشر دكاناً كبيراً ، يكونون وفقاً لمرتبة الإمام والمؤذن وصيانة المسجد ، وقدرت لذلك مبلغاً ، ثم سلمت التقرير إلى مدير مكتب سموه . وفي الاجتماع التالي لمجلس الوزراء أقر المشروع .

طلبت بعد هذا موعداً لمقابلة حضرة صاحب السمو الأمير وآخر لسمو ولي العهد لتوجيه الشكر إليهما . وأذكر أنني قلت لسمو الأمير :

إنَّ أمر سمّوكم لى بالعودة إلى عملى هو تقدير شخصى لى ، أعتزُّ وأفخر به ، وسوف يذكره أبنائى من بعدى ، وما أعتد من مبلغ هو هدية قيّمة من سمّوكم لأشقائكم فى جنوب السودان ، كذلك أعربت عن شكرى فى مقابلتى لسمّو ولي العهد ، لكنى أضفت مطلباً آخر رأيت أن يتم تنفيذه هذه المرة من المال الخاص لسمّوّه .

فسألنى كعادته :

— وما ذاك ؟

— قلت : —

هناك مواطنون مسلمون يقيمون فى منطقة تسمى جبل (لادو) فى جنوب السودان يبلغ تعدادهم نحو ستين ألف نسمة ، وكانوا قد أوفدوا إلّى مشايخهم وأبلغونى أنه لا يوجد فى منطقتهم مدرسة ولا مصحة ولا مسجد صغير يؤدون فيه الصلاة ، وأنهم يأملون أن ينفذ لهم مكتب الكويت مشروعاً صغيراً فى منطقتهم ، وبما أنى فى مجلس سمّوكم فإننى أتمنى تمويل هذا المشروع من مالكم الخاص .

— فقال على الفور :

— وكم تقدر لهذا المشروع ؟

فكرت لحظات ، فلم أكن قد زرت تلك المنطقة — لأن الطريق إليها وعراً — رغم أنها لا تبعد عن جوبا أكثر من خمسين كيلومتراً ، وذكرت رقاً تقديرياً يكفى لبناء مدرسة صغيرة ومستوصف صغير ومسجد صغير .

— رفع سماعة التليفون وتحدث مع مدير مكتبه وسمعته يقول :

— اكتبوا لعبد الله شيكاً بخمسين ألف دينار..

صرقت الشيك وحولته إلى دولارات ثم إلى جنيهات سودانية وأودعت المبلغ باسم سمّوّه فى حسابات المكتب .

كما سلمنى الشيخ فهد الأحمد الجابر الصباح مبلغ عشرين ألف دينار لبناء مسجد فى إحدى مدن الجنوب ، وقد تم إنشاؤه فى مدينة يامبيو (غرب الإستوائية) عام ١٩٨٢ .

افضل ايشامن

أفراح .. وأتراح

فى حياة كل إنسان مواقف تبعث على السعادة وأخرى تثير الأحران ، وهذا أمر طبيعى يتفق مع سُنّة الحياة ، وبقدرماتكون لحظات الفرح مليئة بالسعادة بقدرماتكون لحظات الحزن مفعمة بالأسى ، وكان من الطبيعى خلال سنوات متصلة أن أواجه أثناء إقامتى فى جنوب السودان مواقف مفرحة وأخرى محزنة ، فَمَما سَرَتنى وأدخل البهجة فى نفسى أن أحصل على وسام ، ثم بعد سنوات تمنحنى جامعة جوبا درجة الدكتوراه الفخرية مع أساتذة أجلاء ورجال سياسة لهم دور فى صياغة وتحقيق السلام فى بلادهم ، وأن تختارنى بِلادى سفيراً لها فى الخرطوم ، وأن تقم لى كلّ الأنديّة الرياضيّة هناك (ثمانية أنديّة) مهرجاناً رياضياً كبيراً شاركت فيه بكل فرقها ، وحضره جمهور ضاقت به مدرجات وساحات الملعب ، وعلى رأسهم حاكم الإقليم وحكومته ، فهذه كلها أمور أحسبها علامات نجاح فى ظروف صعبة تطلبت قدرة على التحمل ، ورؤية الجانب الطيّب من الأشياء ، والتغاضى عن مشاعر الجحود والتكران من البعض ، وكان ذلك أفضل السبل لمواجهة هذه الظروف . ومن جانب آخر كانت الحياة تأخذ ولاأرى فيها إلاالأحران ، وذلك عندما تلقيت نبأ وفاة والدتى ، ثم بعدها بعامين وفاة والده زوجتى ، وهى بمشابة أُمى الثانية ، ومواجهتى وأسرتى لمواقف حرجة بسبب سوء المواصلات ورحلة نيروبي ثم رحلة جوبا الخرطوم ونحن معلقون بين السماء والأرض ولاأعرف مصيرى ومصير أبنائى فى طائرات تثير الفزع ، وفى النهاية ، هذه هى الحياة بأفراحها وأحزانها .. كلمات وجدت نفسى أسطرها قبل أن أعود إلى تفاصيل بعضها .

الأفراح :

١- أن أُمْنَح اسم مدينة في مناسبة رسمية عام ٧٦ ليس بالأمر الهين ، وبذا أكون أول كويتي ، إن لم أكن أول عربي ، يلقب رسمياً باسم مدينة ليست في وطنه الأصلي ، لذا فإنني أشعر بسعادة غامرة عندما أنادى (عبدالله جوبا) .

٢- أن أُمْتَح وساماً وأنا لأزال في مهمتي هو تقدير كبير، ذلك لأن مثل هذه الأوسمة ، تُمنح عادة لمن يغادر مودعاً وقد قدم خدمات جليلة خلال فترة إقامته .

٣- أن تمنحني جامعة جوبا(١) درجة الدكتوراة الفخرية في الآداب في ١٥ ديسمبر (كانون ثان) ١٩٨١ ، شيء يبعث السرور في النفس ، ذلك لأنها مؤسسة علمية لاتمنح مثل هذه الدرجة إلا بعد تدقيق وتمحيص شديدين ، شأنها في ذلك شأن أي مؤسسة علمية .. فقد كانت تعد للاحتفال بمناسبة تخريج أول دفعة من طلابها ، ورأت إدارة الجامعة أن تمنح درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب لعدد من السياسيين الذين أسهموا في تحقيق السلام ، ووقعوا إتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢ .. فتقدم مدير جامعة جوبا البروفيسور عبدالرحمن أبوزيد باقتراح لمجلس أساتذة الجامعة ، بأن يشملني ذلك التكريم في تلك المناسبة ، فأجاز المجلس بالإجماع منحي شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب ، ولقد قام بتزكيتي لدى الجامعة عدد من الأصدقاء ، على رأسهم اللواء عبدالله محمد عواض قائد الفرقة الأولى في جوبا . وفي المساء حضر إلى بيتي البروفيسور أبوزيد واللواء عواض ، هُتَّأني وأبلغاني أنني أحد الذين ستكرمهم الجامعة غداً في يوم التخرج ، وأقيم الاحتفال الذي شهده المرحوم البروفيسور النذير دفع الله وزير التربية والتعليم وآلاف من أبناء الجنوب ، وتحولت ساحة الجامعة إلى مهرجان كبير ، والفرحة تملأ قلوبهم وهم يرون أبناءهم يتخرجون من جامعتهم لأول مرة بعد سلام قد تحقق ، وأصبح هذا

(١) أنشئت عام ١٩٧٧ وبها عدة كليات .

الصرح العلمى شاهداً على ذلك ، ووجدت نفسى بين إخوة سياسيين وأساتذة من جامعتي الخرطوم وجوبا ، أرتدى معهم (الروب الجامعى) وأنا بملابسى الكويتية .

ومن الذين حصلوا معى على درجة الدكتوراه الفخرية : — هلمرى باولو لوجالى ، بيجات كوت ، أبيل الير ، وجوزيف لاجو ، وهم من السياسيين الجنوبيين ، ومن الأساتذة : — البروفيسور محمد عمر بشير ، والمناضل ولسون مانديلا الأفريقى المعتقل فى سجون جنوب أفريقيا ، وتسلمها بالنيابة عنه سفير تنزانيا بالخرطوم ، وكذلك السيد/ سر الحتم خليفة رئيس وزراء سابق خدم كثيراً فى الجنوب وقد اعتبرت هذا التكريم تكريماً لشعب الكويت ، وفاءً من السودان لما قدمه مكتب الكويت من خدمات ومشروعات فى ذلك الجزء الثانى من وطننا العربى ، وقد كان لذلك ردود فعل إيجابية فى الصحافة الكويتية التى أشادت بمبادرة جامعة جوبا .

٤ — أن تقيم الأندية الرياضية مهرجاناً رياضياً كبيراً وتقدم كأساً باسمى تتبارى على الفوز فيه كل فرقها ، أمر أجله وأقدره .

٥ — وأن يقول أحد المسئولين^(١) أمام جمع غفير وبدون حضورى : إنه من لم يعرف منكم العرب أو لم يسمع عنهم ، فليذهب ويقابل عبدالله ، وهذا يكون عرف كل العرب ... شهادة أعتز بها .

٦ — وفى أكتوبر عام ١٩٨٢ دعانى محافظ شرق الاستوائية السيد كاجوك لزيارة مدينة توريت مقر المحافظ التى تبعد عن جوبا بحوالى ثمانين كيلومتراً .

وهناك أجري لى إستقبال رسمى وأقيمت احتفالات شعبية بهذه المناسبة ، رقصت فيها مع الأهالى ، لأنه عادة عندما يقام لضيف رقصات شعبية على إيقاعات البطبول ، فإن على الضيف أن يجامل ويدخل الحلبة معهم ولو لدقيقة واحدة ، وما إن نزلت وسطهم حتى ربطوا حول وسطى جلد قرد ، ووضعوا بيدي حربة طويلة ورحت أدور معهم (وأنط) كما ينظون وأضرب بقدمي الأرض كما

(١) اللواء روبن مايك مدير شرطة الإقليم الجنوبى ١٩٧٩ م .

يفعلون، فاقترَبَتْ مني سيدة عجوز بيدها إناء فيه دقيق أبيض (طحين)، ملأت كف يدها وراحت تطوف به على رأسي ووجهي وحول رقبتى، وبما أن جسمي مبتل (عرقان) فقد لصق الدقيق به على الفور، ولم تظهر إلا عيناى وسط تصفيق الأهالى، لأن هذا يعتبر تكريماً للضيف الذى نزل وشاركهم حفلهم.

تحدثت فى حفل الإستقبال وقلت: - بما أنني ضيفكم ولمدة يومين فإن أى امرأة تلد فى مستشفى توريت سأمنح طفلها خمسين جنياً.

وشاء الله أن تلد ثلاث سيدات؛ إحداهن أنجبت تووما؛ ولد وبنت، وأخرى أنجبت طفلة، والأخيرة أنجبت ولداً، وهى زوجة لعميد شرطة سابق متقاعد اسمه السيد ديسان من أهالى المنطقة ويشغل الآن وظيفة قاضٍ فى مدينة توريت، سمى وليده «عبدالله السريع» وسجله فى شهادة ميلاده تكريماً لى بمناسبة زيارتي لمنطقتهم وليؤكد عبر هذه التسمية عن محبة وإمتنان واعتزاز الجنوبيين لما تقدمه دولة الكويت من خدمات لهم.

لا أدري إن كنت سأعيش لأرى هذا الطفل رجلاً. ولكن إذا حصل وزار هو الكويت فلي تذكر أهلى، عندما يرون اسمه مطابقاً لاسمى، حياتى التى أمضيتها فى جنوب السودان.

٧- وكذلك اللواء قسم الله عبدالله رصاص رئيس المجلس التنفيذى الانتقالى للإقليم الجنوبى عام ٨٢، بعد أن قام بوضع حجر الأساس لمشروع القرية السكنية، قال إنه لو كان رئيساً منتخباً وليس معيناً بصفة مؤقتة لأطلق اسمى على أحد ميادين جوبا.

٨- وأيضاً المهندس جوزيف طمبره حاكم الإقليم، بعد أن أقام لى حفل عشاء رسمياً ليلة مغادرتى، حضر كذلك فى صباح اليوم التالى إلى المطار لوداعى ومعه المحافظ وبعض أعضاء حكومته وجمع غفير من الأصدقاء وكبار ضباط القوات المسلحة، وانتظروا جميعاً حتى إقلاع الطائرة، أمر يشدنى إلى السودان وإلى ذلك الجزء منه.

٩- وأن يقول لى غيرى يوم تقديم أوراقى له سفيراً: - إنك أصبحت جزءاً من تاريخ جنوب السودان الحديث، وإنَّ أتى مؤرخ يكتب عن الجنوب بعد إتفاقيّة الوحدة عام ٧٢، ولا يذكرك، يكون قد جهل دورك وماقدمته أنت وبلدك هناك .
هكذا عبّر الشعب السودانى عن تقديره لمن تحمّل وصبر وعمل معهم مخلصاً .

ومن الكويت

١- أن يطلب منى جابر الأحمد العودة إلى عملى .. تكريم ما بعده تكريم ،
وفضل لن أنساه .

٢- وأن يكتب لى سعد العبد الله شيكاً باسمى وليس باسم أي جهة
رسمية .. ثقة أتمنى دائماً أن أكون أهلاً لها .

٣- وأن يتوج صباح الأحمد جهودى باختيارى سفيراً بوزارة الخارجية ثم سفيراً
لحضرة صاحب السمو الأمير لدى رئيس جمهورية السودان الديمقراطية .. شرف
يطمح له كل مواطن مخلص ، وهو دليل على أن الوطن يعطي بقدر ما يقدم المواطن
له .

هذا بعض ما أردت ذكره عن أهلى ، أما الكثير الكثير فصعب حصره ، وأذكر
في هذه المناسبة أن وزيراً كويتياً سألتنى لماذا كل هذا الحب للسودان ؟ .. قلت :
لأنني أحب الكويت .



أحزان ومعاناة :

ومن الأحزان المفجعة أن يتوفى الله والدتى في ٥ يناير ١٩٨١ ، وذلك عندما
حضر لى محافظ جوبا السيد فانانسيو وقال :-

- والدتك مريضة ، وأنا أنصحك أن تسافر إلى الكويت لتطمئن عليها .
ودهشت ، فهل تلقى المحافظ معلومات تدعوه إلى هذا القول ، بينما لم أتلّق أنا أية
رسائل من الكويت ، لآعن طريق البريد أو السفارة أو الهيئة ، ولو هلة قدرت أن

مرض والدتي ليس خطيراً، والآفان الهيئة في الكويت كانت مستخبرني بأسلوب أسرع من ذلك.

ولم يطل التفكير كثيراً حيث رنَّ جرس الهاتف، وكان المتحدث أحد ضباط الجيش من أصدقائي، وقال بلهجة عسكرية وبدون مقدمات: البركة فيكم يا عبدالله فقد تلقيت إشارة الآن من العميد عباس عبدالعال في الخرطوم، يفيد فيها أن والدتكم توفاه الله، وقد حجزنا لك مقعداً على الطائرة السودانية لتسافر بعد غدٍ إلى الخرطوم.

كانت الساعة هي السابعة مساءً عندما جاءني هذا النبأ المفجع، وكان المحافظ لايزال جالساً معي، حين دخل علينا العميد محمد عبدالعزيز مدير أمن الإقليم، فقال له المحافظ: عزّي عبدالله، ثم دخل علينا السيد بونا ملوال وعلم بالأمر، فتناول ورقة وقلماً وكتب عليها نعيّاً باسم الحكومة الإقليمية، واستدعى السائق ليحمل الرسالة إلى مدير الإذاعة في منزله ليذاع النعي في نشرة أخبار الساعة السابعة صباحاً. وبعد إذاعة النبأ امتلأ البيت بكل المسؤولين بما فيهم السيد أبيل الير، وكذلك بالعديد من المواطنين، فبقى المسؤولون والمواطنون معي طوال اليوم حتى منتصف الليل وقالوا: — لاتظن أننا لانشر أنك تعب ومرهق وتحتاج إلى الراحة، ولكننا تعمدنا أن نمكث معك الى هذا الوقت حتى ينالك التعب، لتذهب إلى فراشك وتنام فوراً دون أن تفكر في والدتك، فنحن هنا إخوتك وأهلك.

كانت مواسة أكثر من طيبة.

سافرت إلى الخرطوم، وفي تقديري أن والدتي توفيت أمس فقط، وكنت حريصاً على السفر إلى الكويت بأسرع ما أستطيع، وعند سلم الطائرة في الخرطوم استقبلني أحد مديري الخطوط السودانية، واللواء يوسف أحمد يوسف، والعميد عباس عبدالعال، وكانوا من أصدقائي الذين تعرفت عليهم في جوبا، رافقوني إلى فندق الهيلتون.

وكان عليّ أن أبقى يومين حتى تطلع الطائرة المتوجهة إلى الكويت، وخلال هذين اليومين ظل هؤلاء معي لم ينقطعوا عن زيارتي إلى أن ودعوني في المطار متوجها إلى الكويت، ولم ألتق بأحد غيرهم. عندما وصلت، علمت أن والدتي قد توفيت يوم ٥ يناير (كانون ثان) أي منذ تسعة أيام، فتضاعف الحزن عندي... فهكذا تشاء الأقدار ألا أرى والدتي قبل وفاتها، ولا أشارك في تشييع جثمانها إلى مقره الأخير، ولا أكون في مقدمة المستقبلين لتقبل العزاء خلال الأيام الثلاثة التقليدية الأولى، رحما الله.

عدت بعد فترة إلى مقر عملي في جوبا.

وتمضى الأيام..

وفي صيف عام ١٩٨٢م جاءت زوجتي وأبنائي من الكويت كعادتهم لقضاء عطلة الدراسة الصيفية معي في جوبا، فطلبت من الهيئة إجازة لمدة أسبوعين وسافرت معهم إلى نيروبي بالطائرة لقضاء الإجازة هناك، أقنا في نيروبي خمسة أيام استمتعنا فيها كثيراً، فالشعب الكيني يعامل الأجانب معاملةً حسنة، ثم أخذنا القطار إلى ممباسا.. في اليوم الأول لوصولنا، أصيب أحد أبنائي بالمalaria، أعقبته زوجتي ثم بقية أفراد الأسرة وأنا من بينهم، باستثناء واحد لم يصب، وأثناء ذلك جرت في كينيا محاولة إنقلابية للإطاحة بالرئيس الكيني أراب موي، وكنا نتابع أخبار هذا الانقلاب ونحن في ممباسا كأننا في بلد آخر، فقد كانت ممباسا تبدو كأن الأمر لا يعنيا لبعدها عن العاصمة، فالحياة فيها عادية تماماً إلا من قلق يبدو على الوجوه. وتأتى الأنباء من نيروبي بأنها مغلقة وتسودها الفوضى وتعرض فيها المحلات التجارية للسرقة والنهب.

أمضينا في ممباسا أربعة أيام قضيناها بين الفندق والمستشفى، كان علينا أن نعود إلى جوبا عن طريق نيروبي، فتوجهت إلى مكتب الخطوط الكينية، وفي مكتب الحجز نسيت ذلك المفعول السحري، فلم أعط موظفة الحجز أي مبلغ من المال كما هو متبع عادة لتسهيل الأمور وخاصة في ظروف كهذه، ولم ينهني عبد الكريم عكاشة الذي كان برفقتنا، فكانت النتيجة وبالا علينا، فعندما

توجهت إلى المطار ومعى عائلتي - التي لازالت تعاني من الملاريا وخاصة ابنتي التي كانت ترتجف على مقعدها - لم أجد أساءتنا في كشف الرحلة المقرر أن نسافر عليها، ولم يحفل بنا أحد والناس تتسابق للسفر إلى نيروبي، وذهبت محاولتنا عبثاً للسفر على تلك الطائرة، وبقينا في المطار نتدبر أمرنا، وحاول عكاشة أن يفعل شيئاً، فذهب إلى مدير المطار وتحدث معه وأفهمه ظروفنا، وأن ستة مئة مصابون بالملاريا، فتعاطف الرجل معنا وقام بجميل لازلت أحمله له؛ فقد أدخلنا الصالون المخصص لكبار الزوار وسمح لنا أن نتناول طعامنا وشرابنا كما نشاء، ووعد بأن يحجز لنا على الطائرة القادمة من أديس أبابا عبر ممباسا إلى نيروبي، وظللنا طوال اليوم من الساعة العاشرة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر، إلى أن جاءت الطائرة وقد تأخرت ساعتين عن موعدها.

ركبنا الطائرة، وقبل المغادرة وضعت في يد مدير المطار مبلغاً من المال تقديراً شخصياً مني له حيث كان مهتماً بأمرنا للغاية، واقفاً على راحتنا طوال فترة الانتظار، فاعتذر عن استلام المبلغ، وقال إن ما قدمه لنا هو واجب عليه وخاصة في مثل هذه الظروف، فشكرته وشكرت عبره كل الشعب الكيني على هذه المعاملة الطيبة النبيلة.

وصلنا نيروبي في المساء، وكانت المدينة وقتها تواجه حالة حظر تجول بسبب الأحداث الطارئة، باستثناء سيارات الإسعاف والسيارات العسكرية، فتم حجزنا بالمطار، وكان عدد المسافرين على هذه الطائرة نحو ثمانين راكباً؛ منهم عشرون أوربياً وثمانون أفريقياً. وبعد ثلاث ساعات أحضروا لنا باصين تحرسها سيارات عسكرية، وتسابق الركاب نحوهما، فالكل في حالة إعياء وإرهاق، ويحلم بكيفية الوصول إلى الفندق الذي حجز فيه مسبقاً، وتحرك الباصان وسط حراسة ثمانية سيارات جيب عسكرية محملة بالجنود المدججين بالسلاح؛ أربع تسير أمامها وأربع أخرى خلفها، وكل ثلاثة كيلومترات يتوقف الموكب عند نقاط التفتيش، فالمساقبة بين المطار والمدينة نحو اثني عشر كيلومتراً، والوقت ليل والجو خارج السيارة شديد الظلمة، فنحن هكذا مكشوفون ويمكن أن نكون هدفاً سهلاً للمتمردين، سيطرت عليّ هذه الفكرة وأنا أجلس تحت لمبة الضوء قرب النافذة الزجاجية،

وبجوارى زوجتى وطفلان من أبنائى واثنان على الجانب الآخر، وبالقرب منى المواطنين السعوديان يتحدثان فيما بينهما ويرددان: — متى نصل فى هذا الظلام.. السيارات تسير ببطء شديد.. ماذا نفعل لووجهت نحونا قنبلة أورصاصة... الله لا يبارك فى هذا السّواق الذى ترك ضوء «الأوتيس» الداخلى مضاء، فأصبحنا مكشوفين للذين فى الخارج، طوال ساعة تقريبا وهما فى حالة قلق وخوف، والحقيقة أنها لم يكونا وحدهما، فالكل يملكه الخوف، وأنا أحاول أن أنظاھر باللامبالاة أمام زوجتى وأولادى، فأبتسم لهم بين الحين والآخر، وتارة أنظاھر بالنوم أو أسند رأسى على زجاج النافذة، وقد جعلت من ذراعى حاجزاً بين رأسى والنافذة، لأوهم زوجتى وأولادى أنني غير مكترث، ولكن الحقيقة أنني لم أكن أقصد إسناد رأسى للنوم، ولكنى كنت أتوقع أن تنطلق رصاصة من الخارج وتخترق الزجاج فتصيب رأسى، لذا أضع ذراعى على الرصاصة تصيبه وتستقر به وتفتته إن شاءت، خير من أن تخترق رأسى، وكنت أكرر وضع ذراعى كثيراً خاصة عندما يتوقف الموكب للتفتيش وسط ذلك الظلام الدامس.

القلق يتزايد، وتسيطر على الجميع حالة وجوم وصمت.. الجو بارد والدنيا ظلام، ولا توجد أي سيارة أو حركة على الطريق غير موكبنا الذى يبعث على الرهبة.

هكذا أمضينا أكثر من ساعة إرتعدت فيها مفاصلنا، حتى دخلنا أطراف المدينة فى حوالى الساعة الحادية عشرة مساء، حيث بدأ القلق يتبدد وبدأ الركاب يتجاذبون أطراف الحديث مع بعضهم البعض بعد أن كان الصمت هو السائد، وكان الباصان وسط هذه الحراسة المسلحة، والموكب يمضي فى شوارع المدينة يثير استطلاع الناس فى مساكنهم، حيث راحوا يفتحون النوافذ و يتطلعون نحونا، ولا شك أنهم كانوا ينظرون إلينا بإشفاق، فقد كان وضعنا وسط هذه السيارات المسلحة كما لو كنا هاربين وألقي علينا القبض أو مجموعة من المتمردين سقطوا فى كمين، ولم يكن أحد منا يعرف إلى أين نحن ذاهبون، حتى مدير الخطوط الكينية الذى كان يرافقنا لم يقل لنا شيئاً، وبعد تجوال استغرق نحو ريع ساعة فى شوارع المدينة توقف الموكب أمام فندق (بان أفريكا هوتيل) وطلب من الجميع النزول،

فأدركنا أننا سنبيت في هذا الفندق .. وكان من الواضح أن السلطات قد نقلت كل النزلاء الذين كانوا فيه أو أكثرهم وخصصوه لنا نحن القادمين من ممباسا ، بينما كان كل واحد منا قد حجز في فندق آخر. وعندما طلب منا النزول اعترضت واحدة من الركاب وهي عجوز أوربية ، كانت تجلس غير بعيدة منا ، وقالت إنها قد حجزت في الهيلتون وزوجها ينتظرها هناك ، فرد عليها أحد حاملي السلاح بأن عليها أن تنزل وألاً تكثر من الكلام ، فلم يكن أمامها إلا السمع والطاعة .

بتنا هذه الليلة في هذا الفندق بعد أن تعشى من تعشى في ضيافة الخطوط الكينية ، وفي الصباح خرجت في الساعة السابعة ولم تكن المدينة قد استيقظت بعد ، فالعمل يبدأ في التاسعة ورحت أتجول أمام مدخل الفندق في انتظار تاكسي لنذهب أنا وعبدالكريم إلى مطار ويلسون^(١) كي نستأجر طائرة صغيرة خاصة نذهب بها إلى جوبا .. ظللنا نحو ساعتين حتى استطعنا أن نجد تاكسياً وركبناه وتوجهنا إلى المدينة بقصد الذهاب إلى السفارتين السودانية والكويتية .. في الطريق شاهدنا زجاج واجهات المحلات التجارية وقد تحطمت ، وكان من الواضح أن أسواق المدينة قد تعرضت لحالة من الفوضى والنهب .

لم يكن أحد من موظفي السفارة الكويتية أو السودانية قد وصل بعد ، فتوجهنا إلى مطار ويلسون حيث لم يكن قد سمح للطائرات المدنية بالنزول في مطار نيروبي الدولي ولا زالت حالة حظر التجول سائدة رغم أن أرباب موى عاد إلى السلطة وأحبط الانقلاب .

وبعد جهد ، أبدى أحد مكاتب شركات (التاكسي) الجوي موافقته على نقلنا إلى جوبا في طائرة تتسع لسبعة ركاب ، ولكن بشرط أن تحمل إذنًا رسمياً بالهبوط في المطار الذي تتوجه إليه .. فطلبوا مني هذا الإذن من السفارة السودانية ، فأبلغتهم بأنني سأحضره بعد ساعة ونصف وعليهم أن يقوموا بإعداد الطائرة وتجهيزها ، كانت أوراق إذن السماح للطائرة بالهبوط موجودة لديهم ولا تحتاج

(١) مطار خاص بهبوط وإقلاع ووقوف الطائرات الصغيرة والتي يمكن لأي شخص أن يستأجر منها في أي وقت .

إلا إلى ختم السفارة السودانية وتوقيع المسئول عليها ، ولكن قائد الطائرة استخف بكلامي عندما طلبت منه أن يعد الطائرة ، وقال : — إن هذا الإذن يحتاج إلى أسبوع لأنهم في السفارة يقومون بإرسال تليكس بأسماء الركاب والطيار إلى الخرطوم ، وتنتظر السفارة أياماً حتى يأتيها الرد بالموافقة ، ولو كان لديهم حظ طيب يأخذ الإذن خمسة أيام ، قلت : — أنت عليك أن تعد الطائرة الآن وأنا سأعود إليك بالإذن وباقي أفراد العائلة بعد أقل من ساعتين ، لم يصدق كلامي وظل جالساً في مكتبه وتوجهت إلى السفارة السودانية ، ووجدت القنصل أبوبكر الذي لم يتأخر في تصديق أوراق الإذن الخاص بالطائرة ، فقام بتوقيعها وختمها ونحن نتناول الشاي معه ، حملت الإذن وتوجهت إلى الفندق وأخذت زوجتي وأولادي الذين كان معظمهم لا زال يعاني من ذلك المرض ، لم يصدق المسئولون بمكتب شركة التاكسي الجوي أنني أنهيت الإجراءات الخاصة بإذن السماح للطائرة بالهبوط في مطار جوبا ، واتصلوا بالسفارة السودانية ليتأكدوا أن التوقعات والختم على الإذن صحيحة ، وهنا فقط بدأوا يُعَدُّون الطائرة للإقلاع ، وقائد الطائرة يقول لى إنه يعمل على هذا الخط بين جوبا ونairobi منذ عشرة أعوام ، ولم يحدث أبداً لأحد أن حصل على إذن الهبوط للطائرة في مطار جوبا في ساعة واحدة ، فأجبت : — لأن المسئولين في السفارة يعتبروننى مواطناً سودانياً لذلك لم يؤخروا التصديق .

ركبنا الطائرة ، وبدأت المحركات تدور ، وظلت تسير على مدرج المطار مسافة طويلة ، كما لو كانت طائرة كبيرة قبل أن تقلع ، وقال الطيار نأمل ألا يحدث شيء في الطائرة لأنها ثقيلة جداً ، وعند سماعي هذه الجملة وضعت يدي على قلبي ، ودعوت الله مخلصاً أن نصل سالمين من أجل هذه الأسرة التي أتحمل مسئوليتها . إنها ليست المرة الأولى التي أسافر فيها من نairobi إلى جوبا على طائرة صغيرة كهذه ، فقد سافرت قبلها عدة مرّات وعلى طائرة ذات محرك واحد لا تتسع إلا لراكب واحد مع قائدها ، ولم أشعر بخوف ، أما في هذه المرة وبعد الذي سمعته من (الكابتن) ، فقد تغير الموقف ، ذلك لأن معي تقريباً كل أفراد أسرتي .. هنا فعلاً شعرت بقلبي يهبط إلى أسفل بطني أكثر مما كنت أشعر به وأنا راكب في الباص من مطار نairobi إلى داخل المدينة .. لأنه في الباص قد يصاب واحد منا

أواثنان ، أمّا لو حدث مكروه لهذه الطائرة فالله يرحمنا جميعنا .. هكذا كان شعوري إلى أن بدأ (الكابتن) يتحدث معي وهو يبتسم ، بعد أن عبرنا الأجواء الكينية ودخلنا الأجواء السودانية حيث نقص الوقود الذي استهلكته الرحلة ، حتى قطعنا هذه المسافة فَحَقَّقَ وزن الطائرة وبدأت تحلق إعتيادياً ، ولما هبطنا مطار جوبا ، صليت ركعتين ثم صمت يومين متتاليين عرفاناً بفضل الله علينا .

كان علينا أن نبدأ الرحلة الثانية ونسافر إلى الخرطوم ، فقد كنا في يوم ١٥ أغسطس وعلى الأولاد أن يكونوا في الكويت في أول سبتمبر، حيث تبدأ الدراسة . والرحلات بين جوبا والخرطوم متوقفة لوجود نقص في وقود الطائرات ، ولا أحد يعلم متى تأتى الطائرة من الخرطوم ، وعن طريق إحدى شركات التاكسي الجوي علمت أن طائرة صغيرة سوف تصل إلى جوبا بعد يومين من الخرطوم وتعود في نفس اليوم ، فطلبت حجزها كاملة فهي تتسع لسبعة ركاب .

وبعد يومين بدأنا رحلة عذاب أخرى على تلك الطائرة الصغيرة التي تقطع المسافة بين جوبا والخرطوم في أربع ساعات ونصف الساعة ، بينما تقطعها الطائرة العادية في أقل من ساعتين . كانت حالة أولادى في الطائرة تدعو إلى الرثاء ، فهي وسط ظروف جوية غير عادية ، وضباب وأمطار ومطبات هوائية ، وكلما تتأرجح الطائرة في أحد هذه المطبات يتصاعد الصراخ لشعورهم كما لو كانت تهوى بهم إلى الأرض ، وعليّ أن أكون رابط الجأش وأن أهدئ من روعهم وهم يكتمون خوفهم مرة ولا يقدرّون مرات ، ذلك أنهم يتعاملون معي كما أتعامل معهم في منتهى الإحترام ، وكان الطفل الصغير ذو الأربعة أعوام قد انعكست عليه الحالة بشكل مفاير عن بقية إخوته ، مما جعلنى أشفق عليه أكثر، فحالته مصدر ألم لى ولوالدته ، فكلماته تبسط الطائرة في مطب هوائى لم يكن يصرخ وإنما يتغير لون وجهه وتَزَرَّقَ شفتاه ، مما سبب الكثير من التعب لوالدته التي راحت تعتنى به كطفل في سنته الأولى حيث لا توجد بالطائرة منافع صحية . وبعد ساعة من الإقلاع سيطر الوجوم على الجميع ، ولم يكن أمامى إلا أن أتماسك وأترك الأمر لله . وبين وقت وآخر أبدد الصمت الخيم على الأسرة بكلمات ، وأشجعهم على رؤية المناظر الأرضية التي تبدو من نافذة الطائرة ، وبين الفينة والأخرى أنظر إلى ساعتى التي

أشعر مع بطء الوقت كما لو كان الزمن قد توقف . وبعد ساعات مضيئة كأنها الدهر اقتربت الطائرة من مطار الخرطوم ، وبدأت تظهر لنا معالمها ، فاستعاد أولادى معنوياتهم وبدأوا يتحدثون . فبعد قليل ستهبط الطائرة ، وينتهى هذا الكابوس الثقيل ، وراح الطيار يهبط تدريجياً ، فبعد دقائق ستحط الطائرة على مدرجها ، وعلى غير ما كنا نتوقع عادت الطائرة ترتفع من جديد فعاد إلينا القلق ، وسألت (الكابتن) ماذا حدث وهل هناك سبب جعله يرتفع ثانية ؟ فقال إنه تلقى تعليمات من المطار بأن ينتظر فى الجو لمدة نصف ساعة ، لأن الرئيس نمرى ستقلع طائرته بعد قليل إلى القاهرة .

أي منطق هذا ؟ !!!

وهل أرواح الناس رخيصة إلى هذا الحد ؟ وهل يعلم الرئيس بهذا الإجراء الغريب .. ؟ كان ذلك رد الفعل السريع لدي ، ولحت من النافذة عدداً من الطائرات ، كبيرة وصغيرة وهي تخلق فى الجوبلا هدف ، سبع طائرات فى الجو ، فوق المطار ، طائرتان كبيرتان وخمس صغار . وعاد أبنائى إلى وجومهم ، وأصفرهم إلى حالته الأولى زرقهً وسواداً فى الشفتين ، وانتابنى الخوف من أن ينفذ وقود الطائرة أو أن تصطدم الطائرات فى الجو على هذا النحو .

وأقولها صراحة ، إنى لا أجدر فى هذا الإجراء أي نوع من الحكمة ، فإذا كان يمكن أن يحدث للرئيس لو أن الطائرات هبطت ؟ إن هذا ظلم !!! فى هذه الطائرات عشرات من الناس قد يكون من بينهم المريض أو الطفل الصغير أو المرأة الحامل ، ألم يكن هناك إجراء آخر كأن تهبط الطائرات فى مكان بعيد عن طائرة الرئيس !!! وحجز الركاب داخل قاعات المطار بدلاً من حجزهم فى الجو حيث احتمال الأخطار أكبر ، نصف ساعة هكذا ، وقد تكون طائرات جاءت قبلنا وهناك من ستصل بعدنا ، كل هذه الطائرات معلقة بين السماء والأرض ، ولا أدرى هل يحدث ذلك كلما سافر الرئيس أم أنه اتخذ لسوء حظنا ، ثم لماذا الخوف على حياة الرئيس من المسافرين ، وطالما أن جهاز أمن الدولة يعلم أن الرئيس مسافر أوقادم وهم على علم أيضاً بحركة جدول الطائرات القادمة إلى الخرطوم فى هذا

الوقت . فلماذا لم يتصلوا بتلك الطائرات أن تؤخر إقلاعها من مطاراتها لمدة ساعة أوعتي ساعتين ، فخير للركاب الانتظار في المطار بدلاً من الإنتظار في الجو؟

مر علينا نصف الساعة أصعب من الساعات التي قطعناها بمشقة في الرحلة ، وجاء الفرج من الله وبدأت الطائرة تهبط ، ونزلنا وتنفس أبنائي الصعداء ، وكأنّ الحياة قد كتبت لهم من جديد ، وقد أنستهم فرحة الوصول أن يتناولوا الطعام ، فالكل ذهب ليستحم ويغيّر ملابسه وينام ، فقد كانت رحلة المعاناة من ممبasa إلى نيروبي ومن نيروبي إلى جوبا ومن جوبا إلى الخرطوم في أيام متتاليات أتمنى ألا يرها الله لأحد كما رأيته . ولم يفكر أبنائي بعد وصولهم في مواصلة الرحلة إلى الكويت ، فقد أرادوا أن يبقوا أياماً حتى ينسوا مشاق السفر الذي عانوا منه كثيراً .

استعذت الأسرة للسفر بعد إجازة مليئة بالمتاعب ، وسافرت معهم ، وكان عليّ أن أبتعد عن جوبا خلال هذه الفترة بسبب مايسودها من أحداث سياسية لانتخابات يعدون أنفسهم لها .

ومضى عام ١٩٨٢ والعمل مستمر في مشروع الوحدات السكنية . وفي ذلك العام بدأت عملية بناء سكن لي ، وقد حرصت على أن أرسم بيدي شكل البيت الذي سوف أسكنه ، ووضع المهندس تصميماته على أساس هذا الرسم ، وكنت سعيداً بذلك لأنه بعد تسع سنوات من العمل سيكون لي بيت — بما تعنيه هذه الكلمة — يليق باسم الكويت كدولة . ولكن إحساساً غامضاً سيطر عليّ بأنني لن أسكنه ، ولم أخف مشاعري الغامضة هذه على موظفي المكتب وخاصة المحاسب الذي كان بمثابة مساعدى ، فكنت أقول له : أشعر بأنني لن أسكن هذا البيت بعد أن يكتمل ، قد أنقل أو يتوفاني الله أو أترك العمل .

وكان يوم العاشر من فبراير ١٩٨٤م حين دخل عليّ المحاسب حاملاً البريد ، ومعه برفية لم يفتحها ، وهو يتسم بعد أن قبّلني بقوله (مبروك) ؛ كانت أنباء البريد تحمل خبرتين في وقت واحد ؛ أحدهما سار والآخر محزن إلى درجة البكاء ، وفي لحظة وجدت أن الحزن قد تغلب على الفرح ، عندما فضضت خطابات بريد

ذلك اليوم، أحدهما كان من نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح بتعييني سفيراً في وزارة الخارجية، وفي رسالة ثانية كتاب من الهيئة يفيد بأن شخصاً آخر سيصل قريباً ليستلم المكتب، أي أن مرحلة عملي بالهيئة قد انتهت.. شعرت بالسعادة الممتزجة بالارتياح لأن الخبر لم يكن مفاجئاً لى ولكن التنفيذ واتخاذ القرار أسعداني كثيراً، وكان مع البريد برقية فتحها لأفاجأ بخبر نزل عليّ كالصاعقة، وبذد تلك الفرحة التي استمرت دقائق.. لقد توفى الله والدتي زوجتي، فاختلط عليّ الأمر، ونسيت كل شيء، فهي أم زوجتي، وهي التي شاركت في تربيتي وتربية أولادي الواحد بعد الآخر، وتخيلت حالة زوجتي في تلك الساعة بمفردها في الكويت، وأنا وحدي هنا في جوبا. كان يوماً غريباً، الموظفون بالمكتب يقدمون لي التهانى بتعييني سفيراً، وفي قلبي حسرة وألم وعيناى تختزان الدموع حزناً، ووجدتني في المساء وحيداً بمنزلي وعلى سريري أبكي كالطفل.

كان عليّ أن أسلم المكتب للمدير الجديد الذي لم يصل بعد.

فهل أنتظر وصوله وعندى حالة وفاة، في حين كان يجب أن أكون بجانب زوجتي أشاركها أحزانها التي هي في نفس الوقت أحزاني. فسافرت الى الخرطوم وأجريت اتصالاً من السفارة مع الهيئة بالكويت وأبلغتهم أنني قادم، فطلبوا مني أن أنتظر لأن المدير الجديد سيصل على نفس الطائرة المقرر أن أغادر فيها، فرددت أنه عندى حالة وفاة تستدعى حضورى، ويمكن للمدير الجديد أن يتأخر وقد حدث، وعندما وصلت وجدت زوجتي في حالة نفسية سيئة ليس فقط لأن أمها قد توفيت (فالأعمار بيد الله)، بل ولأن زوجها الذى اقتسمت معه الحياة منذ الطفولة غير موجود معها يواسيها، فكانت آلامها مضاعفة ولم تفصح لى عن مشاعرها، لأنها تعلم أنى في جوبا.

لقد تركت بلدى مغترباً إلى بلد بعيد لم أشعر فيه مع مرور الوقت بالاغتراب، ولكن هل اغترب الآخرون مثلى هكذا في مكان يصعب فيه عليهم الاتصال بأهاليهم؟ وهل المواطن الكويتي الذي يعيش في الدول المتقدمة يعتبر نفسه مغترباً

وهو يستطيع الاتصال بأهله ويمن يريد في أي وقت؟ سيطرت على مشاعر من هذا النوع في لحظة حزن، وكان ذلك أمراً طبيعياً حتى لو كانت قاسية على نفسى وعلى الآخرين.

وَدُعْتُ جوباً في حفل كبير أقامه حاكم الإقليم الاستوائي في أواخر فبراير (شباط) عام ١٩٨٤، لأعود إلى الخرطوم في مايو (آيار) من نفس العام سفيراً لبلدى الكويت فى بلدى السودان.

افضل لتاسع

سَافِد و تَشَات

7

إن مدينة جوبا لا توجد بها محطات بنزين كذلك التي توجد عادة في المدن الكبيرة. وكان على كل من يريد أن يتزود بوقود لسيارته أن يطلب ذلك من وزارة التجارة الإقليمية أو يشتريه من السوق المحلي في براميل، وأذكر أنه ذات يوم وبما أنني لم أكن قد اعتدت على طبائع أبناء الإقليم، فقد طلبت من الخفير (الحارس) أن يملأ نصف الصفيحة بنزيناً ويفرغه في السيارة.

بعد قليل سمعت صوت فأس ومطرقة في فناء المنزل (الحوش)، وكان الوقت ظهيرة، فخرجت لأستطلع الأمر ومصدر الصوت، فإذا بي أرى الخفير وقد خط بواسطة قطعة من الفحم على نصف جسم الصفيحة من الخارج، كما لو كان قاسها بشريط السنتيمتر. وراح يقطع بواسطة الفأس والمطرقة هذا الجزء الذي خطه، وبسؤالي له لماذا؟ أجاب لقد طلبت مني أن أملأ نصف الصفيحة، فكيف لي أن أعرف أن البنزين قد وصل النصف مالم أقطعها.!! (١).



ويوماً عدنا من الغابة ومن ضمن الصيد كان معنا تيتل فطلبت من الطباخ أن ينظف رأس ذلك الحيوان من اللحم واللسان والجلد وكل شيء، ويبقي لي عظم الرأس (الجمجمة) والقرنين...

وبعد قليل سمعت صوت فأس في فناء المنزل فخرجت لأستطلع الأمر، فإذا بي أرى الطباخ يستعمل الساطور لكسر القرنين. وبسؤالي له لماذا يا أخي

(١) إنه ليس غباء بل حرص على تنفيذ التعليمات بدقة.

تكسرهما؟ أجاب ببساطة: «الجلد أبى»^(١)، ذلك أنه سلخ الجلد عن عظم الرأس وأراد أن يخلعه بواسطة رفعه إلى أعلى كما لو كان إنسان يخلع جلابيته (الدشداشة) أو امرأة تخلع فستانها، فقد صعب عليه أن يمزق الجلد أو أن يقطعه بالسكين، وهان عليه أن يكسر القرنين لاعتقاده أنها ليس أهم من الجلد. فسألته: — كيف تعيد القرنين وقد طلبت منك الرأس بقرنيه؟ فأجاب ببرود.. ياهودا كلام (بمعنى هنا تكمن المشكلة).



ومرةً وبعد الظهيرة خرجت بسيارتي من المنزل متوجهاً إلى سوق جوبا، إذا بشخص ينادي أبوعبده.. أبوعبده. فأوقفت السيارة فأتى مسرعاً وسأل «ماشي بيوين»؟ (أي: إلى أين أنت ذاهب) أجبت إلى جوبا، ففتح فاه إلى آخره مندهشاً وقال أبواً (شذ ومث واستغراب) كما لو كنت قلت له إنني ذاهب إلى القمر، وأضاف كويس (بمعنى تفضل). طبعاً أدركت أنه غمور.



وفي ليلة ممطرة أوصلت — بسيارتي الجيب — صديقاً إلى منزله الذي يقع في شارع لا يتسع لمرور سيارتين في وقت واحد، ولما كان المطر لا يزال يتساقط خفيفاً فقد كنا رافعين زجاج السيارة، وبما أن حديثي معه لم ينته فقد توقفنا أمام منزله لنكمله.. إذ بصاحبى يسأل: من الذي (راضاً) وجهه من خلف الزجاج؟ فالتفتُ وأنزلت الزجاج، وسألت الشخص^(٢) ماذا يريد؟ فإذا به يقول، وقد رأى لونى فاتحاً: — يا كواجاجا^(٣) دتًا قافيل شيكَّة نأعي (بمعنى: إنني قاطع الطريق عليه بسبب وقوف سيارتي، فهو يريد أن يعبر الشارع من شماله إلى يمينه سيراً على قدميه ووقوف السيارة على هذا النحو يعيقه)

(١) أي أن الجلد رفض أن يخرج من القرنين.

(٢) غمور لا يستطيع أن يثبت على قدميه.

(٣) لقد اعتاد الأهالي هناك على تسمية كل رجل لونه أبيض أوفاتح بلقب خواجه.

يهدوء أدركت محرك السيارة ورجعت إلى الخلف مترين ، وأشرت له بيدي بمعنى
تفضل ، فإذا به يتقدم نحوي ويقول « سُكراً كواجاً » بمعنى سُكراً يا خواجاً ،
واستمر في سيره .



تربّيتُ في حظيرة ممزلى غزال حتى كبر وقد أُلِفَ الخروج من الحظيرة والرعى
خارج المنزل ، ويعود جارياً إذا ماضيقه ولحق به أطفال أوراى كلباً .

وذات صباح أبلغني الخفير « الحارس » أن الغزال مات . فقلت : — ارمه في
الخارج . وذهبت للمكتب كعادتي ، بعدها لم أر الخفير طوال ذلك اليوم . وجاء في
اليوم التالي . وبسؤالي له أين كنت ؟ أجاب بأنه شعر بالآلام في معدته فذهب إلى
البيت .

وفي تلك الحظيرة إلى جانب الغزال كانت تُوجد أيضاً أغنام ، وبعد حادث
الغزال بعشرة أيام إذا بالخفير يقول لى إن نعجة قد ماتت ، رأيتها فإذا هي
منتفخة . وهذا يعني أنها ماتت أول الليل . قلت : — ارمها في الخارج ، ثم غاب
الخفير يومين وعاد ليقول : — إنه كان مريضاً بالملا ريا .

وبعدها بأيام جاء ليقول إنَّ خروفاً مات ، قلت : — ارمه . وطلبت من
السَّكرتير بالمكتب أن يتصل بالقسم البيطرى ليجري كشفاً على هذه الحيوانات ،
ظناً مني بأن مرضاً قد أصابها وميتها ببطء . وتسرب الشك إلى نفسى : لماذا يغيب
الخفير عند موت كل حيوان ، فإذا بأحد العاملين بالمنزل يقول إن الخفير يحمل هذه
الميتة على كتفيه ويغيب ليحتفل بها وأهله ويشربون مع لحمها المريس (١) .

إذن تلك الحيوانات لم تمت بل أُميتت لتؤكل ، جاء الخفير بعد ثلاثة أيام
معافى تبدو الصَّحة واضحة على ملاعمه فسألته لماذا تَقَيَّب ؟ فقال : إنه كان
مريضاً .

(١) المريس نوع من المشروبات الكحولية يصنع محلياً في البيوت من الذره . وأي مشروب كحولي آخر
في جوبا يطلق عليه اسم مريس .

قلت أين تذهب بالحيوانات الميتة ؟

فتردد، ثم بادرته قائلاً : — إنني علمتُ أنك تأكلها . فردد بالإيجاب .

استغربت كيف يأكل جيفةً منتفخةً ، فابتسم وقال : — إننا نأكل لحم أحي حيوان يموت حتى الدجاجة لو ماتت نأكلها ، ولم أجه بل اكتفيت بأن طلبت منه أن يلحق بى إلى المكتب . وهناك طلبت من المحاسب أن يدفع له استحقاقه ويفصله عن العمل ، وسألت كل العاملين وعددهم ثلاثة هل هم أيضاً يأكلون لحم الحيوان الميت ؟ فابتسموا .

كيف أنصرف ؟

إن حيواناتى كلها ستموت لتؤكل ..

فخير إذن أن آكلها أنا . فبدأت أذبح منها على التوالى ، ولكن وعندما انتهت الخراف بدأ الموت يظهر فى الدجاج والبط ، وكما فعلت بالخراف فعلت بهذه أيضاً .

* * * * *

فى آخر عام ١٩٨٠ ، وبعد أن عدت إلى جوبا وكنت قد أمضيت أكثر من ست سنوات فى جنوب السودان ، سألت نفسى لماذا لا أكتب ما عشته من تجربة فى الجنوب ، وأسجل ما رأيته فى هذه القبائل من عادات وتقاليد ، لأعرف بها القارىء العربى الذى لا يعرف إلا القليل عن هذا الجزء العزيز من وطنه العربى الكبير .

استغرقت هذه التجربة معى شهوراً تنقلت خلالها بين مكنتى فى جوبا ومناطق القبائل ، وغمت فى الأكواخ وأصبت بالمalaria . إن هذه هي أول مرة يُكْتُبُ فيها عن عادات وتقاليد قبائل جنوب السودان باللغة العربية ، ولكي يكون تحركى بين القبائل مشروعاً حتى لا يثير شبهة ، فقد استأذنت السيد أبيل حاكم الإقليم فوافق .

أعطانى المحافظ مترجماً من قبيلة الباريا ، حيث قررت أن أبدأ بها . وركبنا سيارة جيب لاندروفر ومعنا اثنان من رجال الشرطة والسائق ، واخترت أن أكون قائدها وبجانبى المترجم والمهندس حبيب عبدالله فهو مصور جيد ، وقد تزودنا بوقود كاف وبدأنا الرحلة .

وقبل وصولنا مقر السلطان الذى يبعد عن جوبا بنحو ستين ميلاً ، مررنا بقرية صغيرة شبه مهجورة ، وقبل أن أسأل مرافقى قال : هذه « الإحلة » (١) كان يسكنها خمسمائة فرد ، مات منهم أربعمائة قبل عام .

وقبل أن أسأله عن السبب واصل حديثه بهدوء وهو يتسم ، لقد أصيبوا بمرض ذبابة التسي تسي ... (مرض التوم) .

إهتز بدنى لكنى اجتهدت فى ألا أظهر خوفاً مما سمعته ، ورحت أظهار مثله بالهدوء ، بينما يدى تمتد براحة لأرفع زجاج نافذة السيارة رغم حرارة الجو ، وعيناى تطوفان فى الداخل ، متمنياً ألا تكون تلك الذبابة فيها ، حتى لانقع ضحيتها فى أول رحلة لبرنامج طويل يتطلب منا اليقظة لا التوم .

وصلنا إلى مقر السلطان ، وهو عبارة عن كوخ كبير وحوله أكواخ صغيرة تسكنها زوجاته وأبناؤه وأقرباؤه ، نزل المترجم واختفى ثم عاد ومعه رجل طويل القامة ، نحيف الجسم ، كبير السن ، إنه السلطان (أندريا) الذى رحب بنا من خلال حديثه مع المترجم وصحبنا إلى كوخ لنبيت فيه هذه الليلة ، وعلمنا أن هذا الكوخ يستخدم فصلاً دراسياً وأنه لا مكان غيره نبيت فيه ، دخلناه فوجدنا جذوع أشجار متراصة أفقياً وترتفع عن الأرض على قوائم من خشب الشجر ، إنها مقاعد للتلاميذ وبعد قليل أرسل لنا السلطان تيساً لنذبحه ونتعشى به ، أخذ السائق ورجال الشرطة المرافقون وراحوا يعدون العشاء ، وذهب المرافق (جاد) إلى أهله فى نفس القرية ، وبقيت أنا وحبیب جالسين نتأمل الطبيعة من حولنا على ضوء القمر؛ الجبال هنا وهناك متناثرة على شكل سلسلة متصلة والقمر يكسوها بلونه الفضى .. والأرض رملية تبدو منبسطة خضراء ، والجو رطب منعش ، الشيء الذى أنسانا عناء الرحلة ، فرحنا نتحدث عن هذه الطبيعة الخلابة فى انتظار العشاء ، وإذا بصاحبى يسألنى :—

— ألا تشم رائحة نحاسية ؟

قلت :—

(١) القرية .

— لا أستبعد أن تكون هذه الجبال من حولنا مملوءة بالتحاس والحديد ومعادن أخرى لأنها لا تزال أرضاً بكرًا لم تكتشف بعد.

قال مبتسماً:—

— لا ، ليس الموضوع هكذا ، هناك نوع من الأفاعى تفرز مادة لها رائحة كرائحة التحاس .

كان كل منا يجلس على مقعد خشبي ، وما إن أتم حديثه حتى وجدتهني بمركبة لاشعورية أرفع قدمي عن الأرض وأجلس القرفصاء على المقعد ، ورحت أتابع حديثه وهو يقول :

— إن هذا النوع من الأفاعى بالإضافة إلى أنها سامة ، فهي تفرز تلك المادة ذات الرائحة التحاسية ، وهذا لطف من الله كي يتجنبها الحفاة من الناس عندما يشمون تلك الرائحة .

— قلت في نفسي لطفك يا أرحم الراحمين ، فقبل قليل حدثنا مرافقتنا عن ذبابة التسي تسي ، وهامو حبيب يضيف حديثاً عن الأفعى ذات الرائحة التحاسية .. ورحت أتخيل كيف سننام هذه الليلة ، ودعوت الله أن تمضي على خير فشواري طويل ونحن لا نزال في أول الطريق .

وما هو إلا وقت قصير حتى جاءوا باللحم المشوى ، وافترشنا جميعاً الأرض حول اللحم الساخن ، وراحت أصابعنا على ضوء القمر تنغمس فيه ، والشاطر منا من ترفع أصابعه قطعة أكبر .. لم أحيب كثيراً من اللحم رغم جوعى ذلك لأنني كنت ألتفت يميناً ويساراً ، مستعيناً ببطارية يد صغيرة كنت أحملها بيدي أمرر ضوءها حولنا خشية أن تفاجئنا تلك التى تسمى نحاسية .

في الصباح ودعنا السلطان وشكرناه على استضافته لنا .

وفي طريقنا لقبيلة أخرى اصطدنا حيواناً ضخماً « تيتلاً » ، قدمناه للسلطان (مباسيو) سلطان قبيلة المادي الذى رحب بنا كثيراً لأنه على معرفة سابقة بى ،

أنزلنا فى دكانين متجاورين ليكونا مقر إقامتنا، وفى المساء وبعد العشاء دخلتُ وحبيب إلى أحد الدُكَّانَيْنِ، ومرافقنا والشرطيان للمبيت فى الدكان الآخر.

وبينما نحن بين اليقظة والتعاس فى حوالى الساعة العاشرة ليلاً إذا بصراخ يبدد سكون الليل ينطلق من الدكان المجاور.

أسرعت أنا وحبيب إلى مصدر الصوت، فإذا بمرافقنا جاد الذى عرفناه منذ يوم أمس يهدوئه، قد سيطرت عليه حالة غريبة.. فوجئنا به يتحدث مع نفسه بعصية، وقد سيطرت عليه أوهام تخيل معها أنَّ زوجته وأولاده لحقوا به من جوبا وجاءوا إلى نيمولي لمضايقته، وتسلقوا الشجرة التى تجاور الدكان الذى ينام فيه، وتُخِيلُ إليه أنَّ زوجته تهدده من فوق الشجرة وهو من تحتها يحاورها بلغة قبيلة الباريا.. وبصوت مرتفع أدخل الفرع إلى قلوبنا.

فى البداية لم نفهم شيئاً، وكان الموقف لأول وهلة يثير الأسى والضحك، فقد ظنننا أنه شرب خمرأ ولكن أحد الشرطيين الذى يفهم قليلاً من لغة الباريا شرح لنا الحالة التى انتابت مرافقنا، فطلبت إحضاره إلى الداخل حتى لا يوقظ الناس بصوته المرتفع وشجاره الحاد مع زوجته الوهمية.. حاولت أن أوضح له أنه لا يوجد أحد هنا.. لا زوجته ولا غيرها، فصاح بى أنت مابتعائين وما بتسمع كمان (أي، أننى لا أرى ولا أسمع)، فقد سيطرت عليه حالة نفسية صوّرت له أنَّ أغصان الشجرة وقد عكس القمر ظلها على الأرض، كأنها ظل زوجته وأطفاله، فاستسلم لهذه الأوهام وتعامل معها كحقائق.. فَشَلَّتْ كلّ محاولتنا لإعادة الرجل إلى حالته الطبيعية، وإن كنا قد نجحنا فى إدخاله وهو يهذى بصوت مرتفع، ثم يبكى ويصرخ.

لم أكن قد نمت الليلة الماضية، وهاهي الليلة الثانية أتناوب فيها الحراسة مع الشرطة على هذا الرجل الذى يهدأ مرةً وينفعل أخرى، إلى أن أشرقت الشمس، فيما كان يغط الآخرون فى نوم عميق وخاصة حبيب الذى أدار ظهره لكل هذه الجَلَبَةِ وراح شخير نومه يزداد ارتفاعاً، إلا عندما يعلو صراخ مرافقنا فيقفز صارخاً: — ما تَسْكُتُوا هذا.. لننام.

وفي الصباح أركبت هذا المرافق مع أحد الشرطين في باص ليعود به إلى
جوبا .

بعدها بقليل حضر السلطان ليطمئن علينا وهو يأمل أن أكون قد نمت نوماً
هادئاً — فقال : —

— كيف يا سيادتك .. إن شاء الله نمت كويس ؟

فرددت عليه مبتسماً :

— جداً يا سلطان .. فقد نمت خيراً من الليلة التي سبقتها .

وبطبيعة الحال لا يعلم السلطان أنني لم أنم الليلة قبل البارحة .



كنت مع جمع من الأصقاء قدموا من الكويت ، فوقفنا ذات مساء مع مغيب
الشمس على مراح (قطيع) كبير من البقر، فرأينا الأهالي بأجسامهم العارية
يجمعون أبقارهم داخل حظيرة وهمية (أي ليس لها سور) ، بل أكوام أقاموها من
روث^(١) البقر الرطب وأوقدوا تحتها ناراً، وبما أنها رطبة فلا تولد ناراً بل دخاناً
كثيفاً يتصاعد، لا يقل عدد هذه المواقد عن عشرة، يبعد كل واحد عن الآخر
حوالي خمسة عشر متراً، فيشكّل دخان هذه المواقد سحابة لو كانت هناك شمس
لحجبها، وإذ ذاك كان كل واحد من الأهالي لا يرى منه سوى عينيه، لأنه أخذ
من رماد تلك المواقد ومسح به على كل جسمه، حتى الأطفال الصغار مسحوا
أجسامهم — الجميع عراة — ذلك لأنهم وأطفالهم وأبقارهم ينامون حول هذه
المواقد، فالدخان يبعد عنهم الحيوانات المفترسة ويمنع البعوض عن أبقارهم، وأنهم
يمسحون أجسامهم بالرماد للسبب نفسه لأن البعوض لا يحيط على جسم فوقه رماد .

لفت نظرنا منظر الأطفال دون الثانية عشرة بما فيهم البنات يجلس كل واحد
منهم القرفصاء تحت بقرة، ويرضع مباشرة من ضرعها الى أن يرتوى، إنها وجبة
العشاء .

(١) فضلات البقر أي البراز .

سألنا واحد منهم إذا ما كان معنا طعام فهم جياع ... رددت — وأنا لا أقصد
إشارتهم — كيف تجوعون وأنتم تملكون كل هذه الأبقار..؟ اذبحوا عاجلاً وكلوه..
فا إن أتممت كلامي حتى كاد يغشى عليهم من الضحك.. كيف أقول كلاماً
كهذا..؟ يمكن أن أعتذر وأقول لا يوجد معنا أكل أو أي شيء آخر إلا كلمة
إذبحوا عاجلاً.

ذلك أن ثروتهم هي البقر وأنهم حريصون على تكاثرها، فهي الركيزة التي
يعتمدون عليها في الزواج ويسعدون عندما تُزف فتاة منهم، لأنها بهذا سوف تجلب
للأسرة المزيد من الأبقار.

فسألت .. هل تُحرّمون أكل لحم البقر..؟

قالوا: لا.. إنما لا نريدها أن تنقص.. أما إذا مات أحدها.. هنا فقط
نأكلها.



مجموعة صور الجزء الأول

1

1

- 1

1

1



جاسم الرشيد ، الى اليمين ليلة مغادرته جوبا - سبتمبر ١٩٧٤ م . الى شمالي
المرحوم / العميد محمد يحيى منور والى يميني المقاول محبوب محمد على (المكان فندق
جوبا) .



صورة جماعية لحفل التوديع أعلاه .



صالح أكبر الأبناء - إنه يتوسط ساحة المنزل والمنظر خلفه ، الأشجار حول منزلنا .



نواف .. أصغر الأبناء وهو ابنة في عامه الأول - داخل المنزل .



نواف - رغم صغر سنه لم ترجمه الملاويا .



وبعد أن شفاه الله يصلي شاكرًا.



المرحومة الوالدة وأم صالح في الغابة تُحضّران الإفطار ونحن من حولها نصطاد غزلانا .



منهكات في التحضير والطبخ يساعدنا بينما ابتنى ننظر إلى الكاميرا .



في وسط الغابة ، وقد اختفى نصف أجسامهم وكذلك السيارة داخل الأعشاب .



السيارة بمن فيها تكاد تختفى خلف أعشاب السافانا .



هكذا... فالطريق ليس سهلاً في الغابة. فكم مرة نزلنا لنرفعها.



والزراف هنا يتفرج علينا.



الطبيعة والطبيعة .



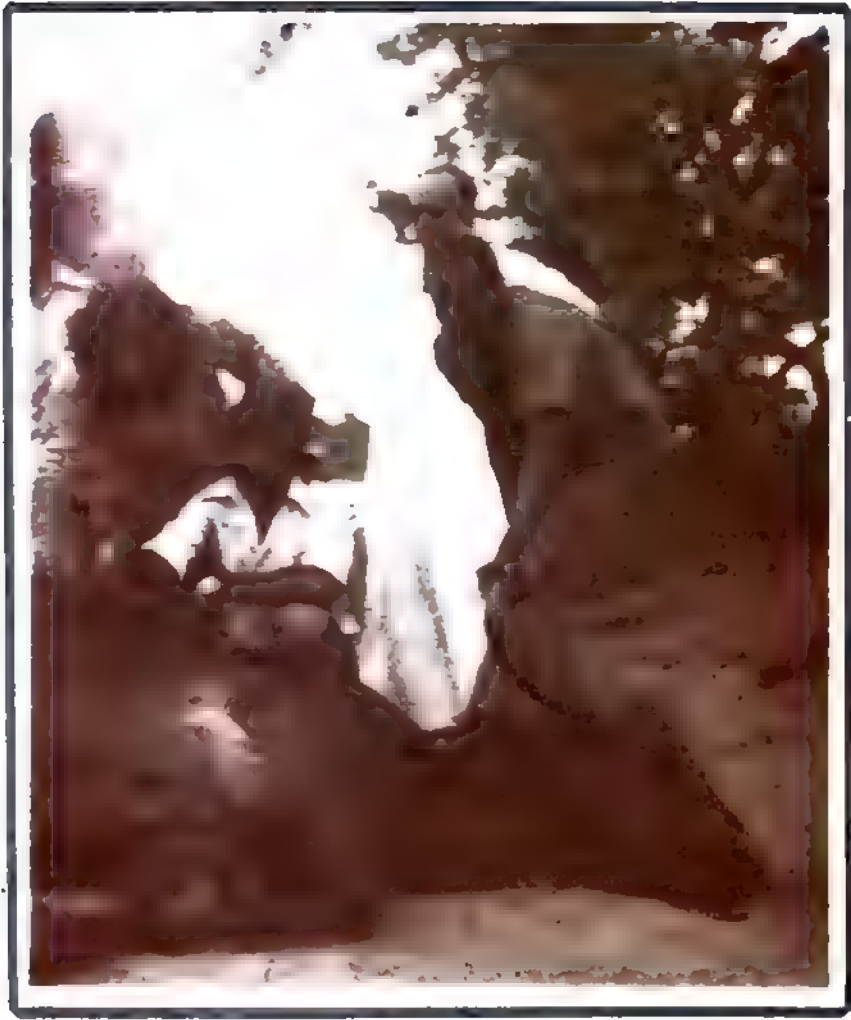
وصيد سمين .



التأهب لدخول الغابة .



ابتنى... إنها تخاف من العرصرار، وهنا نُصَوِّر مع أشرس حيوان في الغابة . إنه ميت .
(جاموس)



المؤلف ينظر إلى زوجته وهي تجس الجاموس بيدها ربما لتؤكد إن كان سميناً أم لا .



وعنون أنفسهم بأكلة دسمة



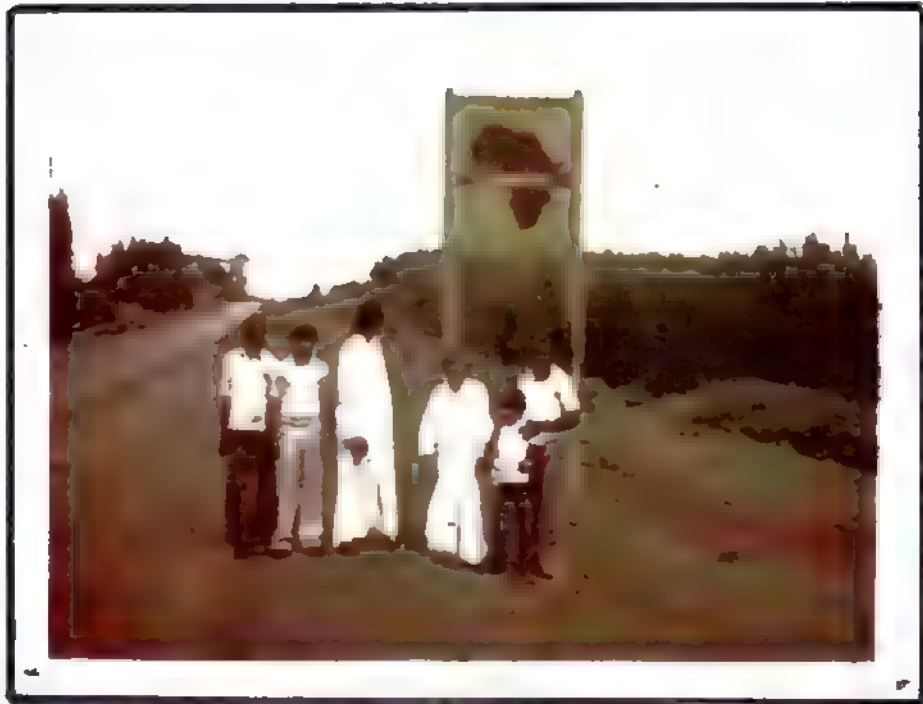
إنها تكره هذا الحارس (الخفير) ولانود رؤيته قرب حظيرتها .



ولكنها مع الآخرين أليفة .



أم صالح وأبناء الجيران .



مركز خط الاستواء في كينيا .





الحدود السودانية اليوغندية. نصفى الأيمن فى يوغندا والأيسر فى السودان . إننى
أتوسط الكئبرى بين البلدين .



من الخلف شلالات نيمولي القادمة من بحيرة فكتوريا فى يوغندا والمنتية بعد مصر فى
البحر الأبيض المتوسط .



غزالنا القليل - برعى في الشارع ولا يخاف الناس ، ولكنه يجرى إلى الداخل إذا رأى
كلباً أو لحقه طفل .



١٩٣

إنها يقبلان بعضها - لم يرجه الحارس (الخفير) ، قتله ليأكله .



فوق جبل جيلو مع الضباب ، سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر.



إنه يصور قصوره وقد حجب الغيم والضباب بينه وبين الذي صورهما . إنه جبل جيلو
أجل وأبرد موقع في الإقليم الاستوائي .



الفيل الصغير والأهالي يتعاونون على سلخه ليصلوا إلى لحمه . يلاحظ أن ارتفاع وسطه
أكثر من ١٢٥ سم .



كلنا على الفيل الكبير متكئون ، إنه يزن حوالي ثلاثة أطنان .



الفيل الكبير، الكل جالس فوق جسمه .



سنا الفيل الكبير بعد استخراجها من رأسه ، إرتفاع الواحد أكثر من متر وربع .



رأسا الفيلين على جانبي مدخل منزلي في جوبا.



الشيخ مبارك والاستعداد لدخول الغابة .



وقد تحقق له ما أراد وأصاب الجاموس كما تمنى .



مبارك ، وجهاً لوجه مع الجاموس .



ويلتقط صورة تذكارية مع صيده .



الشيخ علي صباح السالم وقد استعد لدخول الغابة .



وعلايس الفدائيين يتفرج على جاموس أرداه قتيلاً .



علي، أمام حمار الوحش.



وقد ركبوه بعد أن إطمأنوا إلى موته.



علي، بعد أن قتل الفيل ركبته وكل من رافقه ليلتقطوا صورة تذكارية معه .



بعدها طرحوه أرضاً ليقتلعوا أسنانه العاجية الكبيرة .



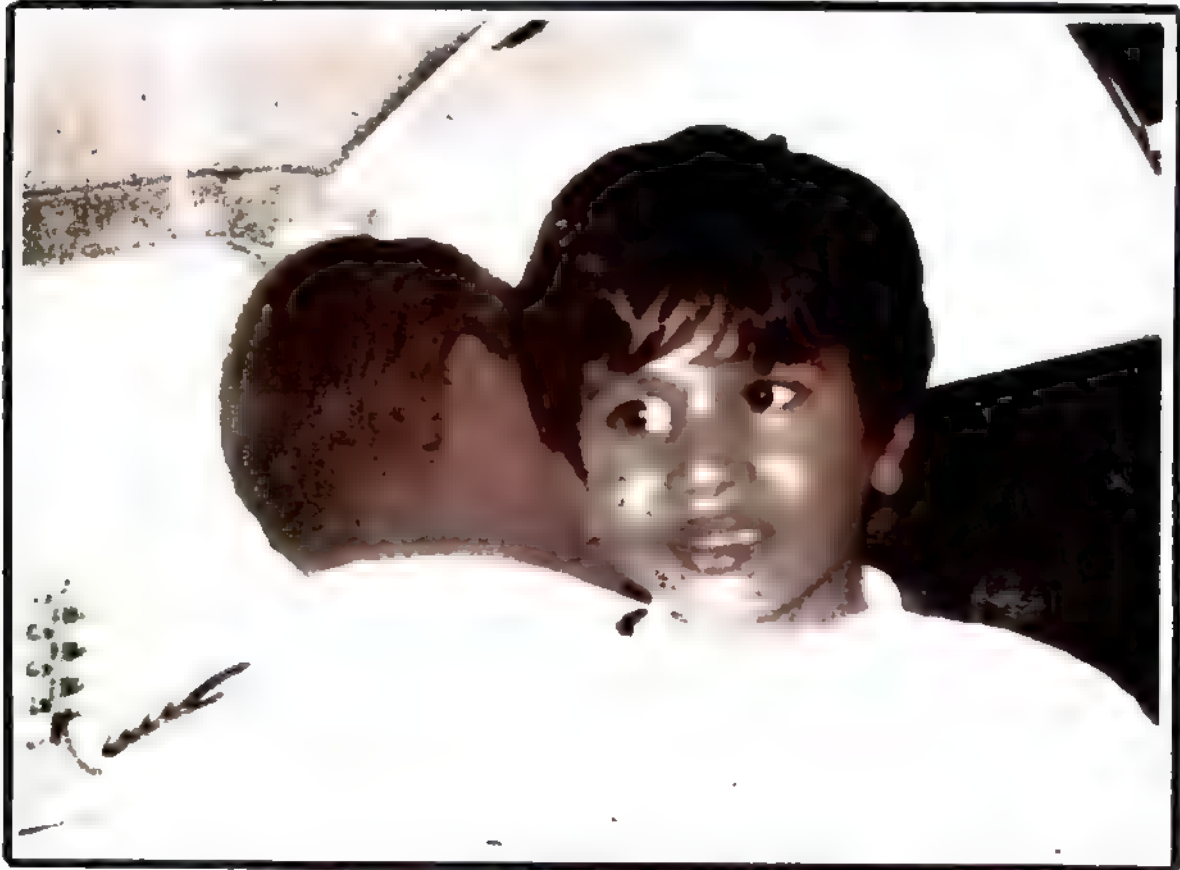
رياض ، مع جوز الهند في ممبسا وخلفهم المحيط الهندي .



x اسمه ماوا ، إنه يعمل معنا في المنزل بجوبا . كان معنا في هذه الرحلة ، أرسله الأولاد
ليأتني بكية من جوز الهند .



نواف ، يحمل واحدة من جوز الهند ، إن ماءها قد ملأ كأسين (في ممباسا) .



مع قائد الطائرة في رحلة العودة إلى جوبا .



أحد شوارع ممباسا في كينيا ، أقواس من الصفيح السميك على شكل أنياب فيل .



نفس المنظر أعلاه ، والمؤلف مع ابنه أحمد .



عبدالكريم عكاشة وعصام ابني في القطار، من نيروبي إلى ممباسا .



المؤلف وأبناؤه في جوبا بعد العودة من نيروبي .



الطائرة الصغيرة التي أفلتنا من نيروبي إلى جوبا.



والثانية التي أفلتنا من جوبا إلى الخرطوم.

اجزاء و لہستانی



مقدمة

موضوع هذه الدراسة - التى تتجه اتجاهاً بنائياً وظيفياً - هو عصارة تجربة وبقاوة ورد تفوح بأريج الانطباعات الطيبة، لازمت صاحبها طيلة فترة تواجده بجنوب السودان قضاها فى رحابه عاملاً ومنفذاً مخلصاً لمشاريع دولة الكويت الشقيقة وباحثاً منقّباً لهذا الجزء وقاطنيه - كدراسة مقارنة فى علم الانثربولوجيا الإجتماعية، متنقلاً من منطقة لأخرى، أمله تعزيز فكرة الكتابة عن ذلك المجتمع كتجربة فريدة، مسجلاً عاداته وتقاليده، دافعه فى ذلك حماس لايفتر، إحساساً منه بأهمية دعم المكتبة العربية بإضافة قدر من المعرفة، عن ذلك الجزء من وطننا العربى الكبير، رغم مشاغل عمله الدبلوماسى. وقد أفاد البحث اعتماده على الدراسة الحقلية. كما أفاد كثيراً من توجيهات شخصيات من هذا الجزء معروفة بثقافتها وعمق تفكيرها وتاريخها الاجتماعى والسياسى فجاءت هذه الأفكار - ونتيجة تلاقحها - مخاضاً عسيراً يكشف عن مولود بار بوالده ومتعلق بوالدته، السودان، العمق العربى فى أفريقيا.

ويضم البحث جزئين؛ يعنى الجزء الأول منه بتجربة المؤلف فى الجنوب فى تسعة فصول، كبحث خاص من مباحث الأنثربولوجيا الاجتماعية. ناقلاً القارئ عبر سرد تاريخى لحياته، التى ضمت بين دفتيها من الأفراح نصيباً ومن الأتراح كذلك.

أما الجزء الثانى وهو دراسة اجتماعية لبعض قبائل الإقليم الاستوائى ، وكان يدينه فى ذلك التنقل فى مناطق تلك القبائل ، ونومه فى الأكواخ وإصابته بالمalaria . ونجده فى هذا الجزء يعنى بسمات البناء الاجتماعى والأنساب الاجتماعية لبعض القبائل ، كأول محاولة لكاتب خليجى يكتب عن عادات وتقاليده قبائل المادي والآشولي والزاندي والبويا والتابوسا والمورو والباريا واللاتوكا والدادينجا باللغة العربية .

وقد لوحظ اختياره لتلك المجتمعات القبلية كأساس للدراسة المقارنة ، على اعتبار أنها تبرز بوجه خاص سمات المجتمع مع تنوع أنماطه الانقسامية والالانقسامية ، وخاصة فيما يتعلق بالقرابة والظروف الاقتصادية ونظم التفاضل الطبقي والسلطة والوحدة العشائرية .

وهذه الدراسة تقتصر على البناء الاجتماعى ، مبرزة تلك العلاقات التى تقوم بين الجماعات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستمرار فى المجتمع ، مع ضرورة الإيمان بمحتمية التغير الذى تتعرض له كل الموجودات فى الكون . فالوحدة الاجتماعية فى الأسرة مثلاً تختلف فى مدى قدرتها على البقاء والاستمرار عبر الأجيال المتعاقبة بمقارنتها بقدرة الجماعات القبلية ، كما أن العلاقات الثنائية التى تقوم بين الأفراد إنما هي علاقات سريعة التغير والتحول ، ولكن تلك العلاقات التى تربط بين الجماعات القبلية هي علاقات تقليدية تفرض أنواعاً من التعاون أوالتساند إزاء الجماعات الأخرى من نفس النوع والدرجة على الرغم من التناقضات الداخلية التى تقوم بين أعضائها فى الحياة الاقتصادية والسياسية .

فعموما هذه الدراسة مجهود مقدر ، وصالحة للنشر ، ويمكن أن تكون ثمرة لدراسة اجتماعية أوسع وأشمل وأكثر موضوعية ، إذ أن الخبرات الحقلية تؤثر كثيراً فى تكوين التجريدات النظرية التى ينتهي إليها الباحث الاجتماعى ، كما حدث لبعض الكتاب الاجتماعيين كإيفانز بريتشارد الذى انتهت به خبرته بمجتمع النوير إلى إبراز العنصر الإقليمي كعضو مميز فى البناء الاجتماعى والسياسى .

وبعد... فلعل هذه الدراسة يمكن أن تكون ركيزة يستند إليها الباحث في دراسات عقلية في الأنماط الاجتماعية التقليدية، وذلك كمحاولة للمساهمة في مناقشة المشكلات التي تعنى بها الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسياسية التي بدأت تحتل مكاناً هاماً من الإهتمامات الأكاديمية الحديثة .
والله ولي التوفيق

محمد عمر موسى
معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية
جامعة الخرطوم — سبتمبر ١٩٨٥ م

قبيلة المادى

(١)

المادي

تعني كلمة «مادي» بلغة القبيلة (هأنذا)، والاسم يدل على أن أهل القبيلة يعتززون بأنفسهم، وينتمى إلى هذه القبيلة جوزيف لاقو الذي قاد العمليات المسلحة في الجنوب حتى توقيع اتفاقية أديس ابابا عام ١٩٧٢ من خلال حركة انيانيا، والتي تعني بلغة المادي «الحشرة السامة».

وتتفرع عن القبيلة بطون تعيش في مناطق متعددة، مساحتها ستون ميلاً طولاً وخمسة وأربعون عرضاً في أقصى بقعة جنوب شرق السودان، وهذه المناطق هي نيمولي، لوا، مادي، كربى، أربى، بانجوا باميري، لينيا، تماو، اللو، موجالي، اولوبيه، وأهم هذه المناطق هي نيمولي ولوا، اللتان تقعان على الحدود السودانية الأوغندية، وتجاور المادي قبيلتي الآشولي والباريا، ولا توجد حدود رسمية بين القبائل، وكل قبيلة تعرف حدودها مع القبائل الأخرى، ولا توجد إحصائية رسمية لسكان القبيلة ولكنهم يقدرون عددهم بنحو أربعين ألف نسمة.

إن قبيلة المادي جاءت من غرب الاستوائية، ومنها قبائل مورو، وأبوكايا، وكالبيكو في منطقة «يبي»، ولوجو في زائير، ولوجيارا ولولوبو، بجوارنجوبا، وتتداخل القبائل الصغيرة هذه في علاقاتها مع قبيلة الباريا، فثقافتهم ولغتهم هي لغة المادي، وترقص قبيلة كوكو رقصة موريه التي تختص بها المادي.

وتتحدث القبيلة لغة واحدة، وقد تختلف بعض الكلمات فيها من منطقة إلى أخرى، والديانة الغالبة هي المسيحية، والمذهب الغالب هو الكاثوليكي، وهناك

أيضاً البروتستانت وقد دخلت المسيحية إلى القبيلة عام ١٩١٦ عن طريق القساوسة الإيطاليين القادمين من يوغندا، أما المسلمون فعددهم أقل من المسيحيين، ودخلها الإسلام عن طريق الجنود القادمين من شمال السودان بمن فيهم الأتراك والمصريون، كذلك نقل التجار القادمون من الشمال معهم اللغة العربية والإسلام، قبل ذلك كان الدين في القبيلة مجرد عادات وطقوس يتوارثها أبناء القبيلة جيلاً بعد جيل، يمارس المسيحيون شعائهم واحتفالاتهم الدينية في كنائس صغيرة، ويؤدي المسلمون والمسيحيون الصلاة على أرض فراغ لم يُبنَ عليها شيء بعد، ولا تخلو احتفالات القبيلة من المناسبات الدينية ومحتفل المسيحيون بعيد الفصح وأعياد الميلاد، ومحتفل المسلمون بعيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف، هذا إلى جانب احتفالات أخرى خاصة بالقبيلة كانتصار أحد أفرادها يتمكن من قتل أسد أو غمر، أو حقق بطولات في غزوات خارج منطقة القبيلة.

يمارس سكان القبيلة حياتهم اليومية في الزراعة، فابن المادي يستيقظ مبكراً ويفتسل، وينظف أسنانه بالسُّواك حسب العادات القديمة، ويذهب الرجال إلى أعمالهم في الزراعة أو الرعى، أما المرأة فتقوم بأعمال تنظيف البيت وهو الكوخ المعروف باسم القُطَيَّة، وتقوم بزيارة جاراتها لتقديم أي مساعدة أو واجب اجتماعي، وفي الماضي كان الصغار يذهبون مع الكبار إلى الزراعة والرعى، أما الآن فانهم يذهبون إلى المدارس ويساعدون أهلهم بعد انتهاء الدوام المدرسي.

وعادة ما يجلس الرجال بمفردهم حيث يتسامرون ويتناولون طعامهم، وتجلس النساء بمفردهن، وكذلك الأطفال، ويبلغ متوسط العمر في القبيلة نحو ستين عاماً، وفي الماضي كان متوسط العمر يصل إلى ثمانين عاماً، وربما كان السبب في ذلك هو انتشار الأمراض ولاسيما مرض النوم الذي تسببه ذبابة (التي تسي)، وهناك مرض ظهر في السنوات الأخيرة واسمه (بروللي) لادواء له، وقد جاء مع الأوغنديين الذين لجأوا إلى المنطقة بعد الحرب التنزانية الأوغندية التي أطاحت ببيدي أمين عام ١٩٧٩.

بدأ التعليم ينتشر في أوساط القبيلة في السنوات الأخيرة. وتهتم الأسرة الصغيرة بتعليم أولادها، ويوجد في منطقة قبيلة المادي تسع عشرة مدرسة ابتدائية، ومدرسة

ثانوية واحدة، ويتلقى التلاميذ تعليمهم باللغات الانجليزية والعربية ولغتهم الأصلية ومن يحصل على الثانوية العليا يلتحق بالجامعة، ولا يزيد عدد الذين تلقوا تعليمًا جامعيًا في القبيلة كلها على خمسة عشر شخصاً.

للقبيلة عاداتها في الزواج، ففي الماضي كان الأب هو الذي يختار عروساً لابنه، أما الآن فقد قلّت هذه الظاهرة ويمكن للشباب أو الفتاة أن يختار كل منهما شريك حياته، وسمعة الشاب في القبيلة هي جواز سفره إلى الزواج، ومن الأفضل أن يكون للشباب مصدر دخل من عمل يقوم به، أو يكون معروفاً بجرأته وشجاعته، ويكون قادراً على دفع المهر الذي يطلب منه وهو عادة من الأبقار أو الأغنام، ويتراوح ما بين خمس إلى اثنتي عشرة بقرة حسب الحالة المادية للأسرة، أما الأغنام فتصل إلى أربعين رأساً، وعليه أن يساعد والد زوجته في الزراعة، وتجديد بناء كوخه، خاصة إذا كان والد الفتاة فقيراً، والمهر هذا مسألة ضرورية، وإذا لم يكن الشاب قادراً على دفع ما يطلب منه من أبقار وأغنام، يصبح ديناً عليه واجب السداد حتى عندما يكبر أطفاله من البنات ويتزوجن، فإنه إذا زوج إحداهن ينحصر جزء كبير من مهرها ويسدده لأهل زوجته، للجد أو الجدة أو والدة العروس، ورغم أن معظم السكان مسيحيون، إلا أن الرجل قد يتزوج أكثر من زوجة، لأن القبيلة تعتبر تعدد الزوجات عادة من عاداتها وتقاليدها تفصل بينها وبين الدين.

ومن العادات الشائعة في القبيلة أنه لا يجوز أن يتزوج شخص ما، شقيقة زوجته، وفي الماضي لم يكن يسمح لابن القبيلة أن يتزوج من قبيلة أخرى، ولكنهم الآن تفاضوا عن هذه العادة، ويمكن للشباب أن يتزوج من قبيلة أخرى، ويحرم على الشاب الزواج من أي فتاة تنتمي إلى الأسرة بالقرابة، كما يحرم زواج الأخ أو الأخت في الرضاعة، ولا زالت هذه التقاليد قائمة حتى الآن.

فيما مضى كان المهر عبارة عن أبقار وأغنام وأدوات زراعية تُسمى (المالوده) أما هذه الأيام فيمكن تقديم المال بجانب الأبقار، وفقاً للإمكانات المادية لدى الشاب، وكان يجري الاحتفال بالزواج في منزل أسرة الفتاة، ولكن الآن يمكن أن يقام الاحتفال بمنزل الشاب.. ولأن والد الفتاة كان يتحمل مسؤولية اختيار

شريك حياة ابنته ، فإنه يتحمل أيضاً مسؤولية ما إذا كانت الفتاة بكرًا أم لا ، لأن هذا يمثل فضيحة لوالدها ، وفي هذه الحالة فإن من حق الشاب أن يعيد العروس إلى أهلها ويسترد ماله ، وعلى الشاب الذى انتهك عذرية الفتاة دون زواج أن يدفع غرامة ، وَيُرْعَم على الزواج منها ويدفع لها مهرها كاملاً ، أما الآن فليس من حق الفتى أن يشكو إذا وجدها غير عذراء لأنه هو الذى اختارها ، وهذا النوع من الفتيات يسمونها فى القبيلة (مكسورة) ، وسن الزواج بالنسبة للفتاة هي العشرون ، وكان فى الماضى يتم الزواج من سن الخامسة عشرة ، أما الآن فالسن المناسبة للزواج هي من خمسة وعشرين إلى ثلاثين عاماً .

أما موقف الأسرة من الفتاة سيئة السمعة التى تختلط كثيراً بالرجال ، فإن الأب فى هذه الحالة يطردها من البيت ولا تعود إليه أبداً .

وماذا عن الميراث ؟ .. لو أن رجلاً لديه أكثر من زوجة ولديه أبناء فهل يرث الأبناء زوجات الأب كما هو سائد فى بعض القبائل الأخرى ؟ ، والإجابة أنه فى الماضى كان يحدث أن يرث الابن الأكبر كل زوجات أبيه بحيث يصبح زوجاته ماعداً أمه ومن تكبره سناً ، ويسمى الأبناء الذين ينجبهم باسم أبيه المتوفى ، وفى هذه الحالة يصبح أولاده هؤلاء إخوة له ، وإذا لم يكن للأب أبناء من زوجاته فإن أخاه الأكبر هو الذى يرثه فى هذه الحالة ، وكل هذا بهدف جمع أفراد الأسرة حتى لا تتفتت ثروتها التى هي عادة أبقار وأغنام ، والابن الأكبر يصبح بعد وفاة أبيه مسئولاً عن رعاية إخوته وإخوانه ، يزوجهم عندما يكبرون ويساعدهم ، وإذا أُجِذَ عليه أنه مهمل فى أداء مهمته ، فإن الكبار فى القبيلة يفضون منه وينقلون الإرث إلى من يليه من أشقائه .

ولقبيلة المادي رقصاتها ، والرقصة تسمى (نُقَّارة) وهناك رقصة الزواج ، ورقصة النُصر التى ترقص عندما يتمكن أحد أبناء القبيلة من قتل أسد أو غر ، ورقصة الحرب ، ورقصة الموت التى تقام حزناً على الفقيد ، خاصة إذا كان المتوفى — أو المتوفاة — كبيراً فى السن أو ذا مركز اجتماعى فى القبيلة ، وفى المناسبات الدينية يقدمون رقصات شعبية ليس لها اسم معين ، وهناك أدوات موسيقية للرقص مثل «توريه» وهي من الخشب وتشبه الناي ، ويرقصون على أنغامها رقصة تحمل

نفس الاسم ، وهناك أيضاً «تورولو» «وبيريه» ، وكلها آلات موسيقية يستعملونها في حفلاتهم ورقصاتهم حسب المناسبة حزناً أو فرحاً .

ولا تعرف القبيلة عادة الحتان عند الذكور أو الإناث ، وفي الماضي كان يتم توليد الأم بمساعدة النساء المُستات ، أما الآن فيوجد في كل قرية مولدة «داية» متخصصة ، وتُسمّى البنت بعد أربعة أيام ويسمى الولد بعد ثلاثة أيام ، وأهل القبيلة لا يفرقون بين الذكر والأنثى فكلاهما عند القبيلة سواء .

وللقبيلة سلطان ، في الماضي كان يمثل السلطة ويؤرّث ، أما الآن فإن انتخابات تجري لاختيار السلطان ، وهو مسئول عن القبيلة ، يتعرف على مشاكلها ويعمل على راحتها . وكان السلطان يتلقى العون والمساعدات من أهل القبيلة ، وله الحق في الحصول على ثلاثة أرباع ما يصطاده أى فرد ، والسبب في ذلك أن السلطان مسئول عن جميع أفراد القبيلة ، وهو الذى يستقبل أفرادها من أماكن بعيدة وعليه أن يطعمهم ويسكنهم ويستضيفهم ويحل مشاكلهم ، وهو الذى يختار مساعديه من القبائل الصغيرة التابعة للقبيلة الأم ، وهم ينوبون عنه في أماكنهم ، فالمسافات بين القرى متباعدة ولا يستطيع السلطان أن يتحرك في المناطق كلها بسبب عدم وجود وسائل انتقال ، ولا تستخدم الحمير في التنقل ، وإنما يسرون على الأقدام ، أما الآن فالسلطان في القبيلة موظف حكومي مثل المختار أو العمدة .

ولكل قبيلة صغيرة سلطان ، وهو بمثابة رئيس الحى ، ولا زال السلطان حتى الآن يتمتع بامتيازاته القديمة وحقوقه في أن يحصل على كميات كبيرة من الصيد والطعام ويزرعون له أرضه ، وإذا اصطاد أحد فيلاً فسن الفيل وكمية كبيرة من لحمه من نصيب السلطان ، وإذا اصطاد نمراً أو أسداً فالجلد من نصيبه أيضاً . وكان السلطان فيما مضى يرتدى ملابس مميزة له ، مثل جلد النمر وأشياء أخرى تميزه عن أفراد القبيلة ، أما الآن فإنه يرتدى ملابس حكومية وعليها علامات المديرية ، وقد رأيت السلطان مرتدياً على ملابسه الحكومية ربواً أحمر بزخارف من خيوط ذهبية ، ويرتدى الآخرون الملابس العادية المتيسرة لديهم .

والسلطنة وظيفه، فهناك سلطان «النقارة» أى الذى يقوم بمهمة الحفلات الراقصة أياً كان نوعها، وهناك سلطان «الكيجور» الذى يقوم بأعمال السحر، وأهم السلاطين، سلطان المطر وله امتيازات خاصة فوظيفته تُورث، وله الحق فى الحصول على نصيبه من عوائد محصول الحصاد، وكل أفراد القبيلة يعملون على خدمته من زراعة أرضه وتنظيف مسكنه وإعادة تجديده، وكل مهمته هي إنزال المطر، وهو يعتمد فى عمله على قطع صغيرة من الحجارة الجبلية يحملها فى وعاء فخاري صغير به ماء وزيت، وبعيداً عن أعين الناس يتلو فى الوعاء قراءات خاصة ويغمس أصابعه فى الإناء وَيَرش ما يعلق بها من ماء وزيت على الأرض وعلى أغصان الشجر، وبعد وقت قصير ينزل المطر، وإذا لم ينزل خلال فترة عشرة أيام، فعنى ذلك أن السلطان غاضب على شخص ما، لأنه غمطه حقه، ولم يرسل له نصيبه من المحصول الزراعى، أو أن هناك نزاعاً بين أفراد القبيلة، كأن يكون شخص ما، وعد فتاة بالزواج ولم يدفع لها مهرها.. المهم أن يكون هناك سبب يبرر به عدم سقوط المطر، وفى هذه الحالة يجتمع كبار أفراد القبيلة من نساء ورجال لدراسة الأسباب والبحث عن أصل المشكلة أو النزاع وإقامة الصلح بين المتنازعين، ويسدد كل من عليه ذنب ما عليه، وإذا ثبت أن شخصاً ما غمط سلطان المطر حقه، يحاكم ويدفع غرامة للسلطان بالإضافة إلى مستحقاته، أي أن سلطان المطر^(١) يقوم بدور المصلح الاجتماعى، وإذا قل المطر أوزاد أولم يسقط، فإن سلطان المطر يحاسب ويمنع عنه ما يريد ويجلد، ويخلع عنه اللقب، ويتم اختيار سلطان آخر، ونادراً ما يحدث هذا، ويؤمن معظم أفراد القبيلة بدوره فى إنزال المطر، وهناك قلة لا تثق فيما يفعله، ولكل قبيلة سلطان مطر خاص بها.

وطعام سكان القبيلة هو عادة من الذرة التى يصنعون منها العصيدة والمريسة، والسمسم ويصنعون منه الشوربة، وبامبيه وهي مثل البطاطس ويصنعون منها الطعام الذى يسميه السودانيون (الملاح) - بضم الميم - والبافره وهي تشبه

(١) أعتقد أن سلطان المطر هذا يتمتع بذكاء فطري وهو يقوم بعمله من خلال متابعتة لحركة الرياح والطقس كما يفعل الفلكيون، وهو ليس فلكياً بطبيعة الحال، ولكن لديه إحساس خاص بحركة الرياح واحتمالات سقوط المطر.

البطاطا، حلوة المذاق ويستخرجون منها الدقيق بعد تجفيفها، والتلبون، والأشارييف (الذرة الشامية) وهذا هو طعامهم الشائع، وإذا كانت الأسرة ذات وضع مالى جيد فيمكن أن يأكلوا لحم الأغنام والدجاج ويصنعوا الكِسْرة والمَدِيدَة كأهل الشمال.

ومن عاداتهم أكل لحم الحيوانات والطيور الميتة، ويندر أن يذبحوا ثوراً أو خروفاً إلا في المناسبات الاجتماعية الهامة، ويعتمدون في أكلهم على ما يصطادونه من حيوانات الغابة وما يموت من الأغنام والدجاج، وهم لا يذبحون من ماشيتهم، رغبةً في تكاثرها لأنها مقياس الثروة، ولديهم نحو خمسة عشر ألف رأس من البقر وخمسة آلاف رأس من الغنم والماعز، ولديهم دجاج كثير، ومن الطيور الجارحة الصقور، فهم يسمونها بأسماء متعددة، مثل لاكوليا، وموكو، وميلواتيه، وادنجوجو، وكانت لديهم طيور الببغاء المقلدة للأصوات لكنها انقرضت.

لا زال يوجد في قبيلة المادي أفراد من سكان القرى النائية لم يسمعو بالراديو والتلفزيون، ولم يزوروا حتى مدينة نيمولي، ومعظم السكان يهتمون بزراعة الذرة والقمح والبقول وإنتاج عسل النحل الذي يُكَوَّن له خلايا داخل الأشجار، ويجمعون العسل بإشعال النيران وإثارة الدخان نحو الخلية مما يجبر النحل على التطاير بعيداً، وعندئذ يأتون لنقل الخلية كاملة بشمعها قبل أن ينتهى تأثير الدخان.

إنَّ حرفتي الزراعة والرعى ليستا هما فقط وَظِيفَتِي أهل القبيلة، فهناك من يعمل بالتجارة، ويشترط أن يكون لدى التاجر رخصة، وَيُخْضَر السِّلْع من أسواق جوبا، والدكاكين عادة ليست كبيرة، فهي صغيرة تحتوى على السلع الضرورية. وعندما كنت هناك عام ١٩٨١ لاحظت أن بعض الأطعمة مثل الخبز والبيض واللحوم غير متوفرة، فذكر لى سلطان القبيلة السيد ساباسيو أن سبب ذلك هو نزوح اللاجئين الأوغنديين الذين بلغ عددهم في منطقة نيمولي وحدها حوالي ثمانين ألف لاجيء، وهم ينتمون إلى نفس القبيلتين السودانيتين؛ المادي والآشولي ويتحدثون لغتهما، وقد أحدثوا بمجيئهم هذا حالة من الرواج الاقتصادي حيث نزع بعضهم بأموالهم هرباً من الحرب وانخرطوا بعد ذلك في العمل والزراعة، فازداد الإنتاج والاستهلاك.

بجانب التجارة، هناك أعمال يدوية مثل الخياطة والنجارة، ولكن عدد العاملين بها قليل، ويقبل الأولاد الآن على التعليم ويساعدون ذويهم في الزراعة بعد الظهر، وتكثر في مناطق القبيلة الحيوانات البرية مثل الجاموس الوحشى، والتيتل، والغزلان بأنواعها المتعددة ويسمونه الدقدق وأبوغرُف، كما توجد الأفيال والخنازير البرية، والأسد، والفمر، والخزيت، والتماسيح في مياه الأنهار، وفرس النهر المعروف باسم سيد قشطة.

و يصطادون الفمر عن طريق فخاخ ينصبونها، ويربط الى جوار الفخ خروف أو ماعز، وعندما يرى الفمر فريسته يسرع إليها ويهم بافتراسها فتقع أحد أطرافه في الفخ فيمسك به، وعند ذلك يسرع إليه الصياد فينهال على رأسه ضرباً بعصا غليظة - وهو في الفخ - حتى يسقط صريعاً، فيضمن الصياد أنه احتفظ بجلد الفمر سليماً، أما من يخاف منه فيضربه بحربة تصيب قلبه، ولكن الصياد الذى يفعل ذلك لا يستطيع أن يتباهى أمام أقرانه بأنه شجاع، لأنه استخدم الحربة في قتل الفمر وليس العصا، ومن يصطاد فمراً يحتفظ بجلده ليرتديه في المناسبات دليلاً على شجاعته.

وللقبيلة قضاؤها الخاص، فإذا ارتكب أحد جريمة قتل أو سبب أذى لشخص آخر، أو سرق، تشكل محكمة من كبار السن ويتداولون القضية ويحكم على القاتل بالإعدام، ويسجن السارق، وإن كان صغيراً يودع سجن الأحداث. والاعتصاب جريمة، وفي الماضي إذا شكّت الفتاة لوالدها أنّ شخصاً اغتصبها، فقد يقوم إخوة الفتاة بقتله، أما الآن فيذهبون إلى والد الشاب ويحكمون عليه بدفع خمس بقرات كغرامة، ثم يدفع مهراً آخر ويتزوجها رغماً عنه، وفي حالة رفضه لقرار القبيلة تحول القضية إلى المحاكم المدنية، وقد تصدر حكماً بسجنه لمدة تتراوح بين سبع وأربع عشرة سنة بالإضافة إلى فرض غرامة مالية.

وإذا حدثت مشاكل بين الجيران، يجتمع عدد من كبار رجال القبيلة لفض النزاع، وهو عادة ما يكون نزاعاً على الأرض الزراعية التى يزرعونها.

ولم يكن للفرد من القبيلة حق الاستئناف إذا أصدر السلطان أو مجلس القبيلة حكماً ضده، أما الآن فهناك محكمة التمييز ومحكمة الاستئناف ومحاكم ايكو، وبيكو،

وسيكو، أى محاكم متدرجة وفقاً للحروف، و«سيكو» هي المحكمة العليا، ومن يرفض حكمها يعود إلى الحكومة المركزية أو حكومة الإقليم حيث يعرض أمره على قاضى العاصمة. أما قضايا القتل، ففي الماضى إذا ارتكب شخص ما جريمة قتل، فإن السلطان يجمع كل سلاطين وشيوخ القبيلة ولا يحكمون بإعدام القاتل، وإنما عليه أن يدفع بنتاً شابة من أسرته كغدية لأسرة القتيل، وقد استبدلت الفدية الآن بدفع دية من الأبقار، أو محاكم بواسطة القضاء، وتطبق عليه العقوبة المناسبة.

وللقبيلة عاداتها فى دفن الموتى، فالميت يدفن فى نفس البيت، وليس لهم مقابر عامة يدفنون فيها موتاهم، وإذا كان الميت شخصية معروفة، أو كان قد اصطاد نمراً فى حياته، يوضع على قبره جلد ذلك النمر، وبعد ذلك تقام رقصة الموت حيث يحضر كل أفراد القبيلة من نساء وشيوخ ويرقصون رقصة يتخللها البكاء والعيول، وتهيل النساء التراب، على أجسادهن، ويتمرغن فى التراب، ويشرب الكبار والصغار المريسه^(١) بإسراف فى ذلك اليوم.

(١) المريسة نوع من الخمور تصنع من الذرة المحمرة.

قبيلة
الآشـولي

(٢)

الآشولي

تقع مناطق قبيلة الآشولي على مساحة سبعين كيلو متراً طولاً وثمانية وثلاثين (كم) عرضاً^(١)، في المنطقة الواقعة بين نيمولي وجوبا شرقى الإستوائية، تجاورها غرباً قبائل المادي ومنطقة «توريت»، وشرقاً منطقة «أبوتوي»، وجنوباً منطقة ليمورو، وشمالاً منطقة «دايوه». تمتد مناطق الآشولي شرقاً إلى الحدود مع كينيا، ويقع في أراضيها أعلى جبل في السودان وهو جبل «أباتالانجا» الذى يبلغ ارتفاعه نحو سبعة آلاف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر، وعلى قمته توجد منابع مائية كثيرة، تصب جداول في اتجاهات مختلفة، يرتوى منها الأهالى المقيمون على سفوحه ومعظمهم من الأوربيين الذين استصلحوا الأراضى وزرعوا سطح الجبل بالشاي، وأيضاً زرعت الخضروات والبطاطس والأشجار الحمضية.

وتهطل الأمطار على قمة الجبل طوال العام باستثناء ديسمبر ويناير وفبراير حيث تقل كمية الأمطار في هذه الشهور، وترتفع درجة الحرارة لتصبح سبعة وعشرين درجة، أما في بقية شهور السنة فينزل المطر يومياً، ويبدأ نزوله في منتصف النهار ليتوقف بعد منتصف الليل، ويظل الجو غائماً، ولا تزيد درجة الحرارة فى موسم الأمطار على عشرين درجة، وفي الصباح تشرق الشمس وتنقشع الغيوم ويصفو الجو، وعندئذ يخرج المزارعون لمزاولة نشاطهم وأعمالهم الزراعية بهمة ونشاط قبل موعد هطول المطر، وهذا الجو ملائم لزراعة الشاي، ولذلك يعتبر الشاي المنتج في هذه المنطقة من أجود أنواع الشاي.

تتميز الجبال بوجود معادن بها لم تكتشف بعد، مثل الحديد والنحاس والرخام.. وأحياناً يذهب الأهالى إلى خيران المياه المتدفقة من ينابيع الجبل ليجمعوا قطع النحاس المتساقط منه.

في زيارتي «ماجوي» مركز القبيلة لتسجيل عاداتها وتقاليدها، التقيت بسلطان القبيلة واسمه «كوتايانو كوبرياك»، يبلغ من العمر نحو خمسة وخمسين

(١) مصدر شفهي.

عاما، وله زوجتان وعشرة أبناء، تقلد منصبه منذ عامين ونصف بالانتخاب، ويؤدي عمله كموظف حكومي، له مكتب وبه موظفون، كان معنا مفتش المنطقة وهو مساعد المحافظ واسمه «ماركو ألوماكي يو»، عمره خمسة وثلاثون عاما وهو من قبيلة المادي وقد عمل مفتشاً منذ عام ١٩٧٧، وجاء إلى هذه المنطقة عام ١٩٨٠، وكان معنا سلطان آخر اسمه «اوتانوا اوينو» عمره أكثر من ثمانين عاما، والتحق بالعمل بالحكومة كسلطان منذ عام ١٩٢٠، وهو متزوج ولديه ثلاثة أبناء كبار وأحفاد كثيرون، والسلطان (يوكاس كومو) ولديه ثلاث زوجات واثنا عشر ولدا.

كان السلاطين يجيبون على أسئلتى بلغتهم، بينما تولى المفتش الترجمة إلى العربية ولكنه جنوبية.

وأول ما عرفته منهم أن «الآشولي» يتفرع عنها قبائل صغيرة تسمى بأسماء المناطق مثل ماجوي، أوميرو، أجورو أكوازا أوبو، بالوا، لوبولي، ايجيلي، وكل هذه المناطق لها سلاطينها الذين يرأسهم السلطان، وعدد أفراد القبيلة نحو خمسة وأربعين ألفا، أى أكثر بقليل من سكان قبيلة المادي.

ترجع تسمية القبيلة إلى مؤسسها الأول «شول»، وكان ذلك منذ ثمانمائة عام تقريبا، وهو أصلاً من قبيلة الشُّك التي تستوطن إقليم أعالي النيل، وهي من القبائل الكبيرة في جنوب السودان المعروفة باسم النيلية، وتختلط فروع من قبيلة الدنكا (أكبر القبائل في جنوب السودان) بقبيلة الآشولي. وتنتشر هذه القبيلة في يوغندا وكينيا عند مناطق الحدود مع السودان، وقد تفرع عن «شول» مؤسس القبيلة أبناؤه الذين ملكوا المناطق وَوَرَّثُوهَا لأبنائهم مثل «لوباتو»، «جوتيو»، «بوجول»، «برت»، «كين»، «تالروجا»، «ماج»، فتاريخ القبيلة يمثله تسعة جُودود تعاقبت في عدة ممالك خلال ثمانمائة عام.

يتحدث أبناء القبيلة لغة الآشولين، وهي لغة مشتركة مع لغة قبيلة «الشُّك» وقبيلة «نوكورو» المجاورة لها، وتستطيع قبائل «المادي» و«جيريه» و«بيركا» و«نوات» القريبة من منطقة «بور» بأعالي النيل فهم لغة

الآشوليين ، وللآشولي فرعان في يوغندا؛ يسمى الأول « انجانجو » والآخر في غرب يوغندا يسمى « اللوي » ، وفرع في كينيا يسمى « لو » في منطقة ماداما .

يدين معظم سكان القبيلة بالديانة المسيحية حيث تبلغ نسبة الذين يدينون بها ٥٨% بالمائة ، والمذاهب السائدة هي الكاثوليكية والبروتستانتية ، ونسبة المسلمين قليلة ٥ بالمائة ، أما غير المتدينين فنسبتهم عشرة بالمائة ، ويحتفل أبناء القبيلة بأعياد الميلاد وعيد الفصح ، ولهم احتفال خاص في شهر نوفمبر من كل عام يسمونه **THE SAME DAY** (نفس اليوم) ، ومن الاحتفالات الخاصة بهم احتفال يوم الحصاد ويسمى في لغتهم « كوروجو » ومعناها الزراعة .

يتعدد السلاطين في القبيلة كما هو موجود في القبائل الأخرى ؛ فهناك سلطان للمطر ، وسلطان للحرب ، وسلطان للسحر (المعروف باسم الكيجور) وسلطان للأرض ، وأهمهم جميعاً سلطان المطر ، ويعتقد أهل القبيلة أن هذا السلطان يحكم علاقته الخاصة مع الإله الأكبر يستطيع أن ينزل المطر ويتحكم فيه بواسطة صلاة خاصة يؤديها ، وهم يثقون به وبقدرته على إنزال المطر والتحكم فيه وإيقافه إذا زاد كي لا يضر بمحاصيلهم ، ويعتقدون أن سلطان المطر يستطيع أن يمنع نزوله إذا جار عليه أحد ، أو غمطه حقه في الحصول على نصيبه من المحاصيل الزراعية ، أو أهملت زراعة أرضه والعناية ببيته ، فيشيع بأنه خاطب الشمس لتحرق محاصيلهم أو يأتي بمطر منهمر ليقتل بهائمهم وَيُفْسِدَ زراعتهم ، وعندئذ يتوجه إليه الناس متسائلين عن عدم سقوط المطر أو شدة نزوله ، الأمر الذي يسبب لهم ضرراً ، فيبلغهم أن فلاناً لم يدفع له حصته من المحصول ، فإذا سئل الرجل وثبت أنه لم يدفع ، يطالبونه بدفع حصته للسلطان ، فيدفعها على الفور .

أما إذا زاد سقوط المطر أو انقطع ويكون الجميع قد أذوا ما عليهم من حقوق ، فإن سلطان المطر يعطى فترة إنذار لمدة أسبوع ، وعليه أن يؤدي واجبه كسلطان طالما أن القبيلة لم تهضم حقه ، وإذا زاد المطر بعد ذلك فإنهم يدفونونه حيا عقاباً له ، أما إذا لم يسقط المطر فإنهم يوقدون ناراً وَيَقِيدُونَهُ بجوارها ويحادثونه بأنه إذا كان سلطاناً للمطر حقيقة ، فعليه أن ينزله ليطفىء النار حتى لا تحرقه ، وهم

يعتقدون أن هناك رباً أكبر من السلطان لا يعرفون مكانه وهو وحده الذى يتصل به من خلال صلواته ، وإذا سقط المطر وهو مقيد بجوار النار فإنهم يطلقون سراحه ويعتذرون له ، وهذا يتأكد لهم أنه سلطان للمطر حقيقة ، وإذا لم ينزل المطر يتركونه هكذا بجوار النار إلى أن يحترق ، ونادراً ما يحدث موقف كهذا لأنه دائماً يفي بوعده ويسقط المطر، ويوقفه إذا زاد .

تحدث إليّ سلطان المطر في هذا اللقاء واسمه « نيتو-نا » وعمره ستة وخمسون عاماً ، وهو يؤدي وظيفته منذ اثنين وعشرين عاماً ، ولم يحدث أن أخطأ مرة واحدة ، ويقول إن الناس إذا تعمدت ألا تعطيه نصيبه من المحاصيل فإنه ينذرهم بأن المطر لن ينزل ، وقد حدث ذلك مرة واحدة طوال فترة الاثنين والعشرين عاماً ، فقد منع عنهم المطر مرة لأنهم لم يعطوه شيئاً من المحاصيل .

كنا في شهر إبريل (أي مع بداية موسم الأمطار) ، فسألت سلطان المطر أن ينزل في تلك اللحظة مطراً مقابل مبلغ من المال أعطيه له ، ليكون مقدمي خيراً على أهل القبيلة ، فهم يستبشرون بالضيف إذا هطل المطر أثناء زيارته لمنطقتهم .

نظر إليّ السلطان بغضب وراح يتحدث بلغته إلى من حولى منفعلاً ، فانتظرت حتى يترجم لى المفتش العام ، وما إن فرغ حتى عرفت أنّ السلطان قد غضب منى ، وأنه يتساءل لماذا أطلب منه عملاً كهذا ، لقد شعر بأننى أدفع له ثمن نزول المطر ، وأنه لا يجوز أن أتدخل في أمور تخص القبيلة ، وإلا فإن الرب الذى يصلى له سوف يغضب منه ولن يقبل دعاءه مستقبلاً ، وقال إنه حتى لو أنزل المطر فإننى عندما أعود الى بلدى سوف أقول إنّ أموالى هي التى أنزلت المطر وليس السلطان .

شعرت أن السلطان اتخذ منى موقفاً ، وحاولت أن أطيب خاطره وأؤكد له أنني لم أقصد استفزازه أو التدخل في شئون عمله ، ولكي أطيب خاطره غيرت مجرى الحديث معه فسألته عن عدد أولاده فقال ستة ومن زوجة واحدة .

وتتشابه عادات القبيلة اليومية مع القبائل المجاورة الأخرى ، فهم يستيقظون في الساعة الخامسة صباحاً قبل شروق الشمس ويغسلون وجوههم وينظفون أسنانهم

بالسواك ، ويتوجهون بعد ذلك إلى أعمالهم في الصيد أو الزراعة ، يتبعهم أولادهم إذا لم يكونوا ملتحقين بالمدارس ، وفي المساء يلتقى الكبار فيتسامرون حول النار حتى الساعة التاسعة مساءً تقريباً ، أما الشباب فهم يذهبون إلى الحفلات ، حيث الطبول والرقص حتى الحادية عشرة ليلاً .

والرجل مسئول عن جلب الذرة والطعام لأسرته والدفاع عنها وعن بيته من أي خطر يهددها ، أما الزوجة فمسئولتها تتركز في إعداد الطعام وجلب المياه وإعداد الخشب وأعواد السافانا المعروفة باسم القش لصنع سقف الكوخ أو غيره ، كما أنها مسئولة عن تنظيف الأولاد والبيت من الداخل ، وعندما يكبر الأبناء يذهبون مع الأب ليتعلموا منه العادات ويفهمون تقاليد القبيلة ، والأم تعلم ابنتها هذه العادات والتقاليد ، أما السلاطين فكل يدرّب أبنائه على مهنته ويشرحها لهم ويدعمهم يعتادون عليها ويمارسونها مثل سلطان المطر وسلطان الحرب اللذين تتطلب مهنتها زمناً طويلاً من التدريب .

لم تدخل قرى القرية الكهرباء ، وبالتالي لم يشاهدوا التلفزيون وإن كان معظمهم قد سمع به ، أما الذين في القرى البعيدة فلم يسموا راديو ولم يشاهدوا إنساناً يلبس نظارة ، ولم يروا امرأة ولم يروا صورهم ، إلا وهي منعكسة على صفحات المياه ، وهناك مناطق وخاصة في «ماجوي» والمناطق المجاورة لها على الطريق العام ، يمتلك أغلب السكان فيها الراديو والمسجلات التي تعمل بالبطاريات .

أما عادات الزواج عند قبيلة الآشولي فتبدأ بأن يختار الشاب زوجته ويتفق معها على الزواج .. ثم يُبلّغ الشاب أسرته ، وتُبلّغ والدته بدورها كبيرات السن من السيدات اللائي يَسْكُنُ بجوار بيت العروس ، وفي الليل يقوم الشاب وبدون علم أهل الفتاة بالذهاب إلى بيتها متسللاً في جنح الظلام إلى الداخل ، ويخطف الفتاة إلى منزل والده .. وفي الصباح عندما تكتشف الأسرة اختفاء ابنتهم ، يسألون الجيران عنها فتجيبهم السيدات : — إن ابنتكم خطفها فلان .

بعد ذلك يذهب أهل الفتاة إلى أهل الشاب لاسترجاع ابنتهم والاتفاق على المهر وحفل الزواج وغرامة « كسر البيت »، وكسر البيت هنا يعنى أن الشاب خطف الفتاة من بيتها عنوة وفض بكارتها، وعليه أن يدفع غرامة مقابل ذلك، ثم يدفع مهراً كاملاً، والمهر في قبيلة الآشولى ليس من الأبقار لعدم وجودها في مناطقهم بسبب رطوبة الأرض من كثرة الأمطار، وإنما يقدم الشاب مهره من « المالوده » أو الخراف، « والمالوده » هي آلة زراعية حديدية تستخدم في حرث الأرض، وكل خمس مالودات تساوى خروفاً واحداً، ثم يدفع غنماً من عشرين إلى ثلاثين رأساً، بالإضافة إلى دفع مبلغ من النقود (من خمسة إلى ثمانية جنيهات) كما أنه يساعد والد الفتاة في زراعة أرضه وسقيها وحرثها.

في اليوم التالي من عودة البنت إلى أهلها يبدأ والد الشاب مناقشة موضوع الزواج مع والد الفتاة ويدفع المهر، ويعد لإقامة احتفال بركة، حيث يحضر والد العريس خروفاً يذبحه على شرف والد العروس، ويدعو الناس لتناول الطعام، وتسمى هذه المناسبة باحتفال البركة، وهذا معناه موافقتهم على تسليم البنت إلى زوجها.

ومن تقاليدهم في الزواج ألا يتزوج رجل من نفس أسرته حتى الجد السابع، لأن ذلك في أعرفهم تنتج عنه عيوب في النسل، كما يرون أن أهل الأسرة والأقارب هم إخوة وأخوات وبالتالي لا يجوز الزواج بينهم، إلا أن هذه القيود قد خفت الآن إلى حد كبير.

ومن تقاليد القبيلة أنه طالما اختار الفتى زوجته فليس لأسرة الفتاة أي مسئولية إذا اكتشف أنها ليست بكرًا، فطالما اختارها ودفع المهر فليس من حقه أن يشكو منها أو يطالب باسترداد المهر.

وإذا حاول شاب الاعتداء على فتاة أو اغتصابها، فالحكم في هذه الحالة أنه إذا كانت الفتاة في سن البلوغ، فإن على الشاب أن يدفع غرامة (كسر بيت) أي فض بكارة، وإذا كانت صغيرة فإنه يدفع غرامة مالية كغرامة كسر بيت،

ومثل هذه الحوادث في القبيلة أصبحت الآن تعرض أمام المحاكم حيث يدفع المعتدي الغرامة ويحكم عليه بالسجن .

وغرامة كسر البيت عادة تُقدَّر بنحو ثلاثين جنيا ، وإذا وعد الشاب الفتاة بالزواج وعاشرها دون أن يتزوجها ، فإنها في هذه الحالة تخطر أهلها الذين يطالبون الشاب بدفع الغرامة ، ثم يدفع مهرها لأنه لابد أن يتزوجها . وعند ذلك لا يكون هناك سبب للذهاب إلى المحكمة .



ليس هناك زي لمعين يرتديه العريس أو العروس ليلة الفرح أو احتفال البركة ، وإنما يقيمون حفلاً يدفع فيه المهر ويشربون المريسة ، وهو شراب مسكر من الذرة ، إلا من يذهب منهم إلى الكنيسة فإنه في هذه الحالة يرتدى ملابس خاصة ، وعادة ماتكون الفتيات الصغيرات عاريات ، فالبناات في الماضي لم يَكُنَّ يرتدين ملابس كاملة ، والأولاد والبناات دون العاشرة كانوا عرايا تماماً ، أما من هن في سن البلوغ واللائي برزت صدورهن فيرتدين رداء يشبه التنورة القصيرة من الجلد على شكل شرائح ، وما فوق ذلك فهو عار ، أما الآن فأصبحن يرتدين الفساتين ، ومن لا تملك فستانا فيكفى أن ترتدى « سوتيانا » ، والذين يعيشون بعيداً عن المدن والقرى الكبرى فهؤلاء لازالوا كعادتهم القديمة يرتدون نصف الملابس .

وقد حرقوا استخدام القماش كرداء عام ١٩٢٨ من الجنود الأتراك أو المصريين أو من الكنيسة ، وقبل ذلك كانوا عراة ، أما النساء فكُنَّ يرتدين أشرطة جلدية لستر العورة فقط .

ورغم أنهم يدينون بالمسيحية ، إلا أنهم يتزوجون أكثر من واحدة ولا يدخلون الدين في عاداتهم ، والسلطان يستطيع أن يتزوج كما يشاء حسب قدراته الجنسية والمالية ، ويمكن لبنت السلطان أن يتزوجها رجل عادي ، كما أن ابن السلطان قد يتزوج فتاة عادية ، وفيما مضى كان لا يحدث ذلك ، فأبناء السلاطين لا يتزوجون إلا من بنات السلاطين . وهم لا يعرفون الختان للأولاد أو البنات .

وكانت ولادة الطفل تشرف عليها امرأة مُسَيَّة، أما الآن فإن المُولَّده (الدَّاية) تقوم بذلك، وتسمى البنت بعد أربعة أيام من ولادتها، ويسمى الولد بعد ثلاثة أيام، ولا فرق عندهم بين الأولاد والبَنات، وهم لا يفرقون بينها في الميراث.

وإذا توفي رجل في الأسرة ولديه أكثر من زوجة فإن ابنه الأكبر أو شقيقه يرث زوجاته باستثناء الأم، والزوجة التي تكبره سناً، وبنجب منهم ويسمى أبناؤه باسمه.

تعانى القبيلة من الأمية، فالتعليم قليل فيها ولا يزيد عدد الذين حصلوا على شهادات جامعية على عشرة أشخاص، والذين حصلوا على تعليم ثانوى يقدرون بمائتين، ويتعلم الأطفال في المدارس اللغتين الانجليزية والآشولية، ولا يتعلمون العربية، والمتعلمون منهم يتحدثون مع القبائل الأخرى — التي لا تتحدث لغتهم — بالإنجليزية، أمّا غير المتعلمين فيتحدثون بالعربية الدارجة محلياً.

المهنة الرئيسية لقبيلة الآشولي هي الزراعة والصيد، أما الصناعات المحلية مثل الأدوات الموسيقية أو تلك الأشياء التي يصنعونها من الجلد أو الخشب، فإنهم لا يعتبرونها مهناً، وإنما مجرد هواية وتسلية.

ويتميز الآشوليون عن القبائل الأخرى بعلامات كانوا يرسمونها في الماضي على صدور الفتيات والفتيان، حيث كانوا يصنعون نقوشاً مزخرفة على شكل زهرات ومثلثات وخطوط حول الثديين وعلى البطن، وكانوا أيضاً ينزعون سنين سفليين من أسنان الفتيات كنوع من التجميل والتعريف بالقبيلة، وكان الرجال يحفرون على أجسادهم بألة دقيقة تتحرك على الجلد لترسم هذه النقوش دون أن يبدى الواحد منهم أي ألم، وقد بدأت هذه العادات الآن تتوارى.

والآشوليون متوسطو الطول، كما أن متوسط العمر يتراوح ما بين خمسة وخمسين وستين عاماً، وتنتشر بينهم أمراض الملاريا والحصبة والدوسنتاريا والبلهارسيا، وأمكن لهم أن يتحصنوا ضد الكوليرا، ويندر وجود مرض النوم الذى تسببه ذبابة (التي تسي).

ويؤمن أهل القبيلة بالسحر، والسحر له سلطان خاص يعرف بسلطان «الكيجور»، وقليلون هم الذين لا يعتقدون فيه .

أما غذاؤهم فهو من الذرة والدخن والأشارييف (الذرة الشامية) والسسم واللوبيا، وعندما أعربت لهم عن دهشتي لأنهم يأكلون اللحم المَيْتة، ضحكوا وقالوا إنهم لا يرون في ذلك أي غرابة، فهو أمر عادي بالنسبة لهم، وهم يعتمدون على لحوم حيوانات الصيد، ولا يذبحون أغنامهم ومواشيهم لأنها تمثل ثروتهم الحقيقية. وتكثر في مناطق الآشولي الحيوانات الغاية كالأسد، والفمر، والجاموس الوحشي، والتمتل، وفصائل الغزلان المختلفة مثل، أبونباح، وكتنبور، والدقيدق، كما تكثر في مناطقهم الأفاعى من نوع الأصلة التي يبلغ طولها نحو خمسة أمتار، وهي ضخمة الجسم لذا تتحرك ببطء، فهي غير سامة وتبتلع ضحيتها إنساناً كان أم حيواناً، ويصطادونها بالحرايب، ويستخدم جلدها في صنع حقائب السيدات والأحذية، وهو غالي الثمن .

ومن الأخطار التي تهددهم إذا تعرض قطع من الأغنام لهجوم من حيوان متوحش كأسد مثلاً، فإن راعية الغنم (وهي عادة ماتكون فتاة) تسرع إلى إبلاغ الكبار بما حدث، فيحمل الشباب حرايهم ويقتفون أثره ويشكلون دائرة واسعة حوله ويضيقون عليه شيئاً فشيئاً، إلى أن يكون في مرمى من الحربة، وعندئذ توجه إليه الحربة الأولى لتتفرز في جسده (ومن طباع الأسد أنه لا يهاجم حتى ينزع الجسم الغريب من جسده) فيحاول سحب الحربة بأسنانه، وفي خلال ذلك تنال عليه حرايب أخرى فيسقط صريعاً، ومن عادة الأسد ألا يهاجم الإنسان العادي، ولكنه يهاجم الحيوان والإنسان الذي يخافه ويجري منه، وكثيراً ما يلتقى إنسان مع أسد في الغابة، كل يمشى في طريقه، لا يتعرض له الأسد بسوء طالعاً لثباته لا يخافه أو يجري منه، والأسد العجوز هو الذي يطارد الإنسان لأنه يعجز عن مطاردة الحيوان، وإذا ذاق طعم لحم الإنسان فإنه يفضل على لحم الحيوان للملوحته ولا يأكل غيره، وعند ذلك يتكاتف أبناء القبيلة ويقتلونه، وقيمون احتفالاً بعد قتله .

تنتشر في مناطق الآشولى كذلك الشعابين والعقارب ولا تسبب لهم خوفاً، فرغم كثرتها إلا أنه من السهل عليهم أن يعالجوا لدغة العقرب أو الثعبان، وذلك بجرح موضع الإصابة وامتصاص الدم الذى يوجد به السم، ثم يداوى الجرح بأعشاب محلية يشفى بعدها المصاب تماماً.

في الماضي كانت القبيلة تتعرض لأخطار من نوع آخر، وذلك عندما يواجهون غزواً، حيث تعين القبيلة حراساً حول المنطقة للمراقبة، وعندما يشاهدون الغزاة، يدقون على طبولهم بإيقاعات معينة، يفهم منها أن هناك خطراً على القبيلة، وعندئذ يخرج الناس من بيوتهم ويتركونها خالية ويختفون في مكان بعيد، حتى إذا دخل العدو منطقة السكن التفوا حوله وقضوا عليه.

وبيوتهم عبارة عن أكواخ تسمى القطايطي، ولا توجد لديهم منازل مبنية من الطوب والحجارة، إلا أن الأثرياء منهم أو السياسيين قد يبنون غرفة أو غرفتين بجوار القطية ويسقفونها بالزنك.

ويزرع أبناء القبيلة الشاى والبن والأرز والقصب والأشارييف (الذرة الشامية)، والزراعة أفضل مجال للاستثمار، ولا يزيد دخل الفرد منهم في العام على مائتي جنيه، وهذا أعلى دخل وتحققه التجارة. أما أقل دخل فيقدر بمشرين جنيهاً سنوياً.

والاتجاه الآن لدى الأهالي هو الحرص على تعليم أبنائهم، ولذلك تمثل المدارس أولى احتياجاتهم بجانب تمهيد الطرق وتسويتها، إضافة لحاجتهم إلى طاحونة كبيرة لطحن الغلال (من ذرة وقمح)، تلك الحبوب التي يعتمدون عليها في غذائهم اليومي.



قبيلة
اللاتوكا

(٣)

اللاتوكا

تعتبر قبيلة اللاتوكا من القبائل الصغيرة في إقليم الإستوائية حيث يتراوح عدد أفرادها بين أربعين وخمسين ألفاً، يعيشون في مساحة جغرافية صغيرة تقدر بنحو سبعة آلاف وخمسمائة كيلو متر^(١) قرب مدينة توريت عاصمة محافظة شرق الإستوائية، والقبيلة عبارة عن مجتمع صغير متجانس يحرص أفرادها على التعاون فيما بينهم، وهي من القبائل الثيلية التي دخلت الأراضي السودانية منذ بداية القرن التاسع عشر من شرق أفريقيا، عبر مناطق «مونداري»، «نوكورو» و«لوتوكيه» على الحدود السودانية الكينية، وينتمي إلى هذه القبيلة السيد جوزيف أدوهو^(٢).

وتتميز المنطقة بوجود سلسلة جبلية متصلة من توريت حتى يوغندا، وهناك جبل مرتفع هو جبل جيلو الذي يعتبر ثاني أعلى جبل في السودان بعد جبل «أباتالانجا» الذي يقع في منطقة الآشولي، ويبلغ ارتفاع جبل جيلو سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر، استوطنه الأوريون في السبعينيات إلى جانب الأهالي الذين كانوا يعيشون عليه منذ زمن واستصلحوا سطحه العلوي، وزرعوا منخفضاته بالبطاطس وسفوحه بالشاي بعد أن أزالوا غابات كبيرة من أشجار باسقة يصل ارتفاع ساق الواحدة المستقيم حوالى عشرين متراً، وتستعمل أحياناً كأعمدة لأسلاك الهاتف، كذلك توجد ينابيع مائية تتدفق على جنباته، يرتوى منها الأهالي أسفل الجبل، ونظراً لارتفاعه وبرودته فلا يعيش فيه البعوض أو الحشرات اللاسعة، وإن كان يوجد به قليل من الذباب.

على قمة الجبل توجد استراحة ضخمة بنتها بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية ليجتمع فيها قادة جيوشها في شرق أفريقيا والسودان، والطريق إلى قمة هذا

(١) مصدر شفهي

(٢) شغل عدة مناصب وزارية في الحكومة الإقليمية والآن يعتبر أحد كبار مساعدي العقيد جون قرن في الحرب الأهلية الدائرة حالياً في جنوب السودان.

الجل - حيث توجد الاستراحة - طريق حاد ومتعرج وغير مرصوف ، و يبلغ طوله نحو عشرة كيلومترات ، ولا تزال الاستراحة موجودة ، وأصبحت استراحة حكومية .

وتتميز قبيلة اللاتوكا بعادات تختلف عن عادات القبائل المجاورة لها ولا يزال النظام الملكي والنظام الطبقي قائما فيها .

وقبل أن أتوجه إلى مقر الملكة لأتعرّف عليها وأعرف منها عادات وتقاليد قبيلتها ، أرسل مساعد المحافظ بتوريت (١) من يبلغها أنني قادم إليها في اليوم التالي لتكون في انتظاري ولتبلغ مساعديا والسلاطين في قبيلتها لحضور هذا اللقاء .

كنت قد سكنت في استراحة توريت الحكومية وأمضيت تلك الليلة على أن أتوجه غداً إلى مقر الملكة الذي يبعد حوالي أربعة عشر كيلومتراً من توريت في شرق الإستوائية ، ورحت أتخيل كيف سألتقي بهذه الملكة ، وهل هي ملكة كسائر الملكات في الدول الأخرى أم مجرد لقب تحمله امرأة تسكن في غابة وفي كوخ (قطية) وسط أكواخ (قطاطي) تنتشر حولها .

حاولت في نفس الليلة أن أتعرف من المسؤولين على ملامح تلك الملكة لتكون لدي معلومات أولية وصورة عنها حتى لا أفاجأ عند مقابلتها ، واستطعت أن أجمع بعض المعلومات ، وأصبحت متحمساً للقاءها .

وصلنا في اليوم التالي إلى مملكة اللاتوكا ، وأوقف المرافقون السيارات أمام مجموعة من العشب ، وطلبوا منا النزول ، إلْتَفَّ حولنا الأطفال الصغار كتعبير عن حب استطلاعهم تجاه الغرباء ، ثم تقدم مرافقون ليدلّونا على سكن الملكة ، ومن حولنا تناثرت العشب وتجاورت ، دخلنا طرقات لا يزيد عرض الطريق فيها على متر ونصف متر ، سرنا مسافة ثم انعطفنا يساراً إلى طريق بنفس سعة الطرقات الأخرى ، ثم يميناً ويساراً مرة أخرى ، ثم بدت لنا من بعيد عشة ضخمة تتوسط مجموعة من العشب الصغيرة ، عندها قال أحد المرافقين ذلك هو بيت الملكة ، إنه

(١) توريت هي مركز هذه القبيلة والقبائل المجاورة ، وفيها مقر المحافظ ومقر المسؤولين من القوات النظامية .

يتميز بارتفاعه وضخامته عن كل بيت حوله ، وكانت العشش التي نراها على جانبي الطريق متراصة ، أحيط كل ثلاث أو أربع منها بسور من البامبو (القنا) .

كان الأطفال يتبعوننا ونحن نسير إلى حيث الملكة ، ويتطلعون إلينا ويتكلمون بلغتهم ، حتى وصلنا في زفة كبيرة إلى سور ذلك السكن الملكي ، وهناك مدخل بعرض سبعين سم مسدلة عليه ستارة من الخيش ، إنه المدخل المؤدى إلى سكن الملكة ، أوقفنا عند هذا المدخل ، وتقدم سلطان القبيلة الذي كان يرافقنا إلى الداخل ليُعرف الملكة بوصولنا ، ثم عاد بعد قليل يدعونا للدخول .

الملكة منتصبة في وسط الفناء (الحوش) ، متوسطة الطول لون بشرتها أفتح من كل من حولها ، ترتدى فستاناً متواضعاً وفوقه ما يشبه الإزار ، تنتعل إسفنجة وتبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاماً ، وقف بجوارها رجل مسن يرتدى الملابس الكاكية ، عبارة عن قميص وبنطلون (شورت) ، عرفت أنه زوجها الذي تزوجها بعد وفاة شقيقه الملك « أفجور بلاتينو » الذي توفي عن عمر يناهز الستين ، ثم أصبح شقيقه بعد وفاته زوجاً للملكة بحكم التقاليد .

رحبت بنا بلغتها ، وترجم لنا السلطان هذا الترحيب ، فشكرناها على حسن الاستقبال ، وتقدمت أمامنا في اتجاه حصيرة فُرِشَتْ في ظلّ منزلها (العشة الكبيرة) لتجلس عليها ، وعلى الحصيرة جلست إلى يمينها ، وزوجها إلى يسارها ، وأمامنا على الأرض جلس المرافقون وكبار رجال القبيلة على شكل نصف دائرة .

قدمت نفسي إلى الملكة وعَرَفْتُها الغرض من زيارتي ، فكررت ترحيبها ، وبدأ عليها الهدوء والوقار ، شعرت رغم بساطتها وبساطة المكان أنني فعلاً أمام شخصية لها مكانتها في هذا المجتمع الغامبي ، عَرَفْتُني أن من يجلس إلى جوارها هو زوجها شقيق زوجها السابق الملك « أفجور بلاتينو » الذي توفي وترك لها المُلْك ، وأنه في يوم زواجها من الملك الراحل ، نقلها أفراد قبيلة اللاتوكا على أكتافهم من مقر سكن والدها إلى مقر زوجها الملك ، ولا شك أن هذه المهمة استغرقت أياماً وجهداً ، لحماية الملكة والسهر على راحتها بسبب طول المسافة بين بيت والدها وبيت زوجها الملك ، لأنها أيضاً ابنة ملك .

بعد ذلك تمنيت عليها أن تسمح لى بأن ألقى نظرة داخل البيت « الكوخ أو العشة » ، التى هي عبارة عن غرفة دائرية قطرها نحو ثمانية أمتار، وهي أكبر مساحة من أى كوخل آخر (فعادة لا يزيد قطر أى كوخل على ثلاثة أمتار فى البيوت العادية) ... فى داخل الكوخل مصاطب عالية ومنخفضة ، وعلى إحداها يوجد سرير الملكة ويسمى « العنقريب » مصنوع من الخشب .

وعلى اليمين بداخل الكوخل بُني رف مرتفع من الطين على ارتفاع متر وربع ، وعليه جرار كبيرة ذات لون أسود داكن بها أجود أنواع المريسة التى يصنعها أبناء القبيلة خصيصا للملكة ، وهذا الكوخل الملكى يتم تجديده كل عام ويشترك كل أفراد القبيلة من رجال ونساء فى إعادة بنائه وإعداده إعداداً مريحاً ، كل هذا يتم فى يوم واحد ، وأوامر الملكة يجب أن تطاع ويعمل الجميع على خدمتها ، وهي تساعد فى جلب المطر .

فى الفناء خارج الكوخل توجد مواقد لإعداد الأطعمة للملكة وزوجها وضيوفها ، ويقوم أفراد القبيلة الذين يعملون على خدمتها بإعداد ذلك ، وكان يجلس معنا السلطان « برنابا » وهو أحد سلاطين القبيلة ... عمره نحو خمسة وأربعين عاماً ، وكان يعمل مدرساً قبل تعيينه سلطاناً من قبل الحكومة الإقليمية عام ١٩٧٤ ، تحدث معنا ، وعرفت إنه ليس للقبيلة فروع أخرى ، وتوجد عدة قبائل لاصلة لها بقبيلة اللاتوكا إلا فى أمر واحد وهو أنها تتكلم نفس اللغة ، ومن هذه القبائل « هوريوك » ، و« لوبيت » ، « ولاميا » « ولوراتيو » ، « ولومي » ، ونجبولو ، « وأساتون » ، وتتواجد القبيلة شرق جوبا بالقرب من توريت ، وأبرز معالمها الجغرافية جبل جيلو على الحدود السودانية اليوغندية الكينية ، وتحدها من الشرق كابويتا ، ومن الجنوب قبيلة إيماتون ، ومن الشمال قبيلة لوكايا ، وتشابه قبيلة « نوكورو » التى تبعد بنحو سبعين كيلومتراً شرقى توريت قبيلة اللاتوكا فى عاداتها ، ولقبيلة « النوكورو » لغتها الخاصة بها ، ومن أشهر أبنائها المرحوم هنرى باجو (١) .

(١) شغل عدة مناصب إدارية منها محافظا لشرق الإستوائية ثم وزيراً فى الحكومة الإقليمية: توفي فى حادث انقلاب فى طريق جوبل- نجي .

يقول جابريل صمويل — أحد الجالسين معنا في سكن الملكة ، وهو مدرس تاريخ — إن القبيلة كانت لديها عقيدتها قبل أن يدخلها الإسلام والمسيحية ، وهذه العقيدة تؤمن بوجود إله ، وهذا الإله يتواجد في كل منطقة باسم مختلف عن المنطقة الأخرى ، ولا زال بعض أفراد القبيلة يدينون بعقيدهم القديمة .

يستيقظ أفراد القبيلة في الساعة الرابعة صباحاً مع الفجر ، وتقوم النساء بطحن الغلال لإعداد الطعام من دقيق الذرة ، ويذهب الرجال للزراعة ، ويرعى الأولاد الماشية ، ومنهم من يذهب إلى المدرسة ، وهم يزرعون التمسسم واللوبيا والفلو ، ويقل عندهم البقر وتكثر حيوانات القيد مثل الغزال بأنواعه ، والجاموس ، والثيتل ، ويوجد أيضاً في مناطق اللاتوكا الأسد ، الثمر ، والفيل ، وفي المياه التماسيح وسمك القرموط .

وغذاؤهم يتكوّن من العصيدة — من دقيق الذرة — والخضروات ومايزرعونه من سمسم ، ولوبيا ، ومثلهم مثل أغلبية أهل القبائل في الجنوب يأكلون لحم الحيوانات الميتة ويشربون دم البقر بعد أن يمزجوه باللبن ، أو يجففونه ويستخدمونه فيما بعد مع طعامهم ، وتنتشر في مناطقهم المستنقعات المائية ولذلك تتعدد الأمراض عندهم وتكثر ، مثل اليرقان والبلهارسيا والدوسنتاريا والملاريا ، ومرض (الفرنجي) وهو مرض تحدثه دودة صغيرة داخل شريان القدم فتنتفخ الساق وتسبب آلاماً مبرحة ، ويتم العلاج بقطع الشريان ومحاولة إخراج الدودة منه بوسائلهم البدائية ، أما الأطفال فتنتشر بينهم الحصبة والسعال الديكي .

وتقل نسبة التعليم عندهم فتوجد فقط ثلاث مدارس إبتدائية ومدرسة إعدادية ، وقد تخرج من أبناء القبيلة اثنان فقط من الجامعة ، كما حصل عشرون شخصاً على الشهادة الثانوية العليا ، ويتعلم التلاميذ في المدارس اللغتين العربية والإنجليزية بالإضافة إلى لغة القبيلة .

يطالب أهل القبيلة بزيادة عدد المدارس ، فالمشكلة التي يعانون منها هي قلة المدارس وقلة آبار المياه ، وهم يعتمدون على الأمطار التي يستمر موسمها من فبراير حتى أكتوبر ، ولا تكفيهم الزراعة التي تقوم على المطر ، ولذلك يحصلون على ما ينقصهم من مواد غذائية من توريدت لسد احتياجاتهم .

ومعظم سكان القبيلة يدينون بالمسيحية، وقليل منهم يدين بالإسلام، وأكثرهم يجمع بين الدين والوثنية. لقد جاء الدين الإسلامي مع الأتراك والمصريين في القرن التاسع عشر، وبعده جاء الدين المسيحي مع البعثات التبشيرية والقساوسة الإيطاليين الذين قِيمُوا إلى هذه المناطق من أوغندا. ولكن أهل القبيلة يفرقون بين عاداتهم وشعائهم الدينية وخاصة فيما يتعلق بتعدد الزوجات الذي يعتبر ظاهرة اجتماعية بينهم. والزواج له طقوس عند اللاتوكا، التي تختلف عن غيرها في بعض الأمور، فالأسرة في هذه القبيلة تسمح للرجل أن يعاشر الفتاة قبل الزواج، فإذا رضي عنها يقوم بإجراءات الزواج، وإذا لم يتزوجها فعليه أن يقوم بدفع عشرة جنهيات لوالدها غرامة (كسر بيت) وخمسة جنهيات أخرى للفتاة إذا حملت منه، ويبقى الطفل في حضانة والد الفتاة. والسّن الملائمة للزواج عند الفتيات هي الخامسة عشرة، أو الرابعة عشرة وعند الفتيان من الثامنة عشرة إلى العشرين.

ولما كان البقر يندر في مناطق اللاتوكا، فإنّ المهر الذي كان يدفع هو عبارة عن آلات حرث الأرض التي تسمى (المالودا) وحراب الصيد، أما إذا توفر البقر والأغنام فالمهر عبارة عن مائة رأس من الغنم وخمس أبقار، وقد يزداد عدد البقر إلى خمس عشرة أو عشرين بقرة، وللرجل أن يتزوج ما شاء له من النساء إذا كان قادراً على دفع ما يطلب منه من مهر.

ويتزوج السلطان عادة كثيراً من النساء لأنه يملك الكثير من الأغنام، ويتزوج السلاطين من طبقتهم من القبائل الأخرى، أما الزواج العادي، فإنّ الشاب يتفق مع الفتاة على الزواج، وعلى الفور تذهب معه إلى بيته، بينما يذهب من يبلغ والدها بذلك، فيأتي الأب إلى بيت الشاب ليعيدها، ومعنى ذلك أنّ الفتاة تمت خطوبتها وبقي الحديث عن إتمام الزواج، وهنا يأتي دور الزوج الذي يدفع ما يجب عليه من أبقار، ويحضر للأب فروة وقيصاً ورداء القبيلة الذي هو عبارة عن تنورة من الجلد وهذه بمثابة هدية للأب، ولا بد أن يُعَدَّ لزوجته (قطية) وحظيرة أبقار، ومن حقه بعد أن يقوم بكلّ ذلك أن يأخذ زوجته من بيت والدها إلى بيته الجديد، وربما تأخذ هذه الإجراءات وقتاً، قد يستغرق ستة أشهر أو أكثر حسب حالة الزوج المادية، وخلال هذه الفترة يعيش الزوج في بيت الفتاة مع

أيها ليقوم بزراعة أرضهم ورعايتهم ، وعندما يأخذ زوجته إلى بيته الجديد يقيم حفلا (نقارة) يذبح فيه خروفا ، وتعد المريسة بهذه المناسبة ، وإذا لم يدفع الزوج ماعليه من مهر فإن والد الزوجة يحتفظ بابنته حتى لو أنجبت .

وعندما يموت الرجل متعدد الزوجات ، فإن من حقّ الابن الأكبر أن يرث زوجات أبيه ، على شرط أن تكون الزوجة الموروثة أصغر سناً من أمه ، وإذا رفض يصبحن زوجات لعمه الأكبر ، ويسمى الأبناء الجدد بعد وفاة الزوج باسم الأب المتوفى .

ومن تقاليدهم أنه إذا مات شخص ما ، فإنه لا يغسل ، ويدفن في البيت بعد لفه في قطعة قماش ، وتنتحب عليه النساء ، وفي اليوم التالي يذبحون خروفاً أوبقرة ليأكل المعزون من أقربائه ويشربون الكثير من المريسة .

أما الملك فله نظام آخر فهو لايتزوج إلا من بنت ملك أو سلطان ، وبنت الملك لا تتزوج من الأفراد العاديين وإنما تتزوج من ملك من قبيلة أخرى ، ومهرها غال ، إنه خمس وعشرون بقرة ، فيما يدفع الثاس العاديون خمس عشرة بقرة ، وتحمل على الأكتاف لنقلها من بيت والدها إلى بيت زوجها الملك .

وإذا مات الملك يقام له احتفال كبير يشترك فيه كل أفراد القبيلة حيث «يَلْدُقُون النُقَّارة»^(١) ، ويرقصون رقصة الموت بدقائق حزينه ، ويشربون الكثير من المريسة التي تصنع خصيصاً لهذه المناسبة .

والى جوار الملك يوجد السلطان ، الذي يجمع الضرائب للحكومة الإقليمية حيث أن كل شخص بالغ ، يدفع كل عام أربعة جنديات ونصفا كضريبة ، ويعفى من ذلك كبار السن ومن لا يملك شيئاً .

والسلطان بمثابة قاض يفض المنازعات من خلال محكمة صغيرة في القبيلة ، ومعظم النزاعات هي سرقة الأبقار التي كثيراً ما تحدث مع القبيلة المجاورة ، وهي قبيلة التابوسا المعروفة بحب استيلائها على أبقار القبائل المجاورة ، ومن الأمور التي

(١) أي يضربون على الطبول .

تشير المشاكل و ينبغي على السلطان أن يحلها، هي مشاكل زراعة الأرض ومشاكل الزواج، والسلطان يجلب المطر، ويساعده في ذلك أحياناً الملك أو الملكة .

كان لأهل اللاتوكا علامات مميزة مثل تشليخ الأذن، وإزالة اثنين من الأسنان السفلى، أما الآن فقد أبتلوا هذه العادات .

يرتدى أبناء اللاتوكا فروة الحيوان الذى يصطادونه أو جلده، ويزينون أنفسهم «بالسكسك» أى الخرز الصغير الملون وخاصة فى الحفلات التى يسمونها «النقارة»، والنقارة هي الطبله التى يدقون عليها ويرقصون على أنغامها، وهم يميلون إلى الألوان المزركشة، أما فى الأوقات العادية فالرجال شبه عرايا، والنساء يرتدين قطعاً من الجلد تغطى النصف الأسفل من الجسم حتى الركبة، وفى المدن يرتدون ملابس كاملة، وقد عرفوا استخدام القماش على يد القادمين إليهم من شمال بلادهم فى أوائل القرن العشرين .

وللقبيلة قضاتها من السلاطين، والقتل جريمة، يحكم فيها على القاتل بالإعدام حيث يحول السلطان القضية إلى السلطة الحكومية فى توريث لتعيد النظر فى القضية، وقد تؤيد الحكم بالإعدام . وإذا عاشر رجل امرأة متزوجة فإن عليه فى المرة الأولى أن يدفع عشرة جنيهات غرامة (كسر بيت) للزوج، وإذا تكرر فعله أن يدفع غرامة أكبر وهي خمسة عشر جنيهاً ويسجن لمدة عشرة أيام، وفى المرة الثالثة فإن عليه أن يدفع كل ما دفعه الزوج من مهر سواء كان بقرأ أو مالا أو يسجن لفترة طويلة .

وإذا اغتصب رجل فتاة، فإن من حقها أن تشكوه عند السلطان الذى يحكم لها فى هذه الحالة بغرامة (كسر بيت) وقدرها خمسة عشر جنيهاً، وإذا وافق الرجل على الزواج منها، فإن عليه أن يحضر خروفاً ويذبحه ويمسح بدم الخروف وخطافاته وكرشته على البنت كنوع من الاعتذار لها، ثم يحضر مهرها لأهلها، ويصبح بعد ذلك زوجاً لها .

وقد تحل الخلافات فى القبيلة بالحسنى دون الذهاب إلى السلطان، ويتم ذلك بأن تدق «النقارة» إعلاناً بأن هناك اجتماعاً لأهل القبيلة لعقد صلح فى خلاف

ما ، وعندئذ يجتمع عدد من كبار رجال القبيلة ويتناقشون لحل الخلاف حلاً يرضي الطرفين المتنازعين .

ولا يعمل أبناء القبيلة في الزراعة فقط ، فهم مَن يعمل في مهن حرفية ، كالحداثة ، والصناعات اليدوية من الخشب مثل المقاعد والسرير ، ويصنعون كذلك «الجرار» من القطين ليحفظوا فيها المريسة أو غسل التحل الذى يستخرجونه من خلاياه في الأشجار عن طريق إشعال النار وإثارة الدخان .

ومتوسط عمر الفرد في قبيلة اللاتوكا سبعون عاماً وقد يصل بعضهم إلى خمسة وثمانين عاماً ، ولا يوجد في قراهم البعيدة كهرباء وبالتالي لا يعرف أكثر سكانها التلفزيون أو الراديو ومعظمهم لم يسمع به ، وعلاقتهم بوسائل الحياة الحديثة مقطوعة لبعدهم عن المدينة وصعوبة الاتصال بها ، ووسيلة السفر الوحيدة هي المشى على الأقدام .

ومنطقة اللاتوكا غنية بالمعادن ، وقد أجزت شركة توتال الفرنسية عمليات تنقيب عن البترول في جنوب شرق جوبا ، ودلت النتائج على احتمال وجوده في هذه المنطقة .



قبيلة التابوسا

(٤)

التابوسا

تتواجد قبيلة التابوسا في المناطق الواقعة بأقصى شرق الإقليم الإستوائي ، ومركزها كابويتا ، وتمتد إلى الحدود مع كينيا ، ويتميز أفرادها بالشراسة والحدة ، ولا تزال القبائل المجاورة لها مثل اللادوينجا والبويا تعاني من هجمات أبناء هذه القبيلة والاستيلاء على أبقارهم وماشيتهم ، ذلك أن قبيلة التابوسا تعتبر أن كل البقر الذي يوجد على وجه الأرض هو حق لهم وحدهم ، ولهذا لا يعتبرون قيامهم بخطط بقر القبائل الأخرى سرقة ، إنما ملك يستردونه ، وينظرون إلى القبائل المجاورة على أنها عدوة لهذا السبب ، وهذا الاعتقاد في ملكية البقر يوجد أيضا لدى قبيلة توركانا في كينيا .

وتأكيداً على أن الشراسة والحدة متأصلة في قبيلة التابوسا ، فقد كان يحدث قبل مجيء الأتراك والمصريين والإنجليز إلى هذه المنطقة ، أنه إذا أراد أحد أن يتقدم لخطبة فتاة فإن عليه أن يذهب ويقطع أذنآ آدمية من أهالي القبائل المجاورة ليقدمها كمهر الخطوبة أو عربون الزواج ، ومن لا يفعل ذلك لا يحظى بزوجة ، وقد أبطل الإنجليز هذه العادة بعد محاولات كثيرة ، مما اضطرهم إلى إعدام كل من يضبط متلبساً بقطع آذان إنسان ، ويتركون جثته معلقة لمدة يومين أمام الأهالي ليكون عبرة لغيره .. وتجنباً للعقاب الإنجليزى كانوا يذهبون خلسة بالليل ويعتدون على النيام من القبائل الأخرى ويقطعون الآذان ويختفون ، حتى تلاشت هذه العادة تماماً واختفت .

ومن السهل معرفة أبناء قبيلة التابوسا بعلاماتهم المميزة ، وهي وضع حلق ثقيل فضى أو نحاسى على الأذن حتى تبدو متهدلة ، ولا تزال هذه العلامة تميزهم في القرى والجبال ، ومن العادات التي كانوا يتفردون بها هي طريقة تعاملهم مع الموتى ، فهم لا يدفنون موتاهم وإنما يكفنون بتغطيتهم بقطعة من الجلد وتركهم في العراء .

وتتميز المنطقة التى يعيشون فيها بوجود جبال صغيرة مثل جبل كابويتا، وهو جبل غنيٌ بالثروات المعدنية وخاصة الذهب حيث يستخرجون منه الذهب الصافى (عيار أربعة وعشرين)، وقد منعتهم الحكومة الإقليمية فى أواخر السبعينيات وطوقت الجبل بأفراد الجيش لحماية هذه الثروة، ولكن لم يحد هذا الإجراء من نشاط الأهالى للحصول على الذهب من الجبل.

ولأهمية هذه المنطقة يجري العمل فى إنشاء طريق بري مسفلت يربط بين جوبا ونيروبى ماراً بمدينة كابويتا.



فى زيارتى لمنطقة القبيلة إلتقيت بعدد من أبنائها، كان معى المفتش «جأبرايل جارانج» وهو من قبيلة اللينكا وعمره اثنان وثلاثون عاماً، أمضى فى كابويتا ثلاث سنوات، والسلطان بيتر ماتينو وعمره ستة وخمسون عاماً، ومتزوج من خمس نساء ولديه أحد عشر ولداً وصبع بنات، وهو سلطان منطقة ماسنجو التى تبعد عن «كابويتا» بنحو اثنى عشر ميلاً، والسلطان يوسف إيكو وعمره نحو سبعين عاماً (كبير السلاطين)، تزوج عشرين امرأة جميعهن على قيد الحياة وفى عصمته، لكل واحدة منهن كوخ خاص (قطية)، وبحواره فى المنطقة أولاده وأحفاده الذين يسكنون فى شبه قرية كامله (حلة)، وكانت آخر فتاة تزوجها السلطان يوسف عام ١٩٨٠ وعمرها ثمانية عشر عاماً.

هناك اثنا عشر سلطاناً فى قبيلة (التابوسا) فى اثنتى عشرة منطقة هي لوا جو، بوتو، بارتيججا، ماشي كاريناب، وتحتل هذه المناطق ثمانية عشر ألفاً وخمسمائة ميل مربع^(١)، وتحدها من الغرب منطقة كاجي كوم، ومن الشرق حدود أثيوبيا، وفى الجنوب حدود أوغندا، وفى الشمال منطقة جونقلي بإقليم أعالى النيل، و يبلغ عدد أفراد القبيلة نحو مائتى ألف نسمة.

عندما بدأت أتحدث مع السلاطين لاحظت توجساتهم تجاهى، قال لى أحدهم: — إنكم تجيئون هنا كثيراً وتطلبون منا أن نجيب على أسئلتكم ثم

(١) مصدر شفهي.

لا تفعلون شيئاً ولا تقصمون لنا أي خدمات، فأوضحت له أنني لست من المسؤولين الذين يقصدهم وإنما جئت أسجل حياتهم وعاداتهم، وبدأ أنه لم يفهم ما أريد فتولى المفتش جابرييل جارانج الذي كان يقوم بدور المترجم، شرح الموقف، وعند ذلك اطمأن السلطان لي وواصل حديثه..

يُعتقد أن قبيلة التابوسا وفدت إلى الأراضي السودانية من يوغندا قبل نحو خمسمائة عام، ويتكلم أهلها لغة خاصة بهم، تشاركهم فيها قبائل أخرى، مثل كاراجون، ودودوس في أوغندا، وتوركانا في كينيا، ومنذ أن وفد إليها المبشرون الأوروبيون في أوائل القرن الحالى، بدأ استخدامهم للحروف اللاتينية في كتابة هذه اللغة ليسهل تعليمهم ونقل الدين المسيحى إليهم، وكان الإسلام قد دخل منطقتهم قبل المسيحية إبان الثورة المهدية، وعلى يد الأتراك والمصريين، وفي الماضى كان يشترط أن يكون السلطان مسلماً، وآخر هؤلاء السلاطين المسلمين، هو يوسف إيكو أكبر السلاطين سناً ومركزاً. أما الآن فلا يشترط أن يكون السلطان مسلماً، ومعظمهم مسيحيون، ويذهب مسلموا القبيلة إلى المسجد، دون أن يكون لديهم معرفة بالصلاة ومواقيتها، كما يعرفون الصوم، ولكن لا يعلمون كيف يصومون ومتى، وقد سمعت من السلطان يوسف إيكو قوله: — إنه لا يوجد أحد يرشد المسلمين إلى تعاليم دينهم، ولذلك فهم لا يعرفون الوضوء، ولا كيف يصلون، وإنما يدخلون المسجد ويصلون كل حسب طريقته، ويسمعون عن الصيام في شهر رمضان، ولكن لا يعرفون متى يجيء ولا كيف يصومون، فإن سمعوا به صاموا، وإذا عطش أحدهم فإنه يشرب.

إن أبرز سمات القبيلة هي كثرة البقر عندهم، وهو يمثل ثروتهم الحقيقية، وطبقاً للإحصائيات الرسمية — كما يقول المفتش « جابرييل جارانج » — فلدى هذه القبيلة سبعمائة وخمسون ألف بقرة ونحو نصف مليون رأس من الأغنام، وتتميز الخراف والتعاج عندهم عن غيرها في المناطق الجنوبية الأخرى، فربتها شبه متهدلة مثل البقر وذيلها ملموم كروي، ولذلك تعرف باسم خراف كابويتا، ويعتقدون أن لهم الحق في الاستيلاء على بقر القبائل الأخرى، والويل كل الويل لمن يدخل مناطقهم من أى قبيلة ومعه بقر، فإذا وقع في قبضتهم

«ينخموه» أى يعتدون عليه ويغدرون به ، ومن يسير بلا بقر أو غنم ضيّن سلامته ، ولا زالت قبيلة الذادينجا والبويا تمثلان مصدراً للتأبوسا للحصول على المزيد من البقر، وذلك بشن الهجمات عليها وقتل أفرادها والاستيلاء على ماشيتها ، وأهل التأبوسا يُسمّون هاتين القبيلتين بالعدو رغم أن أراضيهم متجاورة ، ولا تبعد عن أراضي التأبوسا بأكثر من ثلاثين كم ، وعندما يشاهدون واحداً من هاتين القبيلتين ينادون بعضهم بعضاً صائحين :- «كَمْ كاتيه» أى يوجد عدو هنا ، وسرعان ما يهجمون عليه ، ويستولون على مامعه من أبقار أو أغنام ، ولا يتخذون هذا الموقف العدائى مع القبائل الأخرى البعيدة .

إن اهتماماتهم تتركز حول جمع أكبر عدد من البقر، وكان يعاب على الرجل الذى يعمل بالزراعة ، فتلك هي مهنة النساء ، أما الرجل فيرعى البقر، ويزيد من أعدادها ، ويحفر آبار المياه ، وفي الوقت الحاضر أصبح الرجل يشارك المرأة في الزراعة بعد أن شجعتهم الحكومة الإقليمية على ذلك ، وتقوم المرأة بالإضافة إلى عملها في الزراعة بتنظيف البيت وإعداد الطعام وجلب الماء ، والأولاد يخرجون مع الأب لرعى الماشية ، ويبقى الرجل المسن على حصيرة تحت الشجرة معتمداً على أبنائه في تربية الماشية ، وعلى النساء في زراعة الأرض .

وبجانب الزراعة ورعى البقر فهم يعملون بالتجارة أيضاً ، ويعملون في الصناعات اليدوية مثل العصى والمقاعد ، وهم متخصصون في صناعة كرسى خشبى يشبه سرج الحصان الصغير يمسكه كل شخص في يده ويعتبره من مستلزمات حياته اليومية ، لأنه يستعمله كمقعد وكأنه جالس القرفصاء ، أو يسند عليه رأسه عندما ينام ، ولا يزيد ارتفاع هذا الكرسي متعدد الأغراض على خمسة عشر (سم) ، ومقعده مقوس بعرض ثمانية سنتيمترات وبطول عشرين سنتيمتراً .

إن أهل التأبوسا يفضلون أن يقوم أولادهم بالرعى بدلاً من الذهاب إلى المدرسة ، باستثناء المتعلمين منهم وهم قليلو العدد ، ولا يوجد سوى أربعة أشخاص حصلوا على شهادات جامعية حتى عام ١٩٨١ يعرفون بأسمائهم ، ومنذ عام ١٩٧٩ أصبح التعليم إلزامياً على الأولاد دون البنات .

وهناك مناطق يعيش فيها أبناء الثابوسا لا يعرف ساكنوها حتى الآن وسائل الحياة الحديثة، ولم يسمعوا عن الرّاديو أو التّلفزيون أو آلات التصوير وحتى السيّارات لا تصل إليهم، وأنما عالمهم هو البقر والغابات وحيوانات الغابة، يمشى الرّجال عراة، بيد كل منهم حربة، أما النساء فيرتدين شيئاً يشبه الثّورة القصيرة على هيئة شرائط من الجلد تستر عوراتهن، ولا تجد الفتيات والنساء حرجاً في رؤية الرّجل عارياً، ولا يثير ذلك غرائزن أو خجلهن فهن يَرْتِنَةُ هكذا منذ أن ولدن، وقد منعت الحكومة الإقليمية دخول العراة منهم إلى المدن، ولذلك نراهم في المدن يرتدون ملابس بسيطة وعادية، ويقول السّultan يوسف إيكو: إنهم عرفوا استخدام الملابس عام ١٩٥٥.

ويعتمدون في غذائهم على لحوم الماشية الميتة ولحوم الصّيد والدّرة والسّمسم، ويشربون حليب البقر.

وإذا تعرضوا لشح في الألبان بسبب المجاعة الّتي تحدث عادة نتيجة نقص في الأمطار، فإنّهم يستخرجون دم الثّور من وريده ويمزجونه بالحليب ويشربونه، ومتوسط أعمارهم ستون عاماً، وقلة منهم تعيش حتى الثّمانين، وتنتشر بينهم أمراض الملاريا والتيفود واليرقان، ويعالجون أمراضهم بالسّحر واستخدام الأعشاب، ومنهم من يذهب إلى المستشفيات والعيادات الطّبية للعلاج، خاصة في المدن والأماكن القريبة منها، ويؤمنون بالسّحر ويلجأون إليه عندما يهددهم غزو خارجي لمنع الأعداء من اقتحام بيوتهم، ولا يكتفون بالسّحر لمواجهة الغزو، وإنما ينفخ في نفير، هو عبارة عن قرن ثور كبير، وذلك عند رؤية الغزاة من بعيد، فيأتى الرّجال على الفور بحراهم ويستعدون لمواجهة الغزاة ومحاصرتهم، ويلجأ الرّجال إلى السحر من أجل أن يكونوا محبوبين من قبل النّساء والفتيات.

وأسألهم عن عادات الزّواج في القبيلة :-

إن الشّاب هو الّذى يتفق على الزّواج مع الفتاة، ثم يذهب إلى والدها الّذى يتفق معه على المهر، وهو عادة من البقر، وليس بالضرورة أن يدفع الشّاب كل ما يطلب منه دفعة واحدة، فالبقر المطلوب عادة كثير ويصل إلى مائة وعشرين

أومائة وثلاثين بقرة، ولا مانع أن يدفع الشاب كل ما يطلب منه ولكن على دفعات كلما توفر لديه ذلك، والشاب هو الذى يبحث عن الفتاة التى يريد أن يتزوجها، أما الفتاة إذا خشيت أن يفوتها قطار الزواج فلا مانع من أن تقوم هي بالبحث عن الزوج، وتختار رجلاً تستميله إليها وتلتقى معه فى أي مكان حتى يوافق على الزواج منها، فهم عادة لا يتزوجون من نفس العائلة، فإذا حدث وأراد شخص الزواج من نفس العائلة فإنهم يعتبرونه نوعاً من السحر، وحتى الفتاة نفسها لا تصدق، أما من يعمل فى المدن من أبناء القبيلة فإنهم يتعارفون ويتزوجون بطريقتهم، ويدفعون المهر مالا وليس بقرأ، ويذهبون إلى الكنيسة إن كانوا مسيحيين أو إلى المآذن إن كانوا مسلمين، ويقول السلطان يوسف إيكوان غلى الشاب فى المدن عن دفع البقر كمهر، ودفعه قروشاً (أى نقوداً) أمر يحز فى نفوسهم.

أما عن كيف يتم الزواج؟ فإن أهل الفتاة يكونون على علم بأن ابنتهم ستتزوج من شخص ما، فيوجهون الدعوة لأهله وقيموهم حفلاً يشترك فيه الرجال والنساء من الأقارب والأصدقاء، يشربون فيه المريسة ويأكلون، وبعد أن يفرغوا من طعامهم وشرايبهم وهدأ الرقص، يقف العريس ويقول: — إن المرأة التى اخترتها زوجة لى توجد هنا فى هذا البيت، وقد جئت كي أتزوج من بنت فلان، ويرد عليه والد الفتاة مؤكداً قوله، ثم يطلب من أبنائه — إخوة الفتاة — أن يحددوا عدد البقر المطلوب كمهر، فيقترح كل واحد عدداً معيناً يتراوح ما بين خمسين ومائة بقرة، وينتهون إلى رأي واحد يعلنه الأب، وتنتهى بذلك مراسم الزواج ليقدم العريس ما اتفق عليه من البقر، ويقدم الباقي فيما بعد، وتقوم صديقات الفتاة بزف العروس إلى بيت زوجها الذى يُكرِّم وفادتهن، كما يقوم أهل الفتاة بزيارة أهل الزوج ومعهم صديقات العروس، ويذبح لهم ثور، ويقام حفل (نقارة) فى بيت الزوج يرقصون فيه على دقات الطبول ويشربون المريسة.

ويتزوج الشباب وهم صغار، فالسن الملائمة لزواج الشاب هي ثمانية عشر عاماً وتتزوج الفتاة بمجرد أن يبرز صدرها.

وعندما سألت ماهو موقف الزوج إذا اكتشف أنَّ زوجته ليست بكرًا؟ فوجئت برد سريع وجماعى بقولهم «كسروه أوماكسروه مش مهم ، دا كلام بتاع شماليين»^(١) ومعنى هذه العبارة هو أنه سواء كانت بكرًا أم غير بكر، فهذا ليس أمرًا هامًا، إن هذه أفكار الشماليين التي لا تتعامل معها، وهم يدركون أنه أثناء الرعى في الغابة تتقابل الفتيات والشباب بحرية كاملة، وإذا حملت بسبب ذلك فهو أمر لا يثير قلقهم، ويسألونها عن الحرامى (اللص) الذى فعل هذا (يشبهونه كلص اعتدى على حرمة منزل)، وعندما تخبرهم به يفرضون عليه غرامة قدرها سبع بقرات، ويذهب الطفل إلى أبيها ويصبح ابنًا له، وعندما تتزوج تتركه في البيت مع أمها وأبيها كأخ لها، أما إذا تزوجت نفس الشخص الذى حملت منه فيعود الطفل إلى أبيه وتصبح هي أمه.

والرجل أن يتزوج أتي عدد من النساء معها كبر سنه طالما لديه البقر الذى يدفعه كمهر، وقد أخبرونى عن رجل تزوج أربعين امرأة واسمه «أشما»، وعندما أبدت رغبتى لمقابلته أبلغونى أنه توفي منذ عامين.

وإذا مات الزوج يصبح من حق أبنائه أن يتقاسموا زوجات أبيهم، وإذا رفضت زوجة الأب أبناءه فيجب ألا ترفض إخوته حتى لا يذهب المال (البقر) بعيداً عن الأسرة.

وأبناء القبيلة لا يختنون؛ ذكوراً كانوا أم إناثاً. وإذا غاب رجل عن بيته وعاشت زوجته رجلاً آخر وحملت منه، فإن الزوج عندما يعود ويعرف ذلك لا يفضض، ويضم الابن إليه ولا لوم على الزوجة، أما الرجل الآخر فقد يعاقب بدفع غرامة على ما فعله في غياب الزوج، ولكن يندر أن تخون الزوجة زوجها.

وهذا لا يعني أنه لا يوجد طلاق في الأسرة، فقد يطلق الرجل زوجته إذا أساءت معاملته، وعند ذلك يُبلِّغ أهلها ويستعيد أمواله، أما إذا أراد أن يطلقها من تلقاء نفسه فله الحق في حضانة الأبناء وليس له الحق في استرداد المال، وفي

(١) يقول الجنوبيون عن الفتاة غير العذراء إنها مكسورة وتسمى القرلة التي تدفع بسبب فض البكارة كسر بيت، والمقصود بكلمة شماليين. هم أهل شمال السودان.

هذه الحالة لا تكون الزوجة موضع ترحيب من أيها الذى يظل على علاقة طيبة بزوجها، ولا يعترف الأب بعد ذلك بأية علاقة بين ابنته وأخي رجل آخر.

وللقبيلة رقصاتها، هناك رقصة تسمى (تاكوما) التي تُرقص على دقات الطبول في احتفالات الزواج، وهناك رقصة «دام دام» وتُرقص في حفل خاص عندما يكسرون قرون البقر الطويلة خشية أن تؤذي الأبقار الأخرى، وفي هذا الحفل يدعون الأصدقاء ويشربون المريسة ويختلط الرجال بالنساء، ويرتدى صاحب الثور الذى ستكسر قرونيه جلد غمر، ويضع على جسمه السكسك (الخرز الناعم الملون) كما يضع على رأسه ريش نعام.

وهم يتفاءلون بنزول المطر، وإذا زارهم ضيف وهطل المطر (يتباركون) بالضيف، ويقولون «دابتاع ربنا» أى إنه من أهل الله، أتاهاهم بقلب سليم ولا يضمن لهم سوءاً، ولا يوجد عندهم سلطان للمطر كبقية القبائل الأخرى، وموسم المطر عندهم في مارس حتى شهر سبتمبر من كل عام، ولا يفضلون استمرار هطول المطر، لأنه يتلف محاصيلهم ويضر ماشيتهم ويسبب لهم الأمراض.

وفي مناطقهم تكثر الأفاعى والعقارب، ويعالجون لدغة الأفاعى الصغيرة والعقارب بأدوية محلية يصنعونها بأنفسهم، كما يعالجون البقر من هذه اللدغات، ولكن هذه الأدوية لم تفلح في علاج لدغة الأفاعى الكبيرة، وهناك من يموت بسبب ذلك، وتوجد في مناطقهم كذلك الأصلة، وهي نوع من الأفاعى الضخمة الطويلة غير السامة التي تبتلع ضحيتها، سواء كان حيواناً أو إنساناً، ولقتل هذا النوع من الأفاعى يستخدمون الحراب يأخذون جلدها لدبغه وبيعه.

ومن تقاليدهم أنهم يحترمون ويقدرّون الرجل الشجاع الذى لا يهاب حيوانات الغابة ويكون قادراً على قتل أسد أو غمر أو جاموس وحشى أو رجل (غاز) من غير قبيلتهم. ففي الماضي كانت هناك عادات واعتقادات تتعلق بالقتل، فمن قتل شخصاً يقوم بجرع ذراعه الأيمن جرحاً أفقياً طويلاً، وإذا قتل امرأة يقوم بجرع ذراعه الأيسر، وهذه العلامات ليست فقط دليلاً على الشجاعة أو تسجيل عدد الضحايا، وإنما لوجود اعتقاد راسخ بين أبناء التابوسا، أن دم القتل امتزج بدم

القاتل، وأنه سيظل يطارده أينما ذهب، ولكي يتخلص من هذه المطاردة يقوم بجرح ذراعه ليسيّل منه دم، يعتقدون أنه دم القاتل يخرج من دم القاتل، وربما يعكس هذا الاعتقاد شعور القاتل بالذنب تجاه من قتله والتكفير عن جرمته بهذه الطريقة.

أما أبناء القبيلة فلا يتقاتلون، وإذا حدث نزاع واستخدمت فيه الحراة، فإن نصل الحربة لا يكون موجهاً إلى الخصم حتى لا يقتله، وإذا أصابته الحربة بالخطأ يعالجون جراحه ويتم الصلح، وإذا كانت الإصابة بليغة يدفع غرامة.

وفي لغتهم التي يتحدثون بها أمثلة شعبية وعبارات يتداولونها يومياً؛ فكلمة «ماتارابو» تعنى كيف حالك، والرد عليها «ماتاجى» أى أنا بخير، وأحياناً تكون التحية «نا» والرد عليها «أبا»، ومن أمثالهم الشعبية (الحراة فيها كوكاب)، وهو يعادل المثل الشعبى المعروف (الحيطان لها آذان)، وعادة ينادي الرجل الكبير من هو أصغر منه قائلاً «يالوباي» أى يا ولد، ولا يصح أن ينادي الصغير الكبير بهذا النداء.

ولهم نظام فى الميراث، فإذا مات رجل ولديه نساء، فكل زوجة تأخذ نصيبها من البقر، ويعود الباقي إلى الإبن الأكبر، وإذا لم يكن لديه أبناء كبار وكان له ابن بلغ الحلم، فإن العم يأخذ بقرة واحدة ويحتفظ بالباقي للإبن حتى يكبر، وإذا كان له طفل صغير، فإن العم يرث أخيه ويعتنى بتربية الطفل ويزوجه عندما يكبر دون أن يعطيه شيئاً من البقر.

ومن عادات دفن الموتى عندهم أن الميت يدفن بجوار الكوخ الذى كان يسكنه، ولا يغسلونه، ويدفن بالملابس التى عليه أوعارياً إذا كان كذلك، وإذا كان للرجل ثروة من الأبقار والكثير من الزوجات فإنه يدفن فى بيت الزوجة الأولى.



قبيلة القادينجا

(٥)

الذادينجا

تعني كلمة «دادينجا» الرجل القوي، وهي قبيلة تختلف عن قبيلة الدينكا المعروفة في جنوب السودان، وتسكن هذه القبيلة منطقة «شكُدم» منذ أكثر من ألف عام عندما جاءت من منطقة «كروما» جنوب غرب أثيوبيا، وتعتبر منطقة شكُدم هذه من المناطق التي تتميز بطقس معتدل طوال العام ويميل أحياناً إلى البرودة، ولا تزيد درجة الحرارة على ثلاثين درجة، وقد تصل ليلاً إلى خمس عشرة درجة، وهي منطقة مرتفعة دائمة الإخضرار، وفيها يقع جبل ناكاشوت الذي يعتبر من المعالم الهامة في جنوب السودان، .. رغم أنه غير معروف ولم ينل حظه من الشهرة التي يستحقها، فقد جعلت منه بريطانيا - حتى منتصف هذا القرن - معتقلاً سياسياً نفتت إليه كثيراً من الشخصيات السياسية المناهضة لها من دول شرق أفريقيا ومصر والسودان، وذلك لوجوده في منطقة نائية يصعب وصول أي إنسان إليها وبالتالي لم يكن أمام المنفيين أي مجال للهروب، وقد كانت تنزل عليه طائرات الهيلوكوبتر لصعوبة وصول السيارات إلى قته، وآخر من أُعتقل فيه من السياسيين هما السيدان اسماعيل الأزهري^(١) ومحمد أحمد محبوب^(٢) حيث بعث بهما الفريق إبراهيم عبود بعد أن تسلم السلطة عام ١٩٥٨.

تبلغ مساحة مناطق الذادينجا نحو ألف وثمانمائة ميل مربع^(٣) وتحيط بها قبيلة البويا في الشمال الغربي، والتابوسا في الشمال الشرقي، وقبيلة دودوس الموجودة في أوغندا جنوباً، وفي الجنوب الشرقي قبيلة «توركانا» في الأراضي الكينية، وتحدها من الغرب قبائل «اللاتوكا» في مركز توريت.

(١) هو الزعيم اسماعيل الأزهري أحد رواد حركة الاستقلال، رأس الحكومة الوطنية الأولى، ثم رئيساً لمجلس السيادة خلال فترة ثورة أكتوبر ٦٤. توفاه الله في عام ١٩٧٠.

(٢) أحد رواد حركة الاستقلال، عمل وزيراً للخارجية. أبعدته الفريق إبراهيم عبود بعد انقلاب عسكري في ١٩٥٨، ثم عاد وزيراً للخارجية في ثورة ٢١ أكتوبر ٦٤، وأخيراً رئيساً للوزراء، إلى أن جاءت حركة، مايو ٦٩، توفاه الله عام ٧٦.

(٣) مصدر شفهي.

وللقبيلة لغتها الخاصة التي تكتب وتقرأ بحروف لاتينية، ورغم أن المسيحيين جاءوا للمنطقة عام ١٩١٨ إلا أن القليل من أبنائها قد دخل المسيحية أو الإسلام، وظلت الغالبية على دينها القديم الذي يسمى «لوريو» وهو اسم الإله عند القبيلة، وهم يؤمنون بوجود قوة عظمى تسيطر على حياتهم وأرزاقهم وتنزل المطر وتمنعه، وهناك وسطاء يتصلون بالإله لوريو لحل مشاكلهم وإنزال المطر.

وهم يحافظون على تقاليدهم ويتمسكون بها، فالرجل في القبيلة له وظيفته الأساسية، وهي الصيد ورعى البقر والزراعة وحماية الأسرة من الأخطار التي تهددها، كاعتداء وحش أو إنسان عليها، والمرأة تُحضّر الماء والخطب والأخشاب وتعد الطعام وتطحن الحبوب، وقد تساعد زوجها في الزراعة، وللرجل الحق في أن يتزوج كما يشاء، حسب ما يملك من أموال وأبقار، ومن الأمور العادية في القبيلة أن تجد رجلاً متزوجاً عشراً من النساء ولكل امرأة كوخها (قطيعة)، ومن السهل جداً أن يلتقى الفتى بالفتاة في الحفلات والمناسبات أو الحقل، وإذا أعجب بها، فإنه يتقدم على الفور إلى أهلها يطلب الزواج منها، وعليه أن يقدم المهر المطلوب، وهو على الأقل خمس بقرات كدفعة أولى، وذلك لقلة البقر في المنطقة، ويظل يرسل لأهلها بقرأ ويرسل لوالدها وإخوتها الحراب والمالودا. (أداة حرث الأرض).

يقام حفل للزواج يستمر يومين، ويقوم أهل الفتاة بعمل «المريسة»، أما العريس فيقدم الذبيحة من الغنم أو البقر ويتناول الطعام في حفل يدعو إليه الأصدقاء وأهل المنطقة، والفتاة تحافظ على عذريتها قبل الزواج، ونادراً ما يحدث أن تجد فتاة غير عذراء، ولعل السبب في ذلك أن الفتاة تتزوج بمجرد أن يبرز صدرها.

يقول كبار القبيلة من الرجال: — إنه في الماضي كانت الفتيات لا يتزوجن حتى يكبرن وإلى أن تهدل صدورهن ويلتصق الثدي الجسم، ولذلك لم تكن تنجب الواحدة منه أكثر من أربعة أو ثلاثة أطفال ومع هذا كانت مهورهن كبيرة، أما الآن فالمهر أقل.

ومن تقاليد الدادينجا أن شقيق الزوج هو وحده الذى يحق له أن تصبح زوجات أخيه زوجاته ، ولا يحق لأولاده ذلك .

وقد يتم الطلاق لأسباب تتعلق باستمرار الشجار بين الزوج والزوجة وعدم التفاهم بينهما ، أما الأبناء فيكونون فى حضانة الأم إذا استرجع الأب المهر الذى دفعه ، وإذا تنازل عن المهر يصبح الأطفال من نصيبه .

وتحارب القبيلة الخيانة الزوجية ، فإذا ضبطت امرأة تخون زوجها مع آخر فإنها يسجنان ، ولو أنجبت منه تصبح ثمرة هذه العلاقة من حق الزوج الشرعي .. ، وهم حريصون على هذه العادات ، فمثلا لو أن شخصا حاول أن يعتدي على زوجة أخيه أثناء غيابه ، فقد تتخلص منه القبيلة طعناً بالخراب .

وهم يحبون الرقص إلى حد كبير ، ولكل مناسبة رقصتها ، ولديهم أربعة أنواع من الرقصات : —

الأولى يسمونها (لوريو) وهي رقصة دينية أشبه بالصلاة يرددون معها ترانيم بالدعاء للإله « لوريو » كي ينزل عليهم المطر ، ويؤدون هذه الرقصة فوق جبل « لوتيكه » وليس لديهم سلطان للمطر .

الرقصة الثانية تسمى « إينامات » وهي رقصة الفرح والزواج .

والثالثة رقصة الحصاد وتسمى « نياكورث » وتعبر عن سعادة الناس بالحصول الزراعى الجديد . والرابعة رقصة الفوز على الأعداء أو الحيوانات المتوحشة ، وإذا قُتِلَ إنسان شجاع ضحية حيوان مفترس ، أو مات ، فإنهم أيضا يرقصون هذه الرقصة ويشترك فيها الرجال والنساء تعبيراً عن حزنهم ، ومع الرقصات تُدق النُقارة بإيقاعات معينة حسب نوع الرقصة ، وأدواتهم للرقص هي طبول كبيرة مشدود عليها جلد غنم .

إن أهل الدادينجا لا يعتقدون فى سلاطين السحر والمطر ، ويعالجون الأمراض بطريقتهم بالأعشاب المحلية ، ووظيفة السلطان قائمة وتعيّنه الحكومة المحلية ، وهو يقوم مقام عمدة القرية أو المختار ، والسلطان مثله مثل أي فرد فى القبيلة ، ولا توجد طبقية وخاصة فى الزواج ، فالسلطان يتزوج من يشاء وكذلك بناته وأولاده ،

وطعامهم يشبه طعام القبائل الأخرى ، وهم كالأخرين يأكلون لحوم الماشية الميتة لتوفير أبقارهم ، كما يأكلون لحوم الصيد والفول والبافرة (البطاطا الحلوة) .

للقبيلة قانونها ؛ فمن قتل شخصاً عمداً فإنه يقدم للمحاكمة وقد يُحكم عليه بالإعدام أو ببندية يدفعها لأهل القتيل من بقر أو غنم ، أو بصلح مقابل عشرين بقرة ، وفي هذه الحالة يبعد القاتل عن المنطقة لسنوات حتى يُثسى أمره ، أما القتل الخطأ فيصبح حادثاً عَرَضاً (قضاء وقدر) لا يعاقب عليه ، وإذا تعرض صاحب بيت للسرقة ، وَقَتَلَ السارق داخل بيته ، فلا يعاقب ، وإن تمكن من إلقاء القبض على اللص يُقدم للمحاكمة ، حيث يحكم بالغرامة أو السجن ، ولا يؤاخذ الناس بجرائم ذويهم .

وبمنطقة الدادينجا توجد ثروة حيوانية من الأبقار والماشية ، قلت أعدادها منذ عام ١٩٧٩ بسبب الجفاف الذي تعرضت له ، ولديهم الآن نحو ستة آلاف رأس من البقر ، وخمسة عشر ألفاً من الغنم ، وتوجد في المنطقة حيوانات الغابة ، وإذا أرادوا مطاردة أسد للقضاء عليه ، بعد أن يكون قد سبب لهم أذى ، يجتمع الناس على أثر نداء عن طريق التفخ في أحد القرون المعدة لذلك ، وهي تشبه التفير (العمل الجماعي) ويعملون من أنفسهم دائرة تظل تضيق وتضيق على الأسد حتى يضربونه بحراهم ، وقد يهجم على أحدهم ويقتله ، ولكنهم في النهاية لا بد أن ينتصروا عليه و يصرعوه .

ولهم عاداتهم في دفن الموتى ، فالمت لا يدفن بملابسه ، ويدفن داخل منزله أو خارجه ، ويدفنون خروفاً ويمسحون بدمه ومخلفات أمعائه على أولاد المتوفى وأهل بيته ، لاعتقادهم أنهم بعملهم هذا يحمون الأسرة من خطر نقل الداء الذي يعتقدون أنه السبب في الوفاة ، فتتجنب عليه الأسرة ثلاثة أو أربعة أيام ، هي أيام الحداد ، وقد تشنق الزوجة نفسها حزناً على زوجها مالم يمنعها أحد ، ويستمر تلقي العزاء لمدة ثلاثة أيام ، وقد يمتد شهراً لاستقبال المعزين من الأقرباء والأصدقاء الذين يحضرون من مناطق بعيدة .

والأمراض المنتشرة بينهم هي الملاريا ، والتيفويد ، والحصبة عند الأطفال ، وقد انتشرت الكوليرا عندهم عام ١٩٨٠ وأمكن تحصينهم منها .

تعرض الدادينجا لاعتداءات من قبيلة التابوسا التي تشن عليهم هجماتها من الشمال الشرقى ، للاستيلاء على أبقارهم ، وقد قلت هذه الهجمات منذ سنوات .

وأهل الدادينجا كالقبائل الأخرى يفرحون بولادة الذكر والأنثى ، ولا فرق عندهم بين الاثنين ؛ فالبنات دائماً مصدر الثروة البقرية ، والرجل مصدر للحبوب والغذاء (لقيامه بأعمال الزراعة) .

عندما يولد الجنين يظل ثلاثة أيام لا يخرجونه من الكوخ حتى يجف حبله السرى ويسقط ، وعند ذلك يحتفلون به ويشربون المريسو ويسمونهم ، وهم يفرحون بتنوع الإنجاب من أولاد وبنات أكثر من أي شيء آخر ، وتوجد لديهم المؤلدة (الذاية) وهي عادة امرأة مُسَيَّة ، تدربت على ذلك ، وإذا حدثت صعوبات في عملية الولادة تنقل الأم الى أقرب مركز صحي ، وهذا لا يحدث كثيراً لبعده المسافات .

في جولاتي وسط أبناء قبيلة الدادينجا التقيت بالسيد ناتالي كانكراسبو^(١) وهو مساعد محافظ شرق الاستوائية ، مسؤوليته تمتد إلى ثلاث قبائل ، هي : — البويا ، الدادينجا ، والتابوسا ، عمره ثمانية وثلاثون عاماً ولديه ستة أولاد وزوجة واحدة ، وقد بدأ عمله في بحر الغزال التي ينتمي إليها مسقط رأسه ، ويتحدث بلغة عربية أوضح مما يتحدث غيره من أهل هذه القبيلة ، والسبب في ذلك أن أهالي مدينة واو في بحر الغزال أقرب الى شمال السودان ، والإتصال معهم أكثر سهولة ، سواء بالسكة الحديد أو غيرها .

علمت منه أن منطقة سُكُدم ، هي من المناطق الأكثر تخلفاً في جنوب السودان ، وكل الصراعات والنزاعات ومشاكل المنطقة ، ناتجة عن التخلف ، ولذلك فإنها في حاجة إلى إنشاء العديد من المدارس ، والاهتمام بالتعليم ، ومشروعات التنمية ، والمتعلمون من أبناء هذه القبيلة قليلون ، فحتى عام ١٩٨١ لم يتخرج من الجامعات منهم سوى طالبتين ، أحدهما ابن السلطان الذي درس الطب في إيطاليا ، ولا يزيد عدد الذين أنشأوا المدرسة الثانوية العليا على عشرين طالباً .

(١) يقول : إن وعورة الطرق لاتساعده على سرعة التحرك في المنطقة مما يسبب تدهور الأمن .

أما عن دور مساعد المحافظ في المنطقة فإنه يتمثل في ضبط الأمن ، وتحقيق التعاون بين القوات المسلحة والقبائل ، ويعمل على تنشيط المشاريع ، سواء الحكومية أو التي تتم بعون ذاتي من الأهالي ، ويشرف على المصالح الحكومية في المنطقة وكافة المنظمات التي لها نشاط ، ويقوم بنقل المعلومات والتقارير للحكومة الإقليمية ، عن أحوال المنطقة ، ومن السهل عليه أن يتصل بالحكومة الإقليمية في جوبا أو توريت بواسطة وكالة السودان للأنباء (سونا) بما لديها من أجهزة لاسلكية .

والمشاكل التي تواجه هذه المنطقة ، هي النقص في المواد البترولية ، فقد تظل المنطقة شهوراً بدون وقود ، وفي هذه الحالة فإنهم يستعينون بالشركات الأجنبية العاملة في المنطقة مثل النرويجيين ، الذين يساعدونهم ويمدونهم بثلاثة أو أربعة براميل من البنزين كلما توفر لهم ذلك . والمشاكل الأخرى التي يعانون منها هي وعورة الطرق التي تعجل بنهاية كل سيارة مهما صغر أو كبر حجمها .

كما تحدثت مع السلطان «ماريو أدول» — عمره ثمانون عاماً — الذي تزوج أربع مرات وله عشرة أولاد ، وآخر زواج له كان عام ١٩٦٤ ، كانت رتبته «سلطان ماكينجو»^(١) من عام ٣٢ إلى ١٩٣٨ ، وعندما أبدى نشاطاً أوصى الحاكم الإنجليزي عام ١٩٣٨ بانتخابه سلطاناً ، تحدثت كذلك مع آخرين منهم «بيتر كوتاموي» ، عمره تسعون عاماً ، ولم يتزوج سوى مرة واحدة وأنجب سبعة أبناء ، بقي منهم ثلاثة أحياء ، ويعمل أحد أبنائه مدرساً ، أما هو فلا يزال يعمل مزارعاً من الساعة السادسة صباحاً إلى ما بعد الظهر ، وكان سابقاً يعمل سلطاناً إلى أن عزل لكبر سنه .

و«شارلز لايتاري» عمره ستة وثلاثون عاماً ، يعمل كمساعد لضابط في المجلس الريفي ، وباسيليو ، عمره سبعون عاماً ولديه ثلاث نساء وأربعة عشر ولداً ، يعمل مزارعاً ، يزرع الذرة والذرة الشامية (الأشاريف) والدخن ، ولا يستريح سوى ساعة واحدة بالنهار .

(١) ماكينجو: تعني أقل درجة من سلطان ، وأعلى من مواطن عادي .

حدثنى هؤلاء عن أحوالهم فعلمت أن متوسط العمر في القبيلة خمسون عاما ، وأنه في مواسم الجفاف يصعدون جبل (ناكاشوت) ليزرعوا على سفوحه ، وذلك لوجود مياه الينابيع فيه ، أما الجبال فتكثر فيها المعادن ، وقد عثر الخبراء الجيولوجيون على الذهب في جبل « كارتيا » وجبل « كيميالا » و « أورو » و « تالا » ، وتكثر في جبل « لاتوكيه » - المحاذي للحدود مع كينيا - المياه المعدنية الساخنة ، يشرب منها الأهالي كما تشرب منها أبقارهم ، ويقال إنها تعالج أمراض البقر كما تعالج رمد العيون ، ويقول السيد « باسيليو » إنهم كانوا يتعاملون بالعملة المعدنية المصرية والإنجليزية والريال ذى الخمسة قروش ، والقرش المصرى الذى يسمونه (أبوطربوش) حيث توجد صورة الملك على العملة بطربوشه ، ويبلغ متوسط دخل الفرد سنويا نحو مائتين وخمسين جنيها ، ويدفع الفرد البالغ ضريبة قدرها خمسة جنيهات كل عام .

وعُرفت قبيلة اللادينجا الأقشة عام ١٩١٨ ، وقبل ذلك كانوا يستخدمون جلود الحيوانات كرداء ، وتمثل الحيوانات عندهم رموزا لها دلالتها ، فهم يتشاءمون مثلا من طائر البوم ، وإذا نعقت على بيت أحدهم فعنى ذلك أن واحداً من أهل ذلك البيت سيموت ، وأحيانا يسمون أنفسهم بأسماء الحيوانات « لولوري » ومعناها الثور الضخم ذو القرنين الكبيرين وجلده منقط باللونين الأبيض والأسود أو الأحمر ، ويبلغ ثمن البقرة عندهم ستين جنيها .

ومن النساء اللاتى تحدثت معهن امرأة اسمها « لوسيا » عمرها نحو خمسة وأربعين عاما ، ترتدى رداء من الجلد غير المخيطة ، مربوطاً على الكتف الأيمن ، وأما الكتف والصدر الأيسر فعاريان ، قتل زوجها في الحرب الأهلية في الجنوب قبل عام ١٩٧٢ ، تحدثت عن كيفية صنع الجلد ، فقالت : - بعد أن يسلخوا الثور يجففون جلده في الشمس ، ثم يفردونه بأن يوضع عليه ماء ممزوج بالزيت ، وبعد ذلك يُجفونه بسكين لإزالة ماعلق به من دهون ليصبح ليناً وطرياً ، وهكذا يصبح مثل القماش الثقيل فيستخدم رداء ، وخاصة في الجو البارد كما يستخدم غطاء لمنع تسرب المطر إلى الجسم .

و«لوسيا» هذه لديها ستة أولاد يعملون في المدن بعيدا عنها، وأكبرهم يعمل مدرساً في جوبا، إلتقيت أيضا بامرأة أخرى، اسمها «أنبوبا»، ثم اتخذت لها اسماً مسيحياً هو «روزا»، لديها ثلاثة أولاد، تقول إن الرجال هم الذين يبنون الأكواخ بعد أن تُحضّر النساء الحطب والقش والمياه، وتقول إن أكثر النساء يُمَثَّن أثناء الولادة لعدم وجود الرعاية الطبية، ولذلك فإن مطالب المرأة في قبيلة الدادينجا تتركز في إنشاء المستشفيات والمدارس وحل مشكلة المياه.

وبينما كنت أتجول وسط أبناء القبيلة قدم لى السلطان، شخصية تستحق أن نتوقف عندها، وهذه الشخصية هو «بيتر أوكيلو»، ذلك الجنوبي ابن الدادينجا، الذى حارب مع القوات البريطانية في الحرب العالمية الثانية مع مونتجمري، وطاف بكثير من الدول، وعمل سائقا للزعيم الكينى جوموا كنياتا، إنه رجل في الستين، تزوج مرتين وأنجب ثمانية أولاد، مات معظمهم.

حدثنى عن نفسه فقال إنه عمل مع الجيش البريطانى منذ عام ١٩٣٧ كجندى وكان عمره حين ذلك نحو تسعة عشر عاماً، وتلقى تدريبه على أيدى الإنجليز في كابويتا وشكلم وناكاشوت، وذهب إلى مصر وتونس وليبيا والعراق والصومال وأثيوبيا وكينيا وأوغندا، وعمل مع الأجانب، طاف معهم في جولات كثيرة، والتقى مع مونتجمري، وقوات رومل وموسليني وجهاً لوجه في ساحات المعارك.

ويقول إن جبل ناكاشوت كان مركزاً للإنجليز وتحول إلى معتقل سياسى.

أول العمليات العسكرية التى اشترك فيها كانت في كينيا، ثم نقل مع الوحدات الإنجليزية إلى أديس أبابا وليبيا لمحاربة الإيطاليين والألمان، وتعلم منهم اللغة الإنجليزية، وفي هذه المعارك شاهد سقوط دول المحور في الصحراء الليبية، ووصل مع القوات حتى مرسى مطروح في مصر، حيث مُنح بعض الأفراد حرية العودة إلى ديارهم، لكنه فضل استمرار العمل مع القوات البريطانية، ثم عاد إلى الخرطوم عام ١٩٤٥، وانتقل للعمل في كينيا. وهناك تزوج لأول مرة واستخرج بطاقة شخصية، وسافر بعد ذلك إلى يوغندا وعمل كجندى في مصلحة السجون

عام ١٩٤٧ ، ثم انتقل مرة أخرى إلى كينيا ، وتشاء الأقدار أن يكون حارساً على «جوموا كينيا»^(١) في السجن ، وعندما خرج الزعيم الأفريقى من معتقله ، اختاره ليعمل سائقاً له ، ثم عاد مرة أخرى الى أوغندا ، وتزوج هناك للمرة الثانية وأصبح له بيت وأسرة ، وظل مقيماً هناك حتى سقوط عيذى أمين^(٢) ، حيث عاد أخيراً إلى منطقته الأصلية في مقر قبيلته الذادينجا ليواصل حياته معهم .



(١) زعيم كينى: اُعتُقل كثيراً قبل استقلال بلاده ثم أصبح أول رئيس جمهورية لها بعد الاستقلال .

(٢) رئيس جمهورية أوغندا — أُطيحَ به عام ١٩٧٩ .

قبيلة البيوتيا

(٦)

البويا

تقع قبيلة البويا بأقصى الشرق من إقليم الإستوائية، تحيط بها قبائل أخرى؛ هي قبيلة الدادينجا جنوباً، والتابوسا شرقاً، والآشولى والمادى غرباً، واللاتوكا شمالاً، وهي قبيلة صغيرة تحتفظ بعاداتها وتقاليدها الخاصة التى تختلف إلى حد ما عن طبائع القبائل الأخرى، ويبلغ عدد أفرادها نحو عشرة آلاف نسمة، لها لغتها الخاصة التى تقرأ وتكتب، وهناك قبيلتان تتحدثان لغة البويا؛ وهما قبيلة «مورلى» وتقع على الحدود مع أثيوبيا، وقبيلة «لوبيت» التى تقع على الحدود مع قبيلة «نوكورو» على بعد ثمانية وسبعين كم شرقى توريت، وتقدر مساحة مناطق القبيلة بنحو ألف كيلو متر مربع^(١)..

وتستخدم الحروف اللاتينية فى كتابة لغة البويا كسائر اللغات القبلية، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض فى نطق الحروف فثلاً يكتب حرف « V » المعروف فى اللغة الانجليزية على أنه **TH** ويكتب عند الدينكا على أنه حرف **Z** يدين أهل البويا بالمسيحية، ولكنهم لازالوا يتمسكون بعادات القبيلة وتقاليدها التى تتعارض فى بعضها مع الديانة المسيحية مثل الزواج والطلاق.

وأثناء جولتى مع أبناء قبيلة البويا كان أول من التقيت به هو السلطان «بلاشلي أجاؤون»، أحد سلاطين القبيلة، وهو غير معين من قبل الحكومة فهو منتخَب من قبيلته، عمره يبلغ نحو أربعة وثلاثين عاماً، وقد اُنتُخِبَ سلطاناً منذ ست سنوات، وتزوج ثلاث نساء ولديه من الأبناء خمسة كبار وتسعة صغار.

عندما التقيت به كان يرتدى بنظوناً وقيصاً عادياً، متوسط القامة، فى البداية أبدى تحفظه تجاه الحديث فى السياسة، فطمأنته بأن هذا ليس هدفى من اللقاء، بل التعرف على عاداتهم وحياتهم الاجتماعية، وقد أشعره ذلك بالاطمئنان، وراح يتحدث معى بلهجة عربية صعبة الفهم، وحوله كانت تجلس مجموعة من الشباب،

(١) هذا الرقم مصدره شفهي.

وقليل من كبار السن الذين آثروا أن يجلسوا تحت شجرة على بعد نحو عشرين متراً من مجلسنا، وهم يشهدون هذا الحوار مع رجل غريب عنهم لم يعتادوا على رؤيته.

ومع السلطان كان يجلس عدد من الموظفين مثل السيد «جيري» المسئول عن التفتيش في منطقة تقاطع الطرق المؤدية إلى شُكُتْم وإلى كابويتا، عمره سبعة وثلاثون عاماً ومتزوج من خمس نساء ولديه خمسة عشر من الأبناء، وقد تزوج الأولى عام ١٩٦٥ وفي عام ١٩٧٨ تزوج المرأة الخامسة وعمرها سبعة عشر عاماً.

معنا أيضاً السيد «بيتر ليكولومويا» عمره اثنان وعشرون عاماً متزوج بامرأة واحدة ولديه طفلان، والسيد «كاميلو» عمره خمسون عاماً وله زوجتان وتسعة أبناء وهؤلاء يعملون في نقاط إلتقاء الطرق، يرشدون السيارات و يقومون بتفتيشها.

ومن خلال أحاديثهم عرفت أنهم يذهبون كل صباح إلى الكنيسة بعد أن يستيقظوا ويغتسلوا وينظفوا أسنانهم (بالسواك)، ثم يذهبون إلى أعمالهم في الزراعة (رجال ونساء).. بعد الظهر تتولى المرأة إعداد الطعام وهذا جزء من عملها الرئيسي، حيث تقوم أيضاً بطحن المحصول من الذرة والسمسم وتحضر المياه والأخشاب، وتقوم بتنظيف الأرض الزراعية بعد جنى المحصول وإعدادها مرة أخرى للزراعة، وأحياناً يساعد الرجل المرأة في عملها هذا، وأرض «البويا» صالحة لزراعة البن والشاي بجانب السمسم والذرة والفول، ومنهم من يعمل في الحدادة لصناعة «المالوده»، وهي الآلة الزراعية التي يحرقون بها الأرض، وتستخدمها بعض القبائل كنوع من المهر يقدم لأهل العروس، تكثر في مناطق البويا الحيوانات البرية مثل الغزلان بأنواعها المختلفة والتيتل والحمار الوحشي والفيل والزراف، وتكثر الأسود وتقل النمر، وهناك مصالحة بينهم وبين الأسد فلا يعتدون عليه إلا إذا اعتدى على أغنامهم، وعند ذلك ينفخ في البوق ليعرف شباب القرية أن هناك خطراً يتطلب تواجدهم، فيحملون حراهم ويتوجهون إلى مصدر الخطر ليمنعوا ذلك الحيوان الوحشي من اقتراس أغنامهم، أما الإنسان فلا يعتدي على هذه الحيوانات، ويقولون إن هذه الحيوانات تخاف من الإنسان الذي يلاحقها بحربته وتجري منه مغبة في عرينها.. وفي هذه المناطق يوجد «البوقا» وهو نوع

من البقر الوحشى ويتميز عن البقر العادي بأن لونه رمادى فاتح ، والظهر من أعلى يميل إلى السواد على امتداد العמוד الفقرى ، وقرنه حلزوني الشكل .

وأهل القبيلة يصطادون هذا النوع من الأبقار وكذلك الغزلان والتيتل ، ويأكلونها كما يأكلون الذرة والدخن والتبؤن والسّمسم ، وعندما سألتهم عما إذا كانوا يأكلون لحوم البقر والأغنام الميتة ؟ جاءنى الرد جماعياً وسريعاً من كل الجالسين من حولى :

— بناكلوا طوّالي ، (أى أنهم لا يترددون فى أكله) .

لأن ذلك يوفر عليهم أغنامهم وماشيّتهم الحيّة التى تمثل مقياس الثروة عندهم ، وتمثل الأغنام والحبوب لديهم بديلاً عن المال حيث يشترون به ما يحتاجونه ويقايضون به سلعاً أخرى ويقدمونه كمهور للزواج . لكن المشكلة التى تواجهها قبيلة البويا هي نقص الأبقار عندهم بسبب الهجمات التى يتعرضون لها دائماً من قبيلة التابوسا التى تعتدي عليهم وتستولى على مالىهم من أبقار ، وفقاً للعقيدة التى يؤمنون بها وهى أن كل أبقار الأرض خلقت من أجل التابوسا ، وهم لا يستطيعون التصدى لهذه القبيلة لأنها الأقوى ، والسلطات المحلية تعجز عن أن تلاحق خاطفى البقر ، لأنه عندما يختلط البقر ببعضه من الصعب على السلطات أن تميز بين البقر الأصلى والبقر المسروق من البويا ، وقد عمدت البويا إلى وضع (وشم) على أبقارها لتمييزه عن غيره وتؤكد ملكيتها له ، إلا أن القبيلة الأقوى لا تعترف بهذه الرموز .

والبقر ثروة القبيلة ومهر عرائسها ، فإذا وافقت الفتاة على الزواج من شاب معين ، فإنه يذهب إلى أهلها ، أيها وأمها وإخوتها ، وإذا أجمعوا على الموافقة يطلبون منه المهر وهو عدد من الأبقار ، وعلى العريس أن يحضر المهر حتى لو اقتضى أن يذهب إلى قريب له فى الخرطوم ، ولا تشفع لدى العروس وأهلها أن قبيلة التابوسا يعتدون عليهم ويخطفون أبقارهم ، وهم مثل سائر القبائل الأخرى لا يتزوجون من الأقارب بل من القبائل البعيدة ، والهدف من ذلك هو زيادة البقر لدى الأسرة ، ويعتقدون بأن الزواج من الأقارب يزيد من العيوب الخلقية والتشوهات ، ويتحدد مستوى الأسرة الاجتماعى بعدد ما تملكه من أبقار .

وعندما يحضر العريس مهر عروسه يخضر والدها بقدومه ويقام حفل الزواج .. يأخذ العريس معه خروفاً إلى بيت فئاته لينبحوه، ويعدون ولمة العشاء ويجهزون المريسة ويدعون الأصدقاء، ويرتدى العريس رداء خاصاً في هذا الحفل، حيث يلبس جلد حيوان ويزين جسمه (بالسكسك) وهو الخرز الملون، ويضع على رأسه ريش نعام ويُبقي نصفه الأعلى عارياً، ويمسك بيده حربة، ويدقون له الطبول (النقارة) ويرقص معه الجميع ومعه عروسه. وطلبت أن يعدوا لى مشهداً من حفل الزواج هذا لأصوِّره، فقالوا إن ذلك متعذر لأنه يستغرق وقتاً طويلاً لإعداده والكل الآن مشغول في أعماله، فاكتفيت بما وصفوه لى. وتتكرر هذه الاحتفالات بنفس ملابس الجلد وريش النعام والسكسك في الاحتفال بيوم الحصاد.

هذه القبيلة تميل إلى الفرح أكثر من غيره، «فالنقارة» أى الإحتفالات التى تقيمها هي للتعبير عن سرورها في موسم الحصاد أوفى الأفراح، وليست عندهم رقصة للموت، وإذا مات أحد لا تقرق طبول ولا تقام احتفالات.

ويمنع الرجل أن يتزوج أخت زوجته، وإذا مات فن حق أخيه أن يتزوج امرأته بعد مضي سنة على وفاته، وعندما يحين الموعد المحدد لانتفاء السنة فإن عليه أن يحضر نيساً ويذبحه ويرش مخلفاته على المرأة وأولادها من أخيه المتوفى، وإذا لم يفعل هذا فإن هناك اعتقاداً بأن الأطفال الذين سينجبهم منها معرضون للموت، وإن المرأة نفسها معرضة للموت، وإذا حدث وعاش رجل فتاة بنية الزواج منها ولم يدفع لها مهراً، فعليه أن يدفع غرامة كسر بيت^(١) وتعادل ست بقرات، ومن حق الرجل أن يتزوج كما يشاء طالما لديه القدرة على دفع المهر، وكان هناك رجل قد تزوج عشرين امرأة، وجعل لنفسه أسرة كبيرة تعيش كقرية على بعد ثمانية عشر ميلاً من الموقع الذى كنا نجلس فيه.

وإذا توفي رجل وعنده أكثر من زوجة، وله ولد واحد فقط، فإن زوجاته يصبحن زوجات لأشقائه، وتترك أصغر الزوجات للإبن الوحيد بشرط أن تكون

(١) كسر البيت يقصد به فض البكاره.

أصغر منه سناً، أما إذا كان لديه أكثر من ولد فإنهم يتقاسمون الزوجات بشرط ألا تكون هي الأم، وأن تصغره سناً، وفي حالة الإنجاب منهن ينسب الأطفال للأب المتوفى.

وطبقاً لعادات البويا فإنهم لا يُخَتَّنون الأطفال، ليس بسبب دخول المسيحية عندهم ولكن هكذا هي عاداتهم منذ القدم.

وعندما تلد امرأة يسمى الطفل بمجرد سقوط الحبل السرى، ويحتفلون بمولودهم سواء كان ذكراً أو أنثى، ويعدون المريسة استعداداً للاحتفال بهذه المناسبة، ويوجد في القرية نسوة متخصصات للتوليد بوظيفة المؤلدة (الذابة).

وهم يتحدثون اللغة العربية ولكنها يصعب فهمها ويقولون أنهم لا يعرفون متى دخلت إليهم هذه اللغة، فقد تربوا وعاشوا ووجدوا هذه اللغة شائعة بينهم، وبما لاشك فيه أن اللغة العربية جاءت مع التجار الشماليين والجيش المصرى والتركي في القرن التاسع عشر، وهم يتغامون مع القبائل الأخرى التى لا تتحدث لغتهم إما باللغة الانجليزية عن طريق أحد المتعلمين منهم أو بلهجتهم العربية المحلية.

والأمراض الشائعة هي الملاريا ورمم العيون، والنيمونيا التى تجعل الطفل كارهاً للبن أمه، وتسبب الوفاة بين الأطفال. ويروى أنهم فى الماضى كانوا يدفنون الميت واقفاً(١)، أما الآن فيدفن بالطريقة العادية فى بيته، وبعد دفنه يذبح تيس أو ثور ويرش دمه على القبر، ويقدم الطعام للمعزين مع شراب المريسة، ويميز أبناء البويا أنفسهم عن أبناء القبائل الأخرى بكسر نصف السن الأسفل، وبارتداء جلود يصنعونها بأنفسهم لتمييزهم عن غيرهم.

وسلطان البويا يرتدى من الملابس مايشاء، وأوامره لا تخالف. وهم لا يؤمنون بسلطان «الكجور» المتخصص فى السحر وعلاج المرضى، ويعتمدون فى علاج الأمراض بالأعشاب، وسلطان المطر له احترامه وهيئته بينهم، وله وضع اجتماعى مميز يأتى بعد سلطان القبيلة، وحينما يقرر إنزال المطر يذهب إلى أماكن لا يعرفها أهل القبيلة وعند ذاك يقولون:

ها هو قد ذهب لإنزال المطر.

(١) غير مؤكد.

وللقبيلة قانونها ؛ فإذا ارتكب أحد من أفرادها جريمة قتل ، فإن شقيقة القاتل تُعطى كفدية لأهل القتيل ، أو يدفع ما يطلب منه من بقر ، أما السارق فإذا أُلقي القبض عليه ، فإنّ جزاءه ضرب مُبرّح لا يؤدي إلى موته . وإذا كان يمتلك بقرأ يصادر ، أما الآن فإن السارق أو القاتل يمثل أمام محكمة حكومية لإصدار الحكم المناسب عليه .

ويقسم الميراث بين الإبن الأكبر وإخوته وأخوانهم ، ولكل زوجة نصيبها من البقر ، أما الفتيات فلا يحصلن على شيء .

ويقولون إن مشاكلهم الرئيسية هي مع قبيلة التابوسا التي تستولى على أبقارهم ، أو عندما يتعرضون للمجاعة كما حدث عام ١٩٨١ . وفي هذه الحالة تقل كمية اللبن التي يعتمدون عليها في غذائهم ، ولتعويض ما افتقدوه يلجأون إلى دم البقر يستخرجونه من وريد الرقبة ويمزجونه مع الحليب ويشربونه .

تقل نسبة الطلاق عندهم وتكاد تنعدم وخاصة من جانب الرجل ، وإذا اكتشف رجل أن زوجته على علاقة برجل آخر فإنه ينتقم بقتله ، وإذا ذهبت المرأة إلى بيت أهلها فن حقه أن يطالب باسترجاع أبقاره ، ويكون الأولاد في حضانتها وتحرم الأم منهم ، ولذلك ينذر أن تتخلى المرأة عن زوجها ، وإذا كانت الزوجة سيئة السلوك فله الحق أن يطلقها ويأخذ منها أولاده فقط ، أما الأبقار التي دفعها مهرأ فتبقى للزوجة . ومناطق البويا غنية بالثروات المعدنية كسائر المناطق الأخرى ولكنها لم تكتشف بعد ، ومن أهم معالمها جبال لوباي وكودوجاك وكبراتيوي ، وتوجد لديهم خلايا عسل النحل في الأشجار والتي تمثل لهم مصدراً غذائياً واقتصادياً . وهناك مناطق لم تصلها الكهرباء ووسائل الحياة الحديثة ، حتى أنهم لا يكادون يعرفون السيارات .

متوسط العمر في قبيلة البويا نحو خمسين عاماً ، وهم متوسطو القامة . ومن مطالبهم إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم .



قبيلة البناريا

(٧)

الباريا

تتميز قبيلة الباريا عن القبائل الأخرى في جنوب السودان بأن لها عادات خاصة لا تشاركها فيها قبائل أخرى، فالقبيلة تعرف نظام الطبقة، فيها السلاطين، والزراع، والحرفيون والصيادون، والخدم. ومن العادات القديمة لهذه القبيلة أن يبقى الخادم الأكبر مع سيده السلطان - إذا توفي - في قبره وتحت جثمانه لمدة أربعة أيام إلى أن تتحلل الجثة وتفترس سائلها عليه، عند ذلك يسمح له بالخروج ويُنتصب مستشاراً للسلطان الجديد الذي هو عادة ابن أو أخ السلطان الراحل، بدون أن يكتسب مميزات جديدة ترفعه عن طبقة الخدم اللهم إلا إنه لا يكلف بأعمال بدنية، ومن هذه العادات أيضاً أن الفتاة عندما تصل إلى سن الزواج يكون عليها أن تقتلع أربعة من أسنانها السفلى، دليلاً على أنها قد نضجت وأصبحت مؤهلة للزواج.

لعل هذه الصفات الخاصة لعادات القبيلة هي التي صنعت اسمها، فكلمة (باريا) الذي هو اسم القبيلة يعني لديهم «لسنا كذلك»، حيث كان الناس في الماضي يسألون بعضهم بعضاً في تنقلاتهم هل أنتم كذا وكذا؟ فيردون «لا نحن باري» أي نحن لسنا كذلك.

وقبيلة الباريا من القبائل الكبيرة في إقليم الإستوائية، وأن الأصول القديمة لها جاءت من شرق أفريقيا؛ من كينيا وأوغندا. وكانوا يقطنون المنطقة الواقعة حول بحيرة فيكتوريا، فوصلوا إلى جوبا عن طريق كابويتا شرق الإستوائية، ومنها عاد بعض منهم إلى أوغندا وزائير مرة أخرى، وبدأ وصولهم إلى الأراضي السودانية من شرق أفريقيا في القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي. وتنتمي إلى القبيلة سبع قبائل فرعية منها كاكوا، ونيبو، وفوجولو بانجيرا، ومونداري، وفوجولو، وتتخذ كل قبيلة لها مركزاً، فونداري مركزها في تركاكا، وكاكوا في «يبي»، و«كوكو»

في « كاجي كاجي » ، أما المركز الرئيسي للقبيلة الأم الباريا ، فيوجد في جوبا^(١) .

وتتشابه العادات في هذه القبائل ، ويتحدثون جميعهم لغة الباريا ، وكل قبيلة فرعية مقسمة إلى فخذ ، وكل فرع وفخذ له عاداته ، ولا يتزوج أبناء القبيلة من بعضهم ، فكلهم يعتبرون أنفسهم إخوة وأخوات .

والرجل أن يتزوج كما يشاء طالما لديه القدرة على دفع الأبقار التي تطلبها أسرة الفتاة كمهر لها ، ويستطيع أن يكون قادراً على بناء كوخ لها في فناء بيته الذي هو عبارة عن عدة أكواخ داخل سور واحد (البامبي) . والكوخ يسمى قطية ، ولكل زوجة قِطِيَّتُها الخاصة بها ، إلا أنه مع تطور الحياة وقلة عدد الأبقار فإن من تتاح له فرصة التعليم والخروج إلى المدن أصبح يكتفى بزوجة أو اثنتين ، أما الذين لا زالوا يعيشون في القرى البعيدة فهم متمسكون بعاداتهم القديمة في تعدد الزوجات .

والأمر الهام في الزواج هو دفع المهر ، والمهر عبارة عن عدد من البقر ، والعدد يتفاوت من شخص إلى آخر حسب مركزه في القبيلة ، وعادة لا يقل عددها عن اثنتي عشرة بقرة ، توزع على أهل الفتاة على النحو التالي : بقرة أو ثور لكل من أم الفتاة ووالدها وجدتها وإذا كانا على قيد الحياة ، ثم يضاعف لهم البقر كضمان للأسرة خشية أن يختلف معهم الزوج ، أو في حالة غضب يسىء فيها إلى والد زوجته أو والدتها ، أى بمثابة غرامة مسبقة لأخطاء قد يرتكبها الزوج في المستقبل ضد والد الفتاة أو والدتها ، وهكذا يدفع العريس ثمانى أبقار أو ثيران لأهل العروس ، كما يدفع فقط بقرة لأكبر أخوالها أو أعمامها ، ثم يدفع ثوراً للمسئول عن حظيرة الأبقار ، وثوراً آخر يكون بمثابة قائد قطع البقر و يعلق على رقبته جرس ، وبذلك يكون عدد ما يجب أن يدفعه العريس من الأبقار اثنتي عشرة بقرة وثور .

(١) لقاء مع هنري باولو لوقالي رئيس جامعة جوبا ، وهو واحد من كبار السياسيين في الجنوب ، وقد تقلد عدة مناصب وزارية في الحكومتين المركزية والإقليمية ، وما يزال رئيساً لمجلس إدارة جامعة جوبا .

والزوجة ليس لها نصيب من هذا المهر بل ليس لها الحق حتى في أن تشرب من لبن هذه الأبقار عند زيارتها لأهلها، وأن كل ماتأخذه هو ماتحضره لها والدتها من ملابس وأدوات للطبخ وهي أدوات بسيطة للغاية.

وعادة ما تلد الزوجة مولودها الأول في بيت أهلها، وبعد سبعة أو عشرة أيام من ولادتها يأتي زوجها بخروف وينبجه لإطعام النساء اللاتي قن برعايتها، وتظل الزوجة في بيت أهلها لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر يتكفلها والدها خلال هذه الفترة، ولا يصح اجتماعياً أن يفعل ذلك زوجها حتى لا يسيء إلى سمعة الأب، ولذلك فقد جرت العادة أن الزوج إذا عثر على صيد سمين أو كان معه طعام جيد ويريد أن يبعث به لزوجته، فعليه أن يحضر إلى بيت أهلها في ساعة مبكرة من الصباح ويسلمه لأم زوجته دون علم أحد، وهذه السرية لحماية كرامة أم الزوجة حتى لا تُعَيَّر بأن زوج ابنتها يحضر لهم طعاماً أوصيداً.

وللقبيلة عاداتها الخاصة، فعندما تبلغ الفتاة سن الزواج أو يتقدم لها شاب فإن عليها أن تقوم بخلع الأسنان الأربع السفلية، وعادة ما يجري احتفال لهذه المناسبة كل عام، حيث يتم خلع الأسنان بشكل جماعي وفي يوم واحد، ويتولى ذلك شخص متخصص في هذه العملية، وهذا أمر ضروري ولا بد منه، فإن المجتمع ينظر إلى أي فتاة تصادق شاباً نظرة تسيء إليها خاصة إذا حملت قبل خلع أسنانها وتُعَيَّرُها النساء، ولو حصل أن واحدة حملت بعد خلع أسنانها وأخرى لم تخلعهم وتشاجرتا، فإن التي خلعت تقول للأخرى: — (أنا ما زيك حملت بسنوني). أي إنني لست مثلك حملت قبل خلع أسناني (بمعنى أن التي تحمل قبل أن تخلع أسنانها تعتبر منحرفة)، وأكثر من هذا فهم يُشَبِّهونها بالضبعة.

والمجتمع ينظر إلى خلع الأسنان السفلية على أنه رمز للجمال، وعند عملية خلع الأسنان يجب ألا تشكو البنت رغم أن ذلك يتم بدون مُخَدَّر، وإذا صرخت يقولون عنها إنها غير شجاعة، بمعنى ليست أهلاً للزواج.

وقد بدأت هذه العادة تتلاشى منذ سنوات.

وأنه في الماضي كانت الفتيات بعد خلع أسنانهن يذهبن إلى أسواق جوبا متباهيات بأنفسهن ويتعمدن الابتسام حتى يبدين بلا أسنان، دليلاً على أنهن

ناضجات وفي سن الزواج، وبما أنهم عاريات البطن والصدر فقد تضع إحداهن حول وسطها (السكسك) وهو خرز صغير ذو ألوان متعددة كنوع من التجميل، وتُسيك بعضى من الخيزران لتستعرض أمام الشباب.

ولا يقام احتفال بليلة الزواج، كما هو متبع عادة في مثل هذه المناسبة، والمهم هو أن يدفع العريس المال الذى هو عبارة عن البقر وهذا أهم مافى الأمر. ويُحرّم زواج الشاب من نفس الأسرة أو من فخذ القبيلة التى ينتمى إليها، وإذا حصل وتزوج بالخطأ واكتشف ذلك، فعليه أن يذبح تيساً، ويشترك هو وزوجته في قطعه بأسنانها حتى ينقسم إلى نصفين، فتأخذ كل أسرة نصف الذبيحة، وذلك تكفيراً عن الخطيئة التى ارتكباها دون قصد.

والاعتداء على فتاة (حتى لو كان برضاها) بدون زواج، أمر يحدث أزمة اجتماعية خاصة إذا حملت، ويعتبر هذا نوعاً من أنواع الجريمة، وفي هذه الحالة فإنه يفرض على الشاب الذى اعتدى على تلك الفتاة أن يتزوجها، ولكن عليه قبل ذلك أن يدفع غرامة (كسريت) أى قَصْ بكاراة ثم يتفاوض مع أهلها للزواج، وبعد موافقتهم يدفع مهراً كاملاً، ولو رفض يحكم عليه بالسجن، وهكذا فإن الإتصال الجنسي بالفتاة يعتبر زواجاً ولا بد من دفع البقر الذى هو المهر، أما إذا استخدم العنف مع الفتاة (أي اغتصبها عنوة) فالأمر في هذه الحالة يصبح أكثر خطورة ولا بد أن يدفع غرامة كبيرة، وهي عبارة عن ثور ثم يدفع المهر كاملاً ويتزوجها، وفي الماضى كان شقيق الفتاة يقتل من اعتدى على أخته بالحربة

تطورت هذه العادات الآن، فقد تذهب الفتاة للزواج دون موافقة أهلها، حتى لو لم يدفع العريس البقر، وعند ذلك يصبح المهر ديناً عليه يسدده كلما توفر لديه شيء من المال أو البقر، وقد يدفع عدداً من (المالوده) التى هي آلة حديدية تستخدم في الزراعة لحث الأرض.

وفي الماضى كان الطلاق ممنوعاً، أما الآن فإن القبيلة تقوم بمحاولة فرض الصلح على الزوجين، وإذا لم تنجح المحاولات، يجرى تقسيم البقر على الأبناء، ويبقى الأبناء مع أهمم التى تحتفظ أيضاً ببقر آبائهم، أما إذا لم تكن قد أنجبت

فإن جزءاً من البقر يعود إلى الزوج بصرف النظر عن تسبب في الطلاق سواء كان الزوج أو الزوجة .

وللرجل وظيفته التي تختلف عن وظيفة المرأة ، فهو مسئول عن الزراعة وبناء البيت (القطية) والدفاع عن الأخطار ، أما المرأة فوظيفتها إحضار المياه وإعداد الطعام وتنظيف البيت وجلب (القش) أعواد السافانا والأخشاب ، والولد يتبع والده في العمل ، ويذهب معه إلى الزراعة أو الصيد ويتعلم منه العادات والتقاليد ، وإذا كان يذهب إلى المدرسة فإنه يلحق بأبيه بعد عودته منها ، أما البنت فتتبع والدتها وتتعلم منها أمور البيت ووظائف المرأة في القبيلة ، وعادة ما يذهب الولد لرعى البقر والغنم مع آخرين أكبر منه سناً ، وهم يحملون حراهم ويذهبون إلى أماكن بعيدة ، والحرا ب سلاح هام في أيدي أبناء القبيلة للدفاع عن النفس وخاصة أثناء الرعى ، فإذا ما تعرض القطيع لهجوم من أي حيوان وحشي مها كان ، فلا بد أن يطارده بالحرا ب حتى يقضوا عليه أو يبتعد عن قطعانهم ، وفي مناطق القبيلة تكثر الحيوانات البرية كسائر مناطق الجنوب ، ومن هذه الحيوانات : الأسد ، الفيل ، النمر ، الفيل ، والزراف ، والنعام ، والتيتل ، والجاموس ، وتعتبر مناطق الباري مناطق صيد جيدة .

وللأسد قصة عند هذه القبيلة وله مكانة فيها ، حيث يروى أنه قديماً كان إذا تقدم شاب للزواج من فتاة وماطل في دفع المهر بعد زواجه منها ، فإن أهل الزوجة يهددونه بأنهم سيلجأون إلى من يحضر الأسد ، وهم يعتقدون أن هناك من يستطيع إحضاره ، ويقول والد الفتاة لزوج ابنته إذا لم تدفع المهر سنذهب لمن يحضر الأسد ، ويذهب والد الزوجة وبعض إخوانها إلى متخصص من رجال القبيلة يشكون إليه أن فلاناً زوج ابنتهم لم يسدد ماعليه من مهر رغم أن ظروفه ميسورة ، وأنهم يطلبون منه أن يحضر الأسد في الليل ليهاجم على حظائر ماشية أهل الزوج ، ويتم ذلك بالفعل ، وعندما تستيقظ الأسرة وترى أن بقرة قد أصيبت يتساءلون عن السبب ، وذلك لاقتناعهم أن الأسد لا يهاجم من تلقاء نفسه ما لم يكن مُحَرَّضاً من قبل أحد ، فإذا ما عرفوا أن فلاناً هو السبب في ذلك يطالبونه بأن يفى بالتزاماته مع أسرة زوجته ، كي لا تتعرض أبقارهم لهجمات أخرى ، ويجبرونه على أن يسدد

ماعليه ، وعند ذلك يذهبون إلى من أحضر الأسد ويكرمونه ويطلبون منه منع حضور الأسد فيمتنع ، ويعود الأمن إلى ربوع المنطقة .

كيف يحدث ذلك ؟

لقد كان هناك اعتقاد لدى الناس في الماضي وهو أنَّ الإنسان يمكن أن يتحول في الليل إلى أسد ، وينتشر هذا الاعتقاد في القبيلة ، وقد حكى أحد من أبنائها أنه ذات يوم شاهد إنسانا في الصباح له أذن أسد ، وأدرك ساعتها أنَّ الأسد كان يعود إلى طبيعته كإنسان ، ولعل مثل هذه الروايات هي نوع من أنواع الأحاجي التي تدخل في المعتقدات القبلية حيث السحر والتحويلات من إنسان إلى حيوان أو العكس وفقاً لطبيعة الحياة السائدة في البيئة .

وللقبيلة سلاطين ، تتوزع اختصاصاتهم لتنظيم شؤون القبيلة كل في المنطقة الخاصة به ، وكل قبيلة صغيرة بها سلطان ، وعلى سبيل المثال فإن منطقة الباريا المجاورة للنهر لديها عشرون سلطاناً ، وأصبح للسلطان الآن وظيفة حكومية وله مُرتبته الخاص ، وهو مسئول عن قطاع من القبيلة ومن مهام عمله جمع الضرائب للحكومة ، وهو بمثابة قاض لديه محكمة صغيرة يصدر أحكامه ويحولها للمركز ، إلا أن السائد هو قضاؤهم القبلي الذي ورثوه عن أجدادهم .

ومن أبرز السلاطين سلطان المطر ، ويعتقد الناس إلى حد كبير في أهمية دوره في إنزال المطر ، وهو لا ينتخب مثل السلاطين الآخرين ، وإنما يتوارث هذه السلطة عن آباءه وأجداده .

وهناك بحث لكاتب بريطاني زار المنطقة في الثلاثينيات من هذا القرن ، أعطى تفسيراً لأصل قصة سلطان المطر إذ أن مصدرها أسطورة تعتمد على عادة قديمة ، هي أن المرأة إذا ولدت تووماً يعتبر نذير شؤم في القبيلة ، ومن ثم يتخلصون من أحدهما ويبقى الطفل الآخر ، ويعتقدون أن الحيوانات فقط لها أن تنجب تووماً وليس الإنسان .

وتقول الأسطورة إن امرأة ولدت توومين ذكرين ، فقررت القبيلة أن تتخلص من أحد الطفلين ، وأمرؤا الأم بأن تأخذ الطفل وتتخلص منه ، لكن غريزة

الأمومة منعها من ذلك فأخضت الطفل ، بأن وضعت في صندوق خشبي وربطته بواسطة حبل إلى شجرة كيلا يجرفه التيار، وكل صباح ومساء تذهب إليه خفية وترضعه ، وبعد أيام أصيب الطفل الآخر الذي في حضانة الأسرة بمرض ومات ، فندبت الأسرة حظها ، ونذمت على فعلتها بقتل الطفل ، وعند ذلك أعلنت الأم لهم أن الطفل الآخر مازال حياً ، وحكت لهم قصتها ، وأحضرتهم لهم . وباعتبار أنه عاش فترة على سطح الماء ، فقد اعتبرته الأسرة مباركاً لأن الماء حفظه ونجّاه ، فلما كبر وتأخر هطول المطر عن مواعده لجأوا إليه فقام بأدعية ، نزل بعدها المطر فسمّي سلطان المطر، وهكذا أصبحت ذريته من بعده .

ويعتقد أهل القبيلة أنّ سلطان المطر لديه خاصية الاتصال بالاله الأكبر الذي يسمونه « باؤون » ، ومعناه أعلى شيء وقادر على كل شيء ، وإذا فشل سلطان المطر فإنهم يوسعونه ضرباً بالسياط أو يربطونه إلى شجرة بجوار نار موقدة حتى إذا شعر بسخونتها صاح فيهم طالباً إعطائه فرصة لإنزال المطر، فإن لم يتمكن بعدها فقصيره هو الموت حرقاً ، ولكنهم يؤكدون أنه يندر أن يفشل السلطان في إنزال المطر.

وتنفرد قبيلة الباريا بوجود مُجْتَمَعَيْن بها ، هما المجتمع الحر ومجتمع البحر، والمجتمع الحر هو الذي يضم طبقة السلاطين والأثرياء ، ومجتمع البحر هو الذي يضم الطبقات الأقل من المزارعين والصيادين والحرفيين الذين يقومون بالصناعات اليدوية ، مثل صناعة « المالدود » وبالإضافة إلى ذلك يوجد مجتمع الخدم ، وللسلاطين والأثرياء الذين ينتمون للمجتمع الحر خدمهم ، والخدام لا حرية له وسيده مسئول عنه وعن حياته وحتى زواج أولاده وبناته ، وهم يتزوجون من نفس طبقتهم .

ومن عادات هذه القبيلة أنّ السلطان عندما يموت يُخَفَّر قبره ويوضع عليه سرير من الخشب (عنقريب) ، ويغطى السرير بحصير يوضع عليه جثمان السلطان ، وينزل خادم السلطان الكبير في القبر ، ويقم فيه لعدة أيام ، يقدم له خلالها الطعام والشراب ، ويظل على هذا الحال والجثة فوق السرير ممددة فوقه إلى أن تنتفخ وتتحلل ويتساقط سائلها على رأس وجسم الخادم ، وعندئذ يخرجونه

و يقومون بتنظيفه و يلبسونه رداءً جديداً، و يُرَقَّى إلى وظيفة مستشار للسلطان الجديد الذى هو إما ابن أو أخ السلطان الراحل، ولدى القبيلة اعتقاد بأن السائل الذى نزل من جثة السلطان على الخادم، هو بركة، قد حلت فى هذا الخادم، ولهذا يُرَقَّى إلى مستشار و يعفى من أعمال الخدمة ولكنه يظل منتصباً إلى طبقة الخدم.

وقد حارب الإنجليز هذه العادات عندما جاءوا إلى المنطقة وأبطلوها فى الربع الأول من هذا القرن، وأصبح السلطان عندما يموت يدفن على الفور، و يعد له قبر كبير أمام الكوخ الذى يسكنه، ومن عادات القبيلة أن يدفنوا الموتى داخل بيوتهم، وإذا كشرت فيها المقابر تنتقل الأسرة إلى منطقة مجاورة للبيت القديم، وعند الدفن تقام حفلة جنازية تدق فيها الطبول كتعبير عن الحزن.

ومناطق القبيلة غنية بثرواتها التى لم تكتشف، فهناك خُوْرٌ معروف باسم خور «لوري» به ذهب، وكان خبراء من بلجيكا قد زاروا المنطقة وقاموا فيها بدراسات أثبتت وجود معادن كثيرة.

ويعتمد السكان فى زراعتهم على المطر، أما الذين يعيشون بجوار النهر من المزارعين فإنهم يزرعون أراضيهم عن طريق مياه النهر مباشرة بوسائل بدائية لاتروي إلا مساحات صغيرة.

ويتحدث السكان اللغة العربية بلهجة يصعب فهمها، وقد دخلت اللغة العربية إليهم عن طريق حملة محمد على ١٨٢٥، وكذلك عندما جاءها الأثرياء من شمال السودان والدول المجاورة للتجارة فى سن الفيل فتطورت إلى الرقيق.

وقبل أن تدخل الديانة المسيحية والإسلام إلى القبيلة، كانت لها عقائدها الخاصة بها، فهم يؤمنون بأن هناك قوة أكبر من الإنسان، هو الإله الأكبر، وتُسَمَّى كل قبيلة إلهها باسم مختلف عن القبيلة الأخرى، والاسم الشائع هو «باؤون»، وفى أعراقهم أن الإنسان إذا عمل عملاً سيئاً فإن «باؤون» سيعاقبه.

إلى جانب هذه القبيلة توجد قبيلة صغيرة اسمها «لوكايا» لها لغتها الخاصة وتعدادها يصل إلى ألفي نسمة، يقيمون على مساحة تصل إلى نحو مائتي كيلو متر

مربع ، لكنهم يتكلمون لغة الباريا كلغة أساسية بالإضافة إلى لغتهم ، وهم لا يختلفون عن أهل الباريا في عاداتهم ، ويتزوجون معهم لأنها قبيلة منفصلة عنهم ، ويشتهر أفرادها بالإضافة إلى الزراعة بالصناعات اليدوية وخاصة صناعة السكاكين ، وهي مذبحة كرأس حربة ولها مقبض من القصدير.

ومن أشهر أفراد هذه القبيلة الصغيرة سلطانها (لوليك) وابنه الدكتور باسيفيكو وهو من كبار السياسيين في جنوب السودان ، وتقلد عدة مناصب كان آخرها رئيساً لمجلس الشعب الإقليمي باقليم الإستوائية حتى ٦ أبريل ١٩٨٥ .

* * * * *

قبيلة الزاندی

(٨)

الزائدي

تعتبر قبيلة الزائدي من القبائل الكبرى في جنوب السودان ، وهي متواجدة في أربع دول أفريقية ، هي نيجيريا وأفريقيا الوسطى وزائير والسودان . تعداد هذه القبيلة في هذه الدول نحو أربعة ملايين نسمة ؛ منهم ثلاثة ملايين ونصف المليون في زائير وحدها وربع مليون نسمة في جنوب السودان ، والباقي موزع بين نيجيريا وأفريقيا الوسطى ، ويتكلمون لغة واحدة ، هي لغة الزائدي ، وللقبيلة عاداتها وتقاليدها الخاصة التي لا يشاركها فيها أحد وخاصة تلك العادات القديمة التي توارت الآن والمتعلقة بالملوك والسلاطين ، فهم وحدهم الذين يسمح لهم بمعايشة بناتهم ، وفي الماضي عندما كان يموت الملك تدفن معه أربع من زوجاته وهن أحياء ، وتحرس القبيلة حتى الآن على ختان الذكور سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو لادينيين ، وهي تتميز في عاداتها عن القبائل الأخرى .

إن أصل كلمة (الزائدي) هو كلمة « أنزا » أى منتشر ثم حُرِّفت إلى زائدي ، أي أنها تعنى القبيلة المنتشرة ، ومعظم أبنائها يعيشون في زائير وخاصة في مناطق الشمال ، يانجرا وبانجادي وأندوريا ومارينجو ، وعاداتهم في سائر الدول الأفريقية واحدة (١) .

بدأت قصة الزائدي في السودان في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث أغار الملك يامبيو أحد ملوك الزائدي على القبائل الصغيرة التي كانت تسكن المنطقة وحاربها إلى أن انتصر عليها ، واستوطن مناطقها المجاورة للحدود مع أفريقيا الوسطى وزائير ، إلى منطقة « يبي » على الحدود الأوغندية (جنوب غرب جوبا) ، ثم عاد وأنشأ مملكته في منطقة سُمِّيت باسمه (يامبيو) ، ومالبث أن غيَّر اسمه ليصبح « بُودويه » إلا أن بعض أتباعه استقروا في المناطق المجاورة ، لـ « يبي » ، حيث

(١) لقاء مع اللواء معاش صمويل أبوجون كباشي الذي كان أحد ضباط حركة الأثيانيا التي قادت العمليات المسلحة خلال الحرب الأهلية في الجنوب قبل عام ١٩٧٢ والتي استمرت سبعة عشر عاماً ، وبعد توقيع اتفاقية أديس أبابا التحق بالجيش برتبة عميد ، ثم عين وزيراً للمواصلات عام ١٩٧٨ ، وتدرج في مناصب سياسية كعضو في البرلمان أو في مناصب وزارية أخرى .

الطقس المعتدل ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، كذلك انتشر أتباع الملك في مساحة تصل إلى نحو ١٥٠ ألف كيلومتر مربع (١) في مناطق طمبرة ، وايزو ، ويامبيو ، وأنجيزو ، وانزارا ، وسوكوريه (وهي قرية صغيرة متاخمة لحدود زائير) .

هكذا تأسست مملكة الزاندي في منطقة غرب الإستوائية ، ونقل الملك معه تقاليد وعادات قبيلته التي تختلف عن عادات وتقاليد القبائل الأخرى ، وتعطى للملوك والسلاطين سلطات وامتيازات لا يتمتع بها أفراد القبيلة العاديون ، ومن أهم هذه السلطات مايلي :-

١- من حق الملك أو السلطان أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فثلا إذا كان جالسا في مكان ما ، ومرت أمامه فتاة وأعجبتة ، يسأل الذين من حوله بقوله :- بنت من هذه الفتاة ؟ .. هذا السؤال يعني أن الملك قد خطبها ، وما على جلسائه إلا أن يذهب أحدهم ليسأل عن والد البنت ليلفغه برغبة الملك ، حيث يقوم بتجهيز ابنته بكل ما تحتاج إليه العروس ، بما في ذلك العسل والمريسة ويحضرها إلى الملك ، الذي بعد أن يقضي معها ليلته الأولى يأمر بإرسال المال والأغنام إلى أبيها ، وهذا يعني مهرا أو صداقا .

٢- كان من حق الملك وإخوته من سلالة الملوك (السلاطين) معاشره بناتهم قبل تزويجهن ، وعلى الإبنه أن تقدم نفسها لأبيها راضية كنوع من التبجيل ، ولا يجوز لها أن ترفض حتى لا تقلل من هيبه والدها في نظر قبيلته ، ولأنه يتزوج كثيراً من النساء - قد يصل عددهن إلى المائة - فهو لا يفرق بين بناته وبنات الآخرين ، ولكن هذا لا يمنع حتى لو عرف أنها ابنته ، المهم في الدرجة الأولى أن تعجبه ، وبعدها لتكن ابنة من تشاء ، وقد حَرَّمَ ذلك على الناس العاديين في القبيلة ، وأوهمهم أن من يقلده في هذه العادة سيصاب بمرض الجذام ، وبقي الاعتقاد راسخا لديهم خاصة بعد أن حاول أحدهم من عامة الناس معاشره ابنته كما يفعل الملك ، فأصيب بذلك المرض (الجذام) .

(١) هذا الرقم مصدره شفهي .

عندما يموت الملك أو أمير كبير في الأسرة تدفن معه في قبره أربع من زوجاته الشابات يختارهن بنفسه قبل أن يموت ، ويكون ذلك موضع فخر لمن بين ضراتهن من الزوجات الأخريات لاعتقادهن أنهن ذاهبات إلى بيت آخر جديد لا يعرفه أحد ، وأن اختيار الملك لمن هو دليل على أنه خصهن بحبه أكثر من غيرهن من زوجاته الكثيرات ، مما يجعلهن موضع غيرة من الأخريات . وهكذا عندما يموت ، يوتى بالنسوة الأربع وتُكسّر أذرعهن وسيقانهن ، وهن سعيدات بذلك ، حيث تُرُصُّ اثنتان في أسفل القبر ليوضع جثمان الملك عليهما ، ويوتى بالأخريين وتمددان فوق الجثمان ثم يغلق عليهن القبر ، وبعد عام من الوفاة يقام احتفال كبير تدق فيه الطبول لمدة سبعة أيام وتذبح فيه الذبائح ، وتشرب المريسة بكثرة ، ولا يجوز أن تقام خلال ذلك الأسبوع أية احتفالات أخرى . هذا ما كان من أمر الملوك والأمراء .

أما أبناء القبيلة فلهم طقوسهم الدينية وعاداتهم في الزواج ، فكانوا يؤمنون بوجود آلهة متعددة وليس إلهاً واحداً ، وأهم هذه الآلهة عندهم الإله «مازيجا» والإله «باؤون» الذي يلجأون إليه لإنزال المطر ، فعندما يتأخر سقوط المطر ، وتهدّد محاصيلهم الزراعية ، يتوجهون إلى الإله «باؤون» بقربان ، والقربان عبارة عن دجاجة ويحملون معهم آلاتهم الزراعية إلى أحد الأنهر الصغيرة ، وسط احتفالات كبيرة تبدأ في الصباح المبكر وهم يضربون على الطبول (النقارة) ويشربون المريسة ، وعند النهر يذبحون الدجاجة ليسيل دمها في مياهه ، ويتلون صلواتهم للإله «باؤون» ويسألونه أن ينزل عليهم المطر ، فإذا لم يسقط المطر بعد هذه الطقوس ، يذهبون إلى الإله الأكبر «مازيجا» حيث يتوجهون إلى نهر أكبر يتميز بقوة اندفاع المياه فيه ، وعنده يؤدون صلواتهم ويدقون الطبول ويشربون المريسة ويذبحون هذه المرة كمية من الدجاج ، لا يأكلها أحد ، لأنها ذبحت خصيصاً للإله «مازيجا» تقرباً إليه كي ينزل عليهم المطر . . . وبسؤالى وهل ينزل المطر فعلاً ؟ أكد مُحَدِّثى أنه لم يحدث أن خيَّب الإله الأكبر ظن الناس فيه ، أما الأصغر فليس دائماً يحقق لهم ما يريدون .

ومن عادات الزواج قديماً أنَّ ألبنت تتم خطبتها بمجرد ولادتها، فعندما تنجب أسرة ولداً وأخرى بنتاً، فإن الأب الذى أنجب ولداً يذهب خفية إلى بيت الأسرة التى أنجبت بنتاً، حاملاً معه سمساً وخضروات ويجلس أمام مدخل كوخ أهل البنت، وعلى مرأى من أهلها، دون أن يكون لديهم علم مسبق بحضوره، ويحرق ما أحضره معه أمامهم، فيعلم أهل البنت أن هذا قد خطب بنتهم لإبنه الوليد، دون أن يسألهم أو يستأذنهم، فيصبح الأمر بعد ذلك مسلماً به، لا يحق لأهل البنت رفضه ولا حتى مناقشته، وعندما تكبر الطفلة لا يأخذون رأيها، فقط يخبرونها أنها مخطوبة لفلان - فكأنها ولدت وولد زوجها معها -، وعند الزواج يقدم الشاب مهراً وهو عبارة عن عشر حراب لأهل الفتاة، ولا يسمح لها بالاتصال جنسياً بأى رجل قبل زواجها حتى مع خطيبها، أما فى الوقت الحاضر فلم يعد يعمل بهذا التقليد ولا يشترط بكاره البنت ..

والمسموح به حتى الآن، هو أن يعاشر الزوج شقيقات زوجته اللاتى هن أصغر منها سناً وغير متزوجات، كما يحق له أن يعتبر الواحدة منهن زوجته ويبقى عليها معه إن هو أراد، أو يسمح لها بالزواج من غيره، ومن تتزوج منهن يوقف اتصاله الجنسي بها.

وعندما جاء الإنجليز إلى المنطقة عام ١٨٩٨ قضوا على مملكة الزاندي فى غرب الاستوائية جنوب السودان، وقتلوا الملك يامبيو الملقب بالملك «بُؤدُوْيه» وفرقوا أبناءه الأمراء على مناطق الزاندي برتبة سلطان، ومنعواهم من دفن زوجاتهم معهم والزواج من بناتهم.

ومع قضاء الإنجليز على مملكة الزاندي، اُتُبِّلَتْ كثير من العادات وخاصة تلك المتعلقة بالملك والسلطان، وأصبح السلطان يدفن بمفرده كسائر الناس، ولا زالت بقايا عاداتهم القديمة حتى الآن مثل تعدد الزوجات، وزواج السلطان من بنت أخيه، ومعاشرة شقيقة الزوجة الصغيرة غير المتزوجة، وإذا أنجبت من زوج أختها ينقل الطفل إلى بيت والده مباشرة، ويصبح إبناً للزوجة الأولى ويتوقف عن معاشرتها بعد أن تتزوج، أما الأخت الكبرى للزوجة فلا يقرها ويحترمها كثيراً لأنه يعتبرها بمثابة أخت له.

ولم تعد تتم خطبة الفتاة بمجرد ولادتها، إنما يحدث ذلك عندما تكبر، فيؤخذ رأيها، وتُسأل ثلاث مرات عما إذا كانت توافق على الزواج من ذلك الشخص الذى تقدم لها، فإذا وافقت، عليها أن تحجب بنعم ثلاث مرات، وعند ذلك يسمح للشاب بتقديم المهر، وبذلك تكون قد تمت مراسم الزواج، أما إذا رفضت فتبلغ أهلها الذين بدورهم يخبرون الشاب المتقدم لخطبة ابنتهم بعدم موافقتها، والشاب لا يتقدم إلى الأسرة مباشرة لخطبة ابنتهم، وإنما يستطلع رأيها أولاً عن طريق أصدقاء له أو صديقات للفتاة.

وممارسة الجنس مع أى فتاة تعني الزواج، فلا توجد فتاة غير عذراء، وإذا وجدت فإن من فض بكراتها وعاشرها هو الذى سيتزوجها لأن الأهل على علم بذلك، ولا يمانعون فى أن يعاشر الشاب ابنتهم، لكن بشرط ألا يستمر ذلك طويلاً، وعليه أن يأتى بعد أيام إلى أهلها ويتقدم رسمياً للزواج، ولكن قبل هذا عليه أن يدفع غرامة كسر بيت أى فض بكارة الفتاة، وإذا ما طل وهرب فإنهم يقاضونه أمام المحكمة التى تحكم عليه بدفع غرامة حسب وضعه المالى، فقد تصل إلى ألف جنيه وأقلها عشرون جنياً لمن لا يملك شيئاً، وفى حالة الاغتصاب فإن العقوبة والغرامة أكبر. وكان أشقاء الفتاة فى الماضى يقتلون من اعتدى على شرف أنثى.

وعند مخاض الزوجة للولادة لا يغادر الزوج بيته، ويظل باقياً فى الفناء ينتظر إعلان الخبر السعيد، إلى أن يسمع صياح المولود، ويسأل أهو بنت أم ولد؟ فإن كان ولداً يعطيه اسماً على الفور، أما إذا كانت بنتاً فيتناقش مع زوجته فى تسميتها، ويظل الوليد ثلاثة أيام لا يخرجونه من الكوخ حتى يجف حبله الشرى ويقع.

ويختن الطفل عندما يبلغ سن الخامسة أو السابعة على الأكثر، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو لا دينياً، ويتم الختان بشكل جماعى حيث يجتمع الأطفال الذين هم فى أعمار متقاربة ويختنون فى معسكر خاص، ويبقى فيه لمدة شهرين لا يشاهدون خلالها النساء ولا يعودون إلى أهلهم إلا بعد شفائهم تماماً، وعند ذلك

يقام لهم حفل تدق فيه الطبول (النقارة)، وتتشاءم الأسرة من الشخص غير المختن، فلو وقع ضرر في منزل أحدهم ويوجد فيه شخص غير مختن ينسبون إليه ما حصل.. أما البنات فلا يُختن.

ومن عاداتهم الاجتماعية أن علاقة الزوج بأهل زوجته تصبح أقوى من علاقته بأهله بعد الزواج من ابنتهم، ولو فرض أن والده توفي، وفي نفس الوقت توفي فرد من أسرة زوجته، فإنه يقوم بواجبه نحو قريب زوجته ويشارك في الدفن واستقبال المعزين، ثم بعد أن ينتهي من ذلك يذهب لأداء الواجب نحو أبيه أو أمه أو أي فرد توفي في أسرته— وبطبيعة الحال فإن أزواج أخواته يقومون بنفس الدور مع أبيه وأمه وأسرته— فالأولوية في كل شيء لأهل الزوجة وحقوق أهل الزوجة أكثر من حقوق أهله، ولا يجوز للزوج أن يخاطب أهل زوجته بصوت عالٍ، وهذا الاحترام يظل باقياً حتى لو طلق زوجته، فالعلاقة بهم تظل بنفس الدرجة لا تنتهي إلا بالموت.

والطلاق يتم بسبب الخيانة الزوجية^(١)، التي تعتبر جريمة قد تؤدي إلى القتل، وهناك طريقتان لمعالجة هذه المشكلة، فإما أن يبلغ الزوج أهلها فينذرونها بعدم تكرار الخيانة الزوجية تجنباً للفضيحة، أو يذهب إلى سلطان المنطقة أو الشرطة.

وهناك نساء يطلبن الطلاق في المحكمة بحجة أن أزواجهن لا يؤدون واجبهن تجاههن كرجال، فإذا أنكر زَوْجُ اتهام زوجته له أمام المحكمة، وأرادت المحكمة أن تتأكد من أقواله، تُخضِرُ امرأتين مُسَيَّتين وتدخلهما مع الرجل و يطلبون منه معاشرته زوجته أمامهما لينفي عن نفسه اتهام زوجته له، فإذا شهدت المرأتان بعدم قدرته، يحكم للزوجة بالطلاق. وبعض الرجال يشعر بالحرج تجاه هذا الموقف فيتخلى عن زوجته ويعترف بعدم قدرته تجنباً لمشاهدة المرأتين المستتين له وهو يعاشر زوجته— رغم علمه أن هذه مجرد حيلة من الزوجة لطلب الطلاق— ولو حدث أن أثبت قدرته أمام المرأتين، تُتهم الزوجة بالكذب وتسجن لمدة شهر، وإذا تكرر منها

(١) قبل أن تتزوج الفتاة من حقها أن تمارس الجنس كما تشاء.. أما بعد الزواج فلا يحق لها ذلك إلا مع زوجها الذي ارتضته زوجاً لها.

اتهامها لزوجها تسجن ستة أشهر أخرى وتعيد لزوجها أمواله ويحكم له بالطلاق، لأنها تسعى إلى تشويه سمعته، وأنها ليست أهلاً له .

وماذا عن حياتهم العملية؟

تعتمد قبيلة الزاندي في حياتها على الزراعة، فيزرعون الذرة والفلو والسمسم، والفاكهة مثل الأناناس والمانجو والموز والشّطة الحارة، أما الجوافة فهي كثيرة وتنمو من تلقاء نفسها، ومناطق الزاندي ينابيع وأنهار صغيرة تصب في نهر بحر الغزال، ويعتمدون أيضاً على المطر، وهناك سلاطين للمطر كما في القبائل الأخرى حيث يعتقد أبناء القبيلة أنهم ينزلون المطر بطريقتهم الخاصة، وتقدم لهم العطايا من المحاصيل الزراعية، وينالون عقابهم إذا فشلوا في إنزال المطر، وقد يصل العقاب إلى حرقهم بالنار.

ولا يوجد في مناطق الزاندي بقر كثير أو ماشية، ولذلك فهم يعتمدون على حيوانات الصيد من الغابة والدجاج، ومن يعيش منهم في المدن يأكل لحم البقر الذي يباع في الأسواق، وهم لا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة مثل بعض القبائل، خشية الإصابة بالأمراض، ويأكلون لحم الصيد بشرط أن يكون قد مات نتيجة إصابة بجريرة وليس موتاً طبيعياً، حيث يجففون اللحم على النار ويحتفظون به أياماً يأكلون منه .

أما السحر أو ما يشبهه فله عندهم أهمية خاصة ويسمونه « الكيجور » ويعتقدون فيه، وهناك أنواع متعددة منه — وإن كان أقرب إلى العادات البدائية منه إلى السحر — فهناك مثلاً نوع يسمى « بانجيه » وهو لمعرفة أسباب المرض، فإذا أصيب أحد من الأسرة بمرض ما، وظن أهله أن هذا من فعل فاعل، يذهبون إلى « الكيجور » الساحر ليقطعوا الشك باليقين، ويشرحون له مرضه فيسألهم: — هل تشكّون في أحد؟ .. فيبلغونه باسم من يشكون فيه، فيأتى بأغصان شجرة صغيرة يغلوها أو تنقع في ماء حتى يصبح شديد المرارة بتأثير هذا النبات، ثم يأتى « بكتكوت » صغير، ويقول « الكيجور »: — إذا كان فلاناً هذا قد عمل عملاً لهذه الأسرة فإن هذا « الكتكوت » يموت بعد أن أتقّط من هذا الماء في منقاره،

فإن مات «الكتكوت» تكون نسبة الشك خمسين بالمائة، فيأتي «بكتكوت» آخر ويكرر معه التجربة على نية ألا يموت الكتكوت في هذه المرة، فإذا لم يمت فإن الشك يصبح يقيناً، وتبحث الأسرة عن الأسباب التي دفعت هذا الشخص لعمل لهم هذا العمل، ويرسلون له شخصاً حاملاً هدية منهم لإرضائه مثل كمية من الذرة أو دجاج، فيأتي لهم، ولكي يؤكد تسامحه وصفاء قلبه نحوهم يملأ فيه بماء «ويبزقه» على وجه المريض.

وهناك نوع آخر من السحر اسمه «أي-واه» وهو يختلف عن الطريقة السابقة، وذلك بإحضار قطعة خشبية ناعمة الملمس وتوضع على رأس المريض، ثم يحضرون قطعة خشبية أخرى ويغمسونها في إناء به ماء ودواء محلي يقوم «الكيجور» بصنعه، ويضعون هذه الخشبة على الخشبة الناعمة فإذا التصقت بها يكون الشك صحيحاً، فيذهبون إلى من وقع عليه الشك ويسترضونه، اعتقاداً في أن صفاء قلبه نحوهم سيشفى المريض.

يوجد نوع ثالث اسمه «بين زأ» يقام له حفل خاص تدق فيه الطبول مثل الزار، ويتحدث صاحب المشكلة بمشكلته لسلطان الكيجور، وهي مشكلة تتعلق بعدم مقدرته في الصيد أو الزواج أو الخلافات الزوجية أو المرض، ويعطي له السلطان أدوية محلية مختلفة يستخدمها حسب الطريقة التي يصفها له.

أما «بنجو» فهو النوع الرابع، يتكون من ثلاث قطع خشبية، توضع اثنتان منها على الأرض وتُنصب عليها الثالثة عمودياً بدون تثبيتها بمسمار أو أي مادة أخرى، وينادي سلطان الكيجور «يابنجو» ويحكي المشكلة ويقول نود أن نعرف إذا كان فلان هو السبب، تسقط تلك الخشبة المنصوبة، ويترك الخشب الثلاث على هذا الوضع لمدة يوم، ويعود إليها فإن كان الشك صحيحاً تسقط الخشبة.

وقد سألت لو أن الخشبة هذه وقعت بفعل فاعل، مثل قطة، أو دجاجة، أو طفل أو ريح أو أي أحد عبث بها؟ فكان الجواب أن هذا يؤكد سلامة العملية، فالمهم أن تقع بأي وسيلة غير مقصودة، وقد جرّبت مُجدّثي هذه الطريقة وأصاب فيها نجاحاً كبيراً.

هناك سحر آخر اسمه «دا-با» ، وهو قطعتان من الخشب ، إحداهما تسمى «دا» والأخرى «با» ، تغرسان عمودياً ويتركان يومين في بيت حشرة «الأرضة» التي تأكل الخشب ، والنتيجة الصحيحة إذا أكلت الأرضة إحداهما وتركت الأخرى ، وإذا حدث غير ذلك يكون الشك ليس في محله فتبحث الأسرة عن سبب آخر لمرض من أصيب منهم .

و يوجد سحر خاص لمن يريد أن يكون محبوباً لدى النساء ومن سائر الناس ، ومن يريد ذلك عليه أن يذهب إلى سلطان الكيجور ويشرح له أمره ويحدثه بما في نفسه ، فيلتهن السلطان وجهه بدواء معين يصفه لهذا الغرض ، كي يجعله محبوباً من الآخرين . ولا زال هذا النوع من الممارسات سائداً .



قبيلة المورو

(٩)

المورو

يقولون عنها في السودان بلاد المورو، مساحتها تبلغ نحو خمسين ألف كيلو متر^(١)، وتتقاسم منطقة غرب الإستوائية مع قبيلة الزاندي التي تكثرها عدداً وتكبرها مساحة، تحدها من الشرق قبائل الباريا ومونداري وجمبرا، وفي الشمال دنكاتونج التابعة لمنطقة رومبيك في إقليم بحر الغزال، وتحدها من الغرب قبائل ياكبا، ومنلو، وجزء من الزاندي، وفي جنوبها تتواجد قبيلة الموجدنو أحد فروع الباريا، ويبلغ عدد سكانها نحو ربع مليون نسمة، وفي مناطقها يجري نهر «يبي» الذي ينبع من «يبي» في الجنوب، ويمتد شمالاً إلى بورو في أعالي النيل، وليس له جداول فرعية.

وتنتمي للمورو قبائل صغيرة، هي، مورو كوادو، ومورو ميزا، ومورو واندي ومورو باليبا، وجيلي، واوجورافوكايا، وديرا (وتسمى أحياناً بل)، وكل هذه القبائل الصغيرة تكتب وتتحدث لغة المورو، وهي لغة مستقلة عن لغات القبائل الأخرى.

إن أصل قبيلة المورو جاء من شمال أفريقيا منذ نحو ألف وخمسمائة عام، وسكنوا غرب الإستوائية في الجنوب السوداني، وتكتب كلمة مورو MORU وأحياناً MORO وقد تعمد الإنجليز ذلك في أوائل القرن العشرين بهدف تفتيت القبيلة لكبرها وتأثيرها على القبائل الأخرى، وكان لِّلغة دورها في هذا التأثير حيث يتحدث أهل قبيلة لولوبا ولوبارا لغة المورو، وتتشابه لغة المادي مع لغة المورو رغم وجودها في شرق الاستوائية، مع وجود خلافاً طفيفة تزول مع استمرار الاتصال بين القبيلتين^(٢).

(١) هذا الرقم مصدره شفهي.

(٢) لقاء مع أزيبوني منديري، وهو شخصية سياسية له تاريخ سياسي في الجنوب حيث شغل أكثر من منصب وزارى في الحكومة الإقليمية، وحالياً مسئول عن مشروع (أنزارا) لتصنيع الزيوت في الجنوب.

ولأهل المورو تاريخهم وعاداتهم التى يتميزون بها عن غيرهم ، ويتركز هذا التمييز فى شخصية الملك الذى تلاشى دوره الآن ، وحل محله السلطان ، بتأثير الوجود الإنجليزي ، فقد كان للملك هيئته ودوره فى توحيد القبيلة ، وكان يُعامل معاملة خاصة حيث يرفع على الأكتاف وهو جالس على سريره (العنقريب) .

ومن التقاليد الملكية فى القبيلة أن الملك هو الذى يعين خليفته من أحد أبنائه أو أشقائه أو أقربائه قبل أن يموت ، ويقوم بتوزيع نسائه المقربات إليه على أولاده وإخوته ، أما اللائى يكون غير راض عنهن فيترك لهن حرية الاختيار فى البقاء أو العودة إلى أهلن ، أو يتزوجن بآخرين من أفراد أسرته ..

وربما تكون هناك علاقة بين بعض تقاليدھا والتقاليد المصرية القديمة ، وخاصة فى طريقة دفن الموتى ، فعندما يموت الملك يدفن فى غرفة الملك حيث تحفر حفرة على عمق ثمانية أمتار وفى عمقها ينحتون كهفاً بعمق جانبى لمسافة مترين ، وارتفاع مترين ، يضعون فيه سريره ويفرش فوقه « حصيرة » ويمددون عليه جثمان الملك ، ويوضع حوله طعامه وشرابه وعلونه ، ثم تغلق هذه الغرفة الجانبية — التى تشبه الكهف تحت الأرض — بالحجارة ، ليفصلوا بينها وبين الحفرة التى يقومون بردمها لتساوى بعد ذلك مع الأرض . ولازال نظام دفن الموتى بهذه الطريقة باقياً حتى الآن للأفراد العاديين مع اختلاف طفيف هو أن الجثة لا يوضع تحتها سرير وبعضهم يضع حصيرة .

كان للملك حرسه الخاص وسلاحه وعساكره ، ولذلك كثيراً ما كان يتصارع مع القبائل الأخرى بهدف الاستيلاء على أبقارهم ونسائهم ، فثلاً إذا أعجبه امرأة ، أو سمع عن جمالها فى قبيلة أخرى حتى لو كانت متزوجة يُحرّض على خطفها ، وهنا تبدأ المشاكل .

وقد وجد الإنجليز صعوبة فى البداية كى يقضوا على هذه الظواهر فلبجأوا إلى حيلة ، وهى مصادرة أسلحة القبيلة عن طريق إقناعهم بتسليم أسلحتهم ليستبدلوها لهم بأسلحة جديدة ، وعندما سلمت القبيلة أسلحتها فوجئوا بأن من سلم مائة قطعة أخذ عشرين قطعة جديدة بدلاً منها ، ومن سلم مائة وخمسين قطعة أخذ مقابلها ٣٠

قطعة، أى أن الإنجليز خفضوا أسلحتهم بنسبة خمسة إلى واحد، وهذا أمكن لهم تقليص قوتها مما مكنهم من القضاء على النظام الملكي في القبيلة، وقد ساعد في هذا ظهور تجارة الرقيق في أواخر القرن الماضى، حيث هرب الناس لينجوا بأنفسهم، فضعفت هيبة الملك، ثم تلاشت تماماً، وكان الإنجليز قد أبطلوا بعض الأحكام القاسية التى كانت تفرضها قوانين المملكة، ومنها إلغاء قطع ذكر الرجل الذى كان يضبط متلبساً في خيانة مع إحدى زوجات الملك أو بناته.

كان للملك الحرية المطلقة في الزواج بمن يشاء من النساء، ويذكر أن آخر ملك في القبيلة كانت له خمس وخمسون زوجة، أقام لمن مساكن من الأكواخ (القطاطي) وهي عبارة عن مستوطنة ملكية كبيرة، وكل كوخ (قطية) يكتب عليه اسم الزوجة، وتعين على كل عشر زوجات امرأة من القبيلة ترعى شؤونهن وتنظم العلاقة بينهن وبين الملك، فإذا طلب امرأة معينة أو أكثر أبلغ رئيسة العشرة بذلك لتقوم بتجهيز من سيقضين الليلة معه.

ويعزى تعدد الزوجات لرغبة الملك في كثرة الإنجاب للمحافظة على سلطاته وهيئته واستمرار نظام الملكية في القبيلة كي تحشاها القبائل الأخرى، ولن يجد صعوبة في الزواج من أي امرأة أو فتاة بطبيعة الحال فهو الملك، وإذا وقعت عيناه على امرأة في أي مناسبة وسأل عنها، فهذه إشارة إلى أنه أعجب بها ويريدها زوجة له، فيقوم من كانوا معه وسمعوا سؤاله بإبلاغ والد الفتاة بأن الملك اختار ابنته، وماعلى الوالد إلا أن يجهز ابنته ويحضرها إلى الملك، وتضم إلى حرمه، ويعد لها كوخاً (قطية) ويكتب عليه اسمها، وبعد أن يعاشرها يأمر في اليوم التالي بإرسال كمية من البقر لا تقل عن مائة بقرة كمهر لزواجه من تلك البنت.

ألغى الإنجليز نظام الملكية في قبيلة المورو واستبدلوه بنظام السلطنة وعينوا أبناء الملك وأقاربه كسلاطين، وفرقوهم في مناطق متباعدة، ثم اختار هؤلاء السلاطين مساعدين لهم من بين أفراد أسرهم، وهكذا تفتت تماسك الأسرة المالكة حيث استقل السلاطين في مناطقهم ولم تعد الأسرة قادرة على استعادة تماسكها.

وقبل عام ١٨٢٠ لم تكن القبيلة قد عرفت الأديان السماوية بعد، وفي ذلك العام عرفت المسيحية على يد القسس والمترجمين، الذين تحولوا إلى مدرسين يعلمون أبناء القبيلة الدين المسيحى واللغة الإنجليزية، كما دخلها الإسلام عام ١٨٢٤ على يد التجار العرب وحمله محمد على، وهذا انتشرت المسيحية والإسلام، وظل عدد منهم لا دينيين يبلغ عددهم في الوقت الحاضر نحو ثمانين ألف نسمة.

وقد عانت القبيلة من تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر التى جاءت مع التجار الفرنسيين والبلجيكين والأتراك والانجليز والهنود الذين كانوا يجمعون الصغار من الأولاد والبنات في منطقة تركاكا، ويشحنونهم في صنادل نيلية عند منطقة الشُّلك في أعالي النيل لتصل بهم إلى أم درمان حيث يوجد هناك سوق للرقيق. وكان لهم وكلاء يقومون بتصديرهم للأسواق الأوربية والأمريكية ليعملوا في زراعة الأرض، وذهب معظمهم إلى أمريكا كقوة بشرية عاملة، لأن الأوربيين الذين قدموا إليها لم يستطيعوا العمل في المناطق الحارة، فجاءوا بهؤلاء حيث يتشابه المناخ الأفريقى مع بعض المناطق الحارة في أمريكا مثل كاليفورنيا وتكساس.

ويقال إن أصل تجارة الرقيق في أفريقيا بدأها القسس الكاثوليك في السنغال وتمكنوا من الدخول إلى جنوب السودان، ونجت قبائل النوير والدينكا من تجارة الرقيق، لوجودها في مناطق المستنقعات والجداول المائية حيث تصعب مطاردتها ويتعذر الوصول إلى مناطقها، أما الزاندي والورو فأرضهم مكشوفة ويسهل الوصول إليها، وقد أدت تجارة الرقيق إلى نقص عدد قبيلتي الزاندي والورو أكثر منه في قبيلتي النوير والدينكا اللتين نجا أهلها من هذه التجارة.

ولقد استمرت هذه التجارة حتى مجيء بعثة كتشنر إلى السودان عام ١٨٩٠.

ورغم ذلك فإن مناطق القبيلة كان لها نصيب كبير من الخدمات منذ عام ١٩٢٠ زاد عن غيرها من المناطق، ففي ذلك العام وفد إلى المنطقة مبشر إنجليزى يدعى «فريزر» ومعه زوجته الأسكتلندية، وأنشأ في «لوي» - مركز المورو - مدرسة ومستشفى وكنيسة. وكثرت الخدمات التعليمية، حيث أقام بين كل ثمانية أميال مدرسة وعيادة صغيرة بها ممرض يطوف على القرى بدراجته، وزادت

العيادات الصغيرة حتى بلغ عددها خمسا وعشرين عيادة في منطقة المورو، واهتم الدكتور فريزر بالتعليم، فوضع في المناهج تدريس اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم، والعلوم الزراعية التي أقبل عليها أبناء المورو.

وفي «لوي» تبلغ نسبة الذين تخصصوا في العلوم الزراعية بعد شهادة الدراسة الابتدائية نحو عشرين بالمائة، هذا بالإضافة إلى الاهتمام بتعليم الدين المسيحي.

يوجد في قبيلة المورو أكثر من ألف شخص تخرجوا من الجامعات، ويتخرج كل عام نحو ألفين من المدارس الثانوية، ويلتحق نحو مائتين منهم بالجامعات في يوغندا وكينيا ومصر، إذ يحصل نحو خمسة وعشرين طالبا على منح حكومية للدراسة في مصر، ويذهب عشرات آخرون للدراسة على حسابهم، وقد أفاد وجود بعثة الرّي المصرية في ملكال أهل المورو ليتعلموا ويتدربوا.

والكثيرون منهم يدرسون في الجامعات الأوربية والأمريكية، وقد درس السيد أسبوني مانديري - الذي أجريت معه هذا اللقاء - بجامعة الخرطوم عام ١٩٥١، وتخرج فيها عام ١٩٥٥ حيث درس الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والقانون باللغة الإنجليزية، كما درس قوانين الشريعة الإسلامية باللغة العربية.

ولاشك أن برامج التعليم والاختلاط بالثقافات الحديثة أثر على عادات المورو القديمة، حيث تلاشت الآن عادة إزالة الأسنان السفلى لدى البنات، وقلت عادة وضع علامات على الصّدغ، وهي عبارة عن أربعة خطوط عمودية في منتصفها خط مستقيم هكذا +++ كعلامة تمييز أفراد القبيلة عن القبائل الأخرى.

ومن تقاليد الزواج عند المورو أن الشاب الذي يريد أن يتزوج فتاة معينة عليه أن يذهب أولاً إلى والدها أو أخيها، وعندئذ يتحدث الوالد أو الأخ مع الفتاة لمعرفة رأيها، ويتدرد الشاب على المنزل نهاراً بعلم الأهل وبحضورهم، أي إن تردده لا يتم سراً، وفي الزيارة الثالثة على الفتاة أن تقول رأيها، فإذا أعرضت عن الزواج من الشاب يبلغه أهلها بأن عليه أن يكف عن زيارتهم لأن ابنتهم رفضت الزواج منه، وإذا وافقت يبدأ الحديث عن إجراءات الزواج، وبعد ذلك يحضر مع أبيه أو أخيه أو أتي أحد من أسرته ليتحدث في موضوع الزواج ودفع المهر المطلوب من

البقر، وإذا اكتشف الشاب بعد الزواج أن زوجته ليست بكرًا فمن حقه أن يعيدها إلى أهلها ويسترجع مآدفعه من مهر، وفي هذه الحالة تَلْقَى الفتاة العقاب من أهلها الذي يصل إلى حد طردها من البيت، وبعد ذلك قد تتزوج أو لا.

والمرأة لا تترث شيئاً، وقبل الوفاة يقسم الأب ما يملكه من نساء وأبقار وأكواخ على أولاده، وإذا لم يكن لديه أبناء يوزع الزوجات والبقر على إخوته الذين يقومون بواجبهم نحو البنات.

وسلاطين القبيلة هم أصلاً أحفاد الملك الذي ألغى الإنجليز وضعه، وعندهم سلاطين للمطر، ويعتقدون أن هؤلاء السلاطين ينزلون المطر عن طريق صلوات يؤدونها لإله القبيلة، وسلطان المطر يُنصَّب بالوراثة، وهو يتعرض لما يتعرض له سلاطين المطر في القبائل الأخرى، فإذا لم يسقط المطر يعاقب بالجلد أو إيقاد النار بالقرب منه، وقد شوهد سلطان المطر عام ١٩٧٤ في جوبا مربوطاً بجوار النار فاستغاث طالباً إعطاءه فرصة حتى الساعة الثانية ظهراً، وأعطوه الفرصة، قائلين له: — «إذا مطر ماجا الليلة دا إنا مافي»، أي إنه إذا لم يسقط المطر اليوم فلن يكون على قيد الحياة، وقد هطل المطر وأُنقذت حياته، وتقديراً لدوره في إنزال المطر، يرسل له كل بيت نصيبه من المحصول الزراعى سواء كان فولاً أو ذرة. وأهل المورو يزرعون الفول والذرة واللوبياء وقصب السكر، والخضروات والفواكه مثل المانجو والباباي والأناناس والليمون.

وبجانب سلطان المطر، هناك سلطان «الكيجور» الذى يشفى الأمراض ويحل المشاكل عن طريق السحر.

ومن الأشياء التى عرفتْها عن قبيلة المورو أنها كانت تستخدم أصداف البحار التى تعيش فيها الحيوانات المائية كقطع مالية تعادل قرشاً أو قرشين، كما كانت تصنع من النحاس والحديد عملة نقدية يتداولونها مع الأصداف فى البيع والشراء أما عن كيفية استخراج النحاس والحديد وعزله عن الشوائب، فتم بوضع خام المعادن فى غرابيل عالية مُثَقَّبة ثقوباً صغيرة، ويشعلون تحته ناراً حتى ينصهر المعدن ويسيل من الثقوب لتستقبله قوالب صغيرة ذات أحجام مختلفة، من بوصة

إلى قدم ونصف ، وكل قطعة ذات حجم معين تساوى نقوداً بمعدلات مالية متفق عليها ، كما كانوا يصنعون من النحاس عقوداً وخلاخيل للنساء ، و يصنعون من الحديد الأسلحة والحراب والآلات الزراعية مثل المألودة^(١) ، وكان قالب الحديد الذى يعادل قدماً ونصفا يقدم مهراً للزواج وهو يعادل خمس مألودات .

وهكذا حوّل أهل المورو الحديد إلى مال يدفعونه كمهر للزواج و يصنعون منه أدواتهم الزراعية وحرابهم وأسلحتهم ، و يتاعون به الذرة وما يلزمهم من احتياجات ، استمر ذلك حتى عام ١٨٩٩ ، عندما جاء الأتراك والمصريون وأدخلوا العملة المصرية ، كما أبطل الإنجليز استغلال المعادن بقانون عام ١٩٣٠ ، ومن يضبط يوضع فى السجن .

وفى عام ١٩٣٥ عرفوا العملة الورقية الإنجليزية ، ثم استغل الإنجليز الحديد المتوفر فى مناطق المورو لأهدافهم الصناعية ، وما زالت هذه المنطقة تتمتع بثروة معدنية لم تستغل ، حيث يوجد بها الحديد والنحاس واليورانيوم والرخام والذهب .

وأثناء الحرب الأهلية فى الجنوب كانوا يستخرجون الذهب من الجبال و يبيعونه فى الكونغو ويشتررون به سلاحاً . وفى عام ١٩٤٥ قامت شركة من جنوب أفريقيا بالتعاون مع بريطانيا لاستخراج اليورانيوم من جبل «مالانجا» ، إلا أن هذه العمليات توقفت بسبب حوادث توريد عام ١٩٥٥ . وفى عام ١٩٥٨ قامت شركة أمريكية بالتقيب عن اليورانيوم ، وأوقف الفريق إبراهيم عبود^(٢) عام ١٩٥٩ أعمال تلك الشركة .



(١) المألودة آلة تصنع من الحديد وتستخدم فى الزراعة .

(٢) أطاح بحكومة السيد إسماعيل الأزهرى فى انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ .

خاطرة..... قبيل الطبع

... قُدر لي أن أطلع على هذا (المؤلف)
.. قبيل الدفع به إلى المطبعة
... أكثر ما كان له أثر في نفسي الجهد الذي بُذل فيه .
... فالكاتب قد رضي بالحياة في ذلك الجزء الثاني من الوطن زهاء عقد من
الزّمان ... تعايش مع أهله ارتبط معهم ...
... خلع رداء الدبلوماسية وتحلّل من قيودها والتزاماتها
... وشقّ الفياض والوهاد ليقف على حياة قبائل على الطبيعة
... ثمّ بعد أن حظّ الرّحال ... أمسك اليراع ... لرسم مسيرة جهادٍ طويل ...
وتجربة انسانية فذة..... ولست عن كشب اهتمام الكاتب بكتابه .. حقائق ...
أسلوباً .. وعرضاً .

عبد القادر محمد أحمد
جامعة الخرطوم - كلية الآداب
الدراسات الاسلامية
١٤ سبتمبر ١٩٨٥ م

مجموعة صور الجزء الثاني

//

✓



مع ملكة قبيلة اللاتوكا في فناء « الحوش » منزلها وإلى يمينها
زوجها وعجائبه السلطان



صورة جماعية لسلطين قبيلة الآشولي وبينهم سلطان المطر، والمؤلف يقف في الصف الثاني خلف المفتش .



مع مفتش قبيلة الآشولي وماريّا التي تقول إنها متخصصة في الكجور (السحر) وهي بواسطة هذه التي تعملها بيدها تستطيع أن تساعد الآخرين .



قبيلة الأشولي ترحب بالمولف .



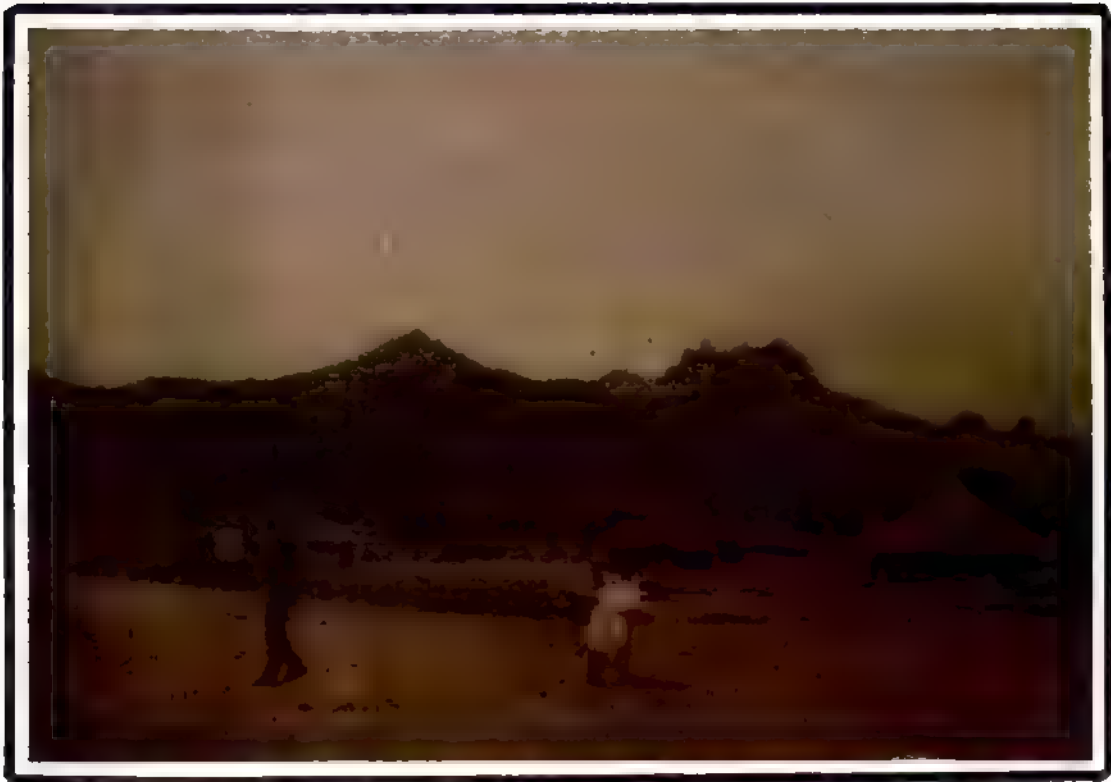
ولأنهم يرقصون كثيراً، يندر أن تشاهد بدينا في جنوب السودان .



ذراع المؤلف ورقصة شعبية من قبيلة الآشولي .



فرقة الفنون الشعبية في آشولي يتوسطها المؤلف .



القطاطي (العشش) أو الأكواخ كما هي في أحضان الطبيعة وحوطها سلسلة جبال
توديت إحدى قرى الآشولي.



الطريق إلى قمة جبل جيلو.



الاستراحة التي بناها البريطانيون فوق قمة جبل جبلولتكون مقراً لاجتماع قادة
الجيش البريطاني في دول شرق أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية — تحولت الآن
إلى استراحة حكومية .



الطبيعة والغيوم تغطي جبل جبلول.



هكذا أشرح قبل التسجيل وجهاز الراديو «المسجل» في الوسط على الطاولة.



إلى يميني يجلس عضو مجلس الشعب الإقليمي وإلى شمالي يجلس مساعد المحافظ والواقف ذو البدلة «البيج» والطربوش هو كبير السلاطين في قبيلة الدادينجا في شكُدم والذين معنا هم سلاطين القبيلة.



قصر ملكة قبيلة اللاتوكا .
أكبر كوخ رأته حتى الآن في جنوب السودان ، يتم هدمه وإعادة بنائه في يوم واحد .



المؤلف بين الدكتور باسيفيكو رئيس مجلس الشعب الإقليمي وخلفه وزير المالية الإقليمي أجودي دي ، وسط أفراح قبيلة اللوكايا في يوم الحصاد .



وحتى النسوة والأطفال يشاركون في هذه الاحتفالات .



المؤلف وإلى يمينه كبير السلاطين يوسف إيكو وبعض سلاطين قبيلة التابوسا وإلى يساره مفتش مركز كابوتنا .



صورة أخرى تبين كبار السلاطين يوسف إيكو، سبعون عاماً وعشرون زوجة على قيد الحياة وعدد كبير من الأبناء والأحفاد (ما شاء الله) .



كبير سلاطين قبيلة الدادينجا يتوسط سلاطين آخرين في شُكْدُم.



الذي حارب مع الإنجليز وساق سيارة جومو كينياتا ، إنه من قبيلة الدادينجا في شُكْدُم.



في شُكْدُم وسط أحضان الطبيعة الخضراء ، يحرث الأهالي الأرض لزراعتها وسيدة
تبذر البذور وأنا أحمل طفلها .



رقصة مع كبير سلاطين الدادينجا وروزا ولوسيا - شُكْدُم .



الشارع الرئيسى فى مدينة توريت .. مقر محافظ شرق الاستوائية .



صورة جماعية مع بعض من افراد قبيلة الدادينجا فى شكدم



هكذا أنام في الليل أثناء نجهالى ، إن الخط الأبيض ليس أفعى ، إنما هو عود عشة
« قشة » يابس لصق بعدسة الكاميرا فظهر كما لو كان أفعى .

1991

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٧
مقدمة أولى :	١٧
مقدمة ثانية :	١٩
مقدمة ثالثة :	٢٣
مقدمة تعريفية :	٢٧
الجزء الأول	٣١
الفصل الأول : من السالمية إلى جوبا	٣٣
الفصل الثانى : الأتيام الأولى	٥٣
الفصل الثالث : فى ربوع السودان ويوغندا وكنيا	٧٧
الفصل الرابع : الشيخ صباح السالم يزور جوبا	٩٥
الفصل الخامس : وجهاً لوجه مع الأسد	١١١
الفصل السادس : مع تجارى الأوربي	١٢٥
الفصل السابع : مع الأمير ولى العهد	١٣٧
الفصل الثامن : أقراح .. وأتراح	١٤٧
الفصل التاسع : ساندوتشات	١٦٥
* مجموعة صور الجزء الأول	١٧٧
* * * *	
الجزء الثانى	٢٠٩
مقدمة :	٢١١
قبيلة المادى	٢١٥
قبيلة الآشولي	٢٢٧
قبيلة اللاتوكا	٢٣٩
قبيلة التابوسا	٢٥١
قبيلة الدادينجا	٢٦٣
قبيلة البويا	٢٧٥
قبيلة الباريا	٢٨٣
قبيلة الزاندي	٢٩٥
قبيلة المورو	٣٠٧
خاطرة قبيل الطبع	٣١٧
* مجموعة صور الجزء الثانى	٣١٩



المؤلف :

- عبد الله سنريغ عبد الرحمن السنريغ (عبد الله السنريغ) .
 - ولد عام ١٩٣٤ في حي الصالحية بالكويت العاصمة .
 - متزوج .
 - بدأ حياته العملية موظفاً .
 - انتدب من وزارة التخطيط عام ١٩٧٤ للعمل مديراً لمكتب دولة الكويت بجنوب السودان للإشراف على المشاريع المهداة من الكويت للإقليم التي تمويلها الهيئة العامة للجنوب والخليج العربى .
 - عين في فبراير ١٩٨٤ سفيراً بوزارة الخارجية ثم سفيراً للكويت في السودان ٨٤ - ١٩٩١ م .
 - منحه الرئيس نميري عام ١٩٧٨ وسام النيلين من الطبقة الثانية ، عندما كان يعمل في الجنوب .
 - منحته جامعة جوبا عام ١٩٨١ شهادة الدكتوراه الفخرية بالآداب بمناسبة تخريج أول دفعة من طلابها مع عدد من الساسة السودانيين ومعهم المناضل ويلسون مائديلا ، تسلمها نيابة عنه سفير تنزانيا في الخرطوم .
 - منحته (واد مدنى) عاصمة الإقليم الأوسط حق المواطنة ، وذلك بمناسبة احتفالات الإقليم لدولة الكويت في يونيو ١٩٨٩ م .
- ## من أعماله الأدبية :
- أصدر عام ١٩٨٦ كتاب (سنوات في جنوب السودان) ، ما كتب عنه يحتاج لمجلد ضخم .
 - ألف عدد من المسرحيات ذات الثلاثة فصول والفصل الواحد ، أخرج منها المرحوم صقر الرشود مسرحية (الأول تحول) في دولة الامارات ، ومسرحيتان اخرجتا في السودان الأولى مسرحية (عروس حسب الظروف) اخرجتها الفنانة نعمات حماد والثانية مسرحية (جارة السوء) وقد اخرجها الفنان الفاضل سعيد .
 - ألف فيلماً سودانياً اسمه (قبل قوات الأوان) فكرة الأستاذ عثمان حميدة ، تعديل وتأليف الكاتب ، كتب له السيناريو الأستاذ أحمد النمر ، وشارك فيه المؤلف ، (لم يُخرج بعد) .
 - يصدر له قريباً ديوان بعنوان (وحي الخاطر) يحتوى على قصص قصيرة وخواطر وتأملات وألوان من الشعر .
 - كتب للتلفزيون ، كما قدمت له اذاعة الكويت الكثير من التمثيليات القصيرة .